عناق الأصابع

دار الجندي للنشر والتوزيع
القدس
00972542263454
info@aljundi.biz
www.aljundi.biz

*

عادل سالم

"عناق الأصابع"

(رواية)

*

الطبعة الثانية (2012)

جميع الحقوق محفوظة

*

صدرت الطبعة الأولى عن
مؤسسة شمس للنشر والتوزيع
القاهرة (2010)

*

التصميم والمونتاج والإخراج
الريشة

*

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر والمؤلف.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher and the author.

رواية

عادل سالم

عناق الأصابع

AL JUNDI
دار الجندي للنشر والتوزيع
PUBLISHING HOUSE

تنويه من الكاتب

رواية "عناق الأصابع" ملحمة تاريخية، تصور حياة الأسرى الفلسطينيين والعرب في سجون الاحتلال الصهيوني البغيض، غالبية أحداثها وشخصياتها حقيقية، عانت من السجن، وقيد السجان، لكن بعض الشخصيات الأساسية في الرواية من خيال المؤلف اقتضتها ظروف العمل الفني، فإن تطابقت مع أسماء موجودة على الأرض فهي مجرد صدفة.

"عناق الأصابع" ترصد بطولات الأسرى، ولحظات ضعفهم، وتكشف ما يجول بأفكارهم، وأحلامهم، وقلوبهم، وقصص عشقهم، بقالب أدبي بعيد عن الخطاب السياسي.

الإهداء

إلى الذين علّموني كيف أرتب الحروف، والأرقام، وفتحوا أمامي طريق العلم، والثقافة، والأدب.

إليهم جميعًا، الذين علموني حرفًا، أو مرحلة دراسية كاملة، أسجل تقديري، وعرفاني، وأهديهم رواية "عناق الأصابع"، وأعتذر من الذين لم تسعفني الذاكرة في تذكر أسمائهم.

الأسماء حسب المراحل التعليمية:

الأساتذة: وديع خميس، سعيد الحسيني، شريف ملحم، الشيخ فتحي يكن، فوزي البكري، كامل الأرناؤوط، عدلي النشاشيبي، إبراهيم طوطح، فهمي الأنصاري، يوسف المظفر، وليد الحلاق، عبد الجليل النتشة، عزمي أبو عصب، سفيان قطينة، مطر النخال، توفيق وهبة، طاهر النمري، الشيخ فارس إدريس، عبد القادر الزماميري، يوسف النجار، أيوب الجولاني، جودت أحمد غانم، راتب الرابي، توفيق هلال، نبيه إسماعيل الريماوي، فوزي جابر، إبراهيم الحسيني، أمين عديلة، وأخيرًا المربي الفاضل نهاد أبو غربية الذي فتح لي أبواب مدرسته (الإبراهيمية) على مصاريعها دون مقابل.

(1)

1978

الساعة السادسة صباحًا، بدأ السجانون يفتحون أبواب غرف سجن الرملة معلنين بدء يوم جديد. تسابق الأسرى في ذلك السجن إلى الخروج إلى الساحة ليبدؤوا يومهم بالرياضة؛ الركض هو أول ما يبدؤون به مشوارهم الصباحي، بعد ذلك يلعبون بعض التمارين الخفيفة الممكنة.

علي النجار في قسم (أ) أول النازلين إلى الساحة، فهو الرياضي الأول في السجن، لا يترك يومًا يمر بدون ممارسة ألعابه الرياضية بما فيها نطّ الحبل.

عندما يستيقظ في الصباح يعمل على إيقاظ أسرى غرفته خصوصًا الذين يمارسون الرياضة معه، فليس كل الأسرى يحبون الاستيقاظ مبكرًا، بل بعضهم لا يحب ممارسة الرياضة، ويتثاقل منها، ومنهم من يمارسها خجلاً من علي، الذي لا يتركهم ينعمون بالنوم صباحًا.

- الرياضة أهم من النوم.

هكذا يقول لهم دائمًا، ثم يتابع:

- الرياضة سلاح الأسير الجسمي لتمنع عنه الأمراض، وتحافظ على صحته، في وقت يعاني فيه الأسرى من الإهمال الطبي، وعدم توفر الشروط الصحية في السجن، إضافة إلى سنوات الأسر الطويلة التي قضاها بعضهم، وربما تنتظرهم سنوات أخرى. لا أحد يعلم متى تستطيع الثورة أن تحررهم من الأسر، فالمعركة مع العدو طويلة، ولا تسمح لنا بالتقاط الأنفاس.

اقترب علي من سليم وقال له:

- انهض يا سليم، جاء السجان ليفتح الباب، لا تتأخر، سأكون بانتظارك.

خرج علي من الغرفة كبقية السجناء. ثوانٍ كانت الساحة تعج بالأسرى يركضون كأنهم في طابور حرب، أو كأنهم يمارسون تدريبهم اليومي في معسكرات قتال. بعد فترة بدأ العرق يتصبب من أجسامهم، وشعور بالراحة يتملكهم، فهم برياضتهم الصباحية يطردون الخمول، والكسل، والأمراض من أجسامهم.

يتوقف علي عن الركض، ويبدأ مع سليم في وسط الساحة باستخدام الحبل. بعد لحظات ينضم إليهم عطا القيمري، ثم عمر القاسم، ومحمد

عليان، وآخرون، وتطول الحلقة، وتكثر الحبال، فتستمع إلى أصواتها المتلاحقة وهي تضرب الأرض كأنها صوت موسيقى يعذب سماعها ساعة الصباح.

يستيقظ أحمد في غرفته، وبعد أن يغسل وجهه، يعود إلى النوم. يقول له خليل:

- ألن تذهب إلى الفطور؟

- أشعر برغبة في النوم.

- يكفيك نومًا، انهضْ، ألا يكفي أنك لم تلحق بعلي إلى الساحة؟ سيعاقبك اليوم.

- عجيب أمر علي يا خليل، يريدنا أن نمارس الرياضة كل يوم. أحيانًا لا يشعر الإنسان بالرغبة في عمل أي شيء.

- سوى النوم؟

يضحك أحمد.

- لن أستطيع النوم الآن، لكن أحب أن أستلقي سابحًا في بحر ذكرياتي.

- ذكريات في الصباح؟

- الذكريات تهاجمك دون إنذار، لا تعرف متى! أحيانًا في الليل عندما يحاول الأسير منّا الخلود إلى النوم، وأحيانًا أخرى في الصباح عندما يستيقظ من أحلام جميلة كان يعيش فيها قبل لحظات.

- الله.. الله. قل لي بماذا حلمت يوم أمس؟

- ليس هذا وقته يا خليل، كنت سأعود إلى النوم، ولكنك عطّلته علي.

- إذًا انهض، ودعنا نذهب إلى قاعة الأكل فالشباب الآن بانتظارنا.

هبّ أحمد. غسل وجهه، ولبس ملابسه العادية، ثم غادرا تجاه قاعة الأكل.

كانت القاعة مليئة بالأسرى العرب يقفون بالطابور ليحصلوا على صينية الفطور؛ بيضة، ٤ حبات زيتون، بعض المربى، قليل من الخبز، مرجرين، وبعض السميد الذي يسمونه في السجن بالعبرية (دايسا)، في حين يسميها الأسرى حلاوة سميد، يخلطونها ببعض السكر، وبعضهم يخلطها بالمربى والمرجرين، ويعدونها وجبة الصباح الأساسية، فهي الوجبة الوحيدة الساخنة بشكل جيد، إضافة إلى الشاي الذي يقدم بكثرة.

غرفة الطعام واسعة بعض الشيء، ولا تتسع للجميع في وقت واحد، ولكن مع وصول الفوج الأخير لاستلام الأكل يكون بعضهم قد خرج من القاعة. الطاولات المعدة كبيرة وكراسيها غير متحركة بل مرتبطة بها، تتسع كل منها لحوالي عشرة أسرى.

حمل أحمد صينيته والتحق بالطاولة التي يجلس إليها علي، وكان يجلس معه كالعادة هاني العيساوي، وعدنان القواسمي، ومحمود المحتسب، وعمر القاسم، وآخرون.

كان علي قد أنهى رياضته الصباحية، وحصل على حمام بارد، ثم نزل إلى القاعة نشيطًا. الماء البارد هو المتوفر داخل الغرف، فلا ماء ساخن هناك إلا بالحمام الكبير، والذي له ساعات محددة باليوم.

قال علي لأحمد وخليل بعد أن رآهما:

- يا كسالى، أين أنتما؟ لم أشاهدكما اليوم!

ضحك أحمد، وقال له:

- كيف لم ترنا؟ ها نحن أمامك.

- ها ها ها... أمامي؟ أنتما أمام الأكل.

- يا علي، الرياضة كل يوم مملة، مرة في الأسبوع، مرتان.

أكمل خليل:

- ثلاثة، ولكن كل يوم؟

فقال علي:

- ألا يأكل كل واحد كل يوم؟

- نحن نأكل لأننا نشعر بالجوع.

- حسنًا، لولا الجوع ربما لتوقفتم عن الأكل، ولكن أحيانًا يأكل الإنسان دون أن يشعر بالجوع.

- كيف؟

فتدخل عمر القاسم قائلاً:

- مثلاً، عندما تأكلون الفستق، أو البذور، أو حبة فواكه، أو تشربون السجائر.

- بعض المأكولات عادة، وربما يشعر المرء بمتعة وهو يأكلها.

فرد عمر:

- تمامًا هو ما أردت الوصول إليه، المتعة؛ لو كنتم تستمتعون بالرياضة لنزلتم على الفور.

- لكل شيء فلسفة يا عمر، أنت مثل علي على الرغم من أنك من غير تنظيم.

فقال هاني:

- يا علي، لا تلاحقهم بالرياضة، ليس كل إنسان مثل الآخر. إنه خيار في الأسر، كلهم يعرفون أنها مفيدة للجسم، ولكن بعضهم لا يمارسها نهائيًّا.

مرّ عطا عنهم حاملاً صينية الأكل، وتوقف ملقيًا عليهم تحية الصباح.

- هل سمعتم آخر الأخبار؟

- لا، ماذا سمعت؟

- آخر الأخبار تقول إن إدارة السجون تخطط لافتتاح سجن جديد في النقب وستسميه سجن "نفحة"، وحسب المعلومات التي تتناقلها الصحف، فإن هذا السجن سيضم حسب تعبيرهم (الرؤوس الحامية)، يعني قيادة الأسرى في مختلف السجون، أو من يرونهم كذلك سواء من

مواطني الضفة أو القطاع، لكن الحديث يدور، أيضًا، عن نقل بعض أسرى القدس إلى هناك. على كل حال، سأذهب لأتناول الفطور مع الرفاق وسنتحدث بعد الفطور.

قال محمود المحتسب:

- ماذا تقصد إدارة السجون بسجنها الجديد؟

قال علي:

- تريد كسر إرادة الأسرى، فقد حققوا العديد من الانتصارات، وأصبحوا يواجهون إدارة السجون بشكل موحد، وليس مثل أول السبعينيات حينما كان الأسرى يتعاركون، ويتشاجرون، وإدارة السجون تتفرج عليهم.

عدنان:

- ماذا يقصدون بنقل بعض أسرى القدس إلى السجن الجديد؟ هل يعدّوننا رؤوسًا حامية أيضًا؟

رد عليه هاني:

- ربما لها حساب آخر، فالأسرى من سكان القدس، كلهم الآن في سجن الرملة حيث شروط الأسر أخف من السجون الأخرى، لا أسرّة، لا فرشات، محشورون في الغرف معظم النهار، وطوال الليل، يأكلون في

الغرف، فيما أسرى الرملة يتمتعون بأسرّة، ويخرجون من الغرف طوال النهار، ولديهم تلفزيون... الخ.

فقال عمر القاسم معلقًا:

- تعتقد إدارة السجون أنها عندما تجمع أسرى من سجون مختلفة مع أسرى القدس لن يستطيعوا المواجهة، لأن أسرى القدس عندما يرون الفرق بين هنا والسجن الجديد، قد يستسلمون لإدارة السجون.

- وبماذا تطالبنا إدارة السجون؟

- الخروج إلى العمل في مشاريعها كما السابق، وتكسير وحدتنا الجماعية ليتصل كل أسير بالإدارة مباشرة لوحده.

قال علي لهم:

- سنفاجئ إدارة السجون بأننا لن ننكسر أمامهم مهما كلّفنا من تضحيات. إنها مسيرة يا شباب، مسيرة طويلة، فاستعدوا لها.

- قلت لكم أكثر من مرة إن السجن ساحة صراع دائم مع العدو، حتى لو قررنا الهدنة معه، فهو دائمًا يستعد للانقضاض علينا كلما سنحت له الفرصة. نحن مثل الحارس الذي ينتظره الحرامي لحظة يغفو سهوًا، أو ينشغل بشيء ما ليتسلل إلى هدفه، لذلك علينا دائمًا أن نكون مستعدين للمواجهة في كل لحظة.

تكلم هاني قائلاً:

- ليس أمامنا خيار آخر، نحن أمام خيار وحيد.

علق أحمد:

- عدوّ شرس لا أمان له.

أكمل خليل مازحًا:

- لهذا يا أحمد عليك الاستيقاظ صباحًا لممارسة رياضتك مع علي.

فقال عدنان:

- أنت يا خليل تريد إثارة علي، لكن أين أنت في الصباح؟

- أنا أعترف بأني لا أحب الاستيقاظ مبكرًا.

- إلاّ للأكل، ها ها ها.

- لا.. لا.. ليس للأكل.

سكت، ثم أكمل:

- لكن لمشاهدة أنواركم البهية والتحدث معكم.

ضحك الجميع، واستعدوا للعودة إلى الغرف، فقد انتهوا من الفطور، ولم يبق شيء في الصواني. أكلوا كل شيء، فكمية الأكل تكاد تكفيهم، والخيارات أمامهم محدودة؛ إما أن تأكل أو لا تأكل.

توجه علي إلى الساحة ليمشي مع خليل ويتابع حديثه. أخرج خليل سيجارته وأشعلها. سأله علي:

- أما زلت تدخن؟

- السؤال نفسه تطرحه علي كل يوم.

- سأظل أطرحه عليك حتى تتوقف عن التدخين.

- صعب يا علي.

- لماذا؟ ألست مناضلاً؟ قائدًا وطنيًّا؟

- وهل المناضلون من طينة أخرى؟ نحن بشر مثل كل الناس، نحب، ونكره، ونأكل، ونشرب، إن لم نستمتع بالأشياء فلن نشعر بالحياة.

- ولكنه مضر بالصحة يا خليل!

- أعرف، والله أعرف، ولكن ماذا أقول لك؟

- أين إرادتك؟

- ستجربها عندما ينقلونا إلى "نفحة"! ليس التدخين من يحدد إرادة الإنسان، إنه الإيمان الروحي لهذا الوطن والاستعداد للتضحية في سبيله. ألم تر صور كاسترو وتشي جيفارا يقاتلون وهم يحملون السيجار يدخنونه. أخاف إن صارت لنا دولة وصرت وزيرًا، تفرض علينا بالدستور عدم التدخين.

- سأفعلها إن استطعت.

- لن أنتخبك.. ها ها ها.

- لماذا تكرهون ما في صالحكم؟

- لأن الناس يا علي يحبون أن يختاروا بأنفسهم ما يرونه لصالحهم.

(2)

حضرت أم سعيد (والدة على النجار) بنفسها هذا الصباح الباكر استعدادًا لزيارة علي في سجن الرملة. الزيارة إلى السجن مرّتان في الشهر؛ مرة عن طريق الصليب الأحمر، والثانية عن طريق الهلال الأحمر الفلسطيني. اليوم الزيارة عن طريق الهلال الأحمر، حيث يتجمع الأهالي قرب مقر الجمعية، ومن هناك تنقلهم الحافلات إلى السجن.

تتحرك الحافلات مبكرًا حوالي السادسة صباحًا على الرغم من أن المسافة ليست بعيدة عن سجن الرملة، لكن الزيارة مع الأهالي تأخذ وقتًا طويلاً، فالحافلة لا تعود من السجن إلا بعد أن يزور الفوج الأخير من الأهالي، ولا يعرف أحد متى يكون ذلك، فالسجانون يسجلون الناس حسب الدور، ولكنهم أحيانًا لا يلتزمون بذلك لينغصوا حياة الأهالي، كما أن أفواج الزيارات تتم كل مجموعة سجناء معًا؛ منهم الأسرى، ومنهم الجنائيون العرب واليهود.

بعض الأهالي يأتون مبكرًا بسياراتهم، وعندما تنتهي زياراتهم يعودون إلى بيوتهم مبكرًا.

حملت أم سعيد حقيبتها التي وضعت فيها بعض الساندويتشات؛ جبنة، مرتديلا، وإناء ماء، وبعض الفواكه، ففي هذا اليوم ستزور عليًّا مع صديق له، إضافة إلى الصحافية خولة شاهين العاملة في مؤسسة حقوق الإنسان، والتي أرادت الاستفسار من علي عن أوضاع الأسرى في سجن الرملة، لذلك لن يأتي معها أبو سعيد هذا اليوم، فالزيارة مسموح بها فقط لثلاثة أشخاص، لكنه سيزور في المرة القادمة، فالزيارات لن تتوقف. كل عام تتوقع أم سعيد أن يفرجوا عن علي بتبادل أسرى، ولكن السنوات تمر ولا شيء يتغير.

الساعة الخامسة صباحًا تحركت أم سعيد من البيت في وادي الجوز، ومن هناك استقلت الحافلة حتى باب الساهرة، بعد ذلك حملت حقيبتها وتوجهت نحو الهلال الأحمر القريب من المكان.

كان أهالي الأسرى ينتظرون هناك. فور وصولها اقتربت منها الصحافية خولة التي وصلت قبلها، وبادرتها:

- صباح الخير يا أم سعيد.

تعانقتا.

- أهلاً صباح النور، أنت هنا؟

- طبعًا، لا أريد أن أتأخر فأخسر الزيارة.

- يبدو أنك صحافية نشيطة؟

- هذا أقل ما يمكننا القيام به؛ أن نُسمع صوتهم للمؤسسات الدولية.

- آخ يا خولة، والله لا أحد يسمع يا ابنتي، الله يقويك يا رب على أعدائك.

- مسيرتنا طويلة يا أم سعيد. لا تخافي، إن شاء الله كل الأسرى يتحررون.

- الله يسمع منك، ما من أمل لعلي إلا بتبادل أسرى لأنه محكوم بالسجن المؤبد، يعني لن يخرج من السجن، أتمنى أن أراه حرًّا، يرتدي بدلة العرس ثم بعدها أموت وأنا مرتاحة.

احمرت عينا أم سعيد، وسالت على وجنتيها دمعتان.

فجأة اقترب منهما شاب يبدو في الثلاثين من عمره، وقال لأم سعيد:

- الله يصبحك بالخير يا خالتي أم سعيد.

نظرت إليه أم سعيد ومسحت دموعها:

- مَنْ عامر؟ أهلاً يا بُنيّ.

نظرت إلى خولة وقالت لها:

- هذا عامر الجعبة جاء معنا اليوم يزور عليًّا.

ثم قالت لعامر:

- هذه خولة، صحافية...

فسأل عامر:

- أمن مؤسسة حقوق الإنسان؟

- هل تعرفها من قبل؟

- لم نلتق، ولكني قرأت عن نشاطاتها وتقاريرها عن الأسرى. خولة أشهر من نار على علم.

قالت له خولة:

- شكرًا لك لمجاملتك.

نظرت إلى ساعتها وقالت:

- والآن اقتربت الساعة من السادسة، متى سينادون علينا؟

قالت أم سعيد:

- الآن، انظُرا هناك، هذا يعقوب فراح يحمل قائمة الأسماء سينادي على الأهالي بالترتيب للصعود إلى الحافلة.

- ما هذه الفوضى يا أم سعيد؟ هل دائمًا هكذا؟

- آخ يا عامر، هكذا نحن العرب لم نتغير، لولا القائمة لديه لتشاجر الأهالي مَن يكون الأول.

- معقول؟ أهالي الأسرى فوضى؟

- هذا حال الدنيا يا بني.

اقترب يعقوب وبدأ يناديهم بأسماء أسراهم، وكلما نادى على أهل أسير، لا يسمح لأحد بالصعود إلى الحافلة إلا لثلاثة أشخاص منهم. بعد عدة دقائق نادى على أهل علي النجار.

تقدمت أم سعيد وقد ساعدها عامر وحمل عنها حقيبتها واتجهوا إلى الحافلة الأولى.

المسافة بين سجن الرملة والقدس ليست طويلة كالمسافة بين القدس وسجن عسقلان، أو بئر السبع. أم سعيد زارت ابنها عليًّا في سجون كثيرة، بدأها بعسقلان، وبئر السبع، قبل أن ينقل أخيرًا إلى سجن الرملة.

وصلت الحافلة ساحة السجن الخارجية حيث يسمح للحافلات والسيارات الوقوف، وقبل أن تقف الحافلة كان بعض الشباب قد وقفوا على أهبة الاستعداد، كل منهم يحاول أن يكون الأول؛ المشاكل نفسها في كل مرة، لطالما طالبتهم أم سعيد أن ينظموا أنفسهم بدل التشاجر والتسابق، ولكن لا أحد يسمع لها.

وقفت الحافلة، وفتح الباب، قفز الشباب كل منهم يحمل بطاقات أقاربه باتجاه مكتب تسجيل الزوار، أما الذين لا يستطيعون الركض فسيكون حظهم في آخر الفوج.

قالت خولة لأم سعيد:

– أعطني بطاقتك لأذهب وأقف على الدور.

فقال عامر:

- ولو! أنا سأقف، أعطوني بطاقاتكم، وابقي مع أم سعيد وسَلّيها.

حمل البطاقات وتوجه إلى مكتب التسجيل.

الطقس حار هذا اليوم. كانت الساعة حوالي السابعة صباحًا، والناس القادمون إلى سجن الرملة بالمئات، يهودًا وعربًا، كل ينتظر دوره، كان المنتظرون قبل وصول حافلات الهلال أكثر من القادمين بالحافلات.

جلست أم سعيد مع المنتظرين وبجانبها جلست خولة.

قالت لها خولة:

- الله يساعدك يا أم سعيد، ويساعد أهل الأسرى كلهم.

- الله يخليك يا ابنتي. شكرًا لاهتمامك. إن شاء الله أن لا نكون أتعبناك؟

- لا.. لا.. كيف؟ أنا التي شرفتني هذه الزيارة. لا تعرفين كم أنا مسرورة لأنني سأقابله، فقد سمعت الكثير عن علي، وحكمته، وشجاعته، ودوره في ترتيب أوضاع السجون.

صمتت، ثم قالت لها:

- حدثيني يا أم سعيد، كيف كان شعورك عندما اعتقلوه؟

قالت:

- أحسست أن قلبي انخلع من جسمي، وتمنيت لو أنا ولا هو.

- هل اعتقلوه من البيت؟

- لا يا ابنتي، علي كان في مهمة، ويبدو أنهم عملوا له كمينًا، فحاول الإفلات منه ولكنهم طوقوه وقد نفد الرصاص معه فوقع أسيرًا بأيديهم.

- كيف عرفت أنه أسير حيّ؟

- لم نعرف إلا بعد فترة طويلة، فقد وصلتنا معلومات حينها أنه استشهد. أحمد الله أنه ما زال حيًّا.

- عندما قمت بزيارته أول مرة، كيف شعرت؟

- كان ذلك بعد أن مر على اعتقاله أكثر من ثلاثة شهور، لم يكن عليًّا الذي أعرفه. كان وزنه قد نقص كثيرًا، وعلى وجهه آثار لكمات وخدوش. كان لا يقوى على الحركة، وقد رأيناه عندما أحضروه إلى المحاكمة، وعندما وقف أمام القاضي الإسرائيلي اشتكى أنه تعرض للضرب المبرح مع أنه أسير تنطبق عليه كل مواثيق جنيف حول الأسرى. ضحك القاضي اللعين وقال له:

- أنت مخرب ولست أسيرًا.

أما ممثل الحكومة فقال للقاضي:

- إن آثار الكدمات على وجه علي لأنه وقع من السرير وهو نائم.

- هل تحدثتِ معه؟

- لم يسمحوا لنا، شاهدناه فقط، ولوّحنا له أنا وأبوه وأخوه سعيد بأيدينا. كان بقية أبنائي صغارًا فلم نأخذهم معنا إلى المحكمة.

- لماذا حكم بالسجن المؤبد؟

- ادّعوا أن أحد الجنود قتل أثناء اشتباك معه!

- ومتى زرتم عليًّا مباشرة؟

- ربما بعد ذلك بثلاثة أشهر أخرى، أي بعد ستة أشهر من سجنه.

- ستة أشهر؟

- نعم يا خولة، في تلك الأيام كانت الأمور أصعب يا ابنتي، ليس مثل هذه الأيام، يسمحون بزيارته بعد يومين أو عدة أيام.

- ماذا قال لك عندما رآك؟

- كنتُ أنا أبكي، وهو يشد من أزري.

قال لي:

- أمي لا تبكي، هذه ضريبة الوطن نحن ندفعها، لنجلب السعادة لكم.

قَبَّلَ إصبعي من شبك القضبان، وشد على أصابع والده. لم أستطع عناقه، أصابعنا فقط هي التي تعانقت، قبّلها مرات لا أعرف عددها. كان معنا سعيدًا، وقد حاول أن يخفي دموع فرحه بلقائنا حتى لا نفسرها على أنه ضعف. ابتسم لنا وقال:

- اصبروا، فالنصر صبر ساعة. عشر سنوات مرت ولم تنته الساعة يا خولة.

قالت خولة:

- ساعة الشعب لها حساب آخر، ليست كساعتنا التي نضعها على يدنا، دقائقها تختلف، وكذلك ثوانيها، أحيانًا تطول، وأحيانًا تقصر، قد تكون عامًا، وقد تصبح جيلاً كاملاً، ومن يدري قد تكون ساعة النصر في نهاية مرحلة كاملة قد تمتد أجيالاً.

- كأنك تتحدثين بلغته، يبدو أنك من جماعته؟

- كل الشعب من جماعته. علي ليس أسير نفسه، إنه أسير من أجل فلسطين، إنه يمثلنا كلنا، تألم نيابة عنا، إنه رمز القضية، إنه قائد وطني ندين له بالاحترام، بل ننحني إجلالاً وإكرامًا له.

عاد عامر من تسجيل الأسماء، كان تعبًا.

قالت له أم سعيد:

- ماذا حصل؟

- سألوني، مَن أنت؟ وماذا يقربك علي؟ ولماذا ستزوره؟

قلت لهم:

- إنه ابن خالة أمي وأريد زيارته مع أمه. لعنهم الله، حتى الزيارات يريدون التدخل فيها.

- الله على الظالم.

كانت امرأة كبيرة في السن تقترب من أم سعيد، سلّمت عليها، وعانقتها.

قالت أم سعيد لها:

- هذه خولة صحافية جاءت تزور عليًّا، وهذا صديقه عامر الجعبة.
سلمت عليها خولة، ورحب بها عامر، قالت لهما أم سعيد:
- هذه أم الأسير خليل الصباح، أسير قديم وزميل علي في السجن وصديقه.
قالت لها خولة:
- شدة وتزول يا أم خليل، شدي حيلك.
- الهمة فيكم يا شباب اليوم، أنتم الذين عليكم تحريرهم من الأسر، لن ننتظر لا جيوشًا عربية ولا إسلامية، كلهم نائمون كأهل الكهف.
أثناء حديثهم اقتربت منهم إحدى الفتيات وقالت لأم سعيد وأم خليل:
- لا تنسيا يوم عيد الأم في 21 آذار القادم، فهناك احتفال بيوم الأسير الفلسطيني في نادي الموظفين في القدس، وقد وجّهنا دعوات لكل الأمهات اللواتي نعرفهن، الموعد بعد أسبوع فلا تنسوا، حضوركم ضروري.
سألها عامر:
- ومن سيكون في الحفل؟
قالت له:
- سيشارك الزميل الأستاذ عبد اللطيف غيث الذي تحرر من الأسر قبل شهور ليحدثنا عن واقع الأسرى، وستكون لديه أخبار حديثة.

قالت خولة:

- عبد اللطيف غيث سيحضر؟ رائع، فرصة لإجراء حوار معه.

فقالت الفتاه:

- سنقدم لأمهات الأسرى بعض الهدايا التكريمية التي جمعناها من تجار البلد الكرام.

قال عامر:

- جهود رائعة، ما أجملها من التفاتة! فأمهات الأسرى بحاجة إلى من يحتفل بهن ليؤكد لهن وقوفهم معهن ومع أبنائهن.

نظرت إليها أم سعيد وسألتها:

- أول مرة أشعر أن أحدًا يهتم بأمهات الأسرى.

- كلنا نهتم بهن، لكن كنا بحاجة إلى من يبدأ الخطوة الأولى.

قال عامر:

- عظيم.. أنا مستعد أن أتبرع بجائزة.

- شكرًا لك، الآن لدينا فائض من الجوائز، فأهل الخير قدّموا ما فيه الكفاية. شكرًا لعبد دنديس في شارع صلاح الدين، فقد ساعدنا في جمع الكثير من الهدايا، وتبرع بنفسه بعدد منها، هذا الرجل مثال لتجار فلسطين الأوفياء.

هز عامر رأسه وقال:

- أعرفه، إنه شاب رائع وخلوق، ليتهم كلهم مثله.

بعد انتظار دام ساعتين، كان السجان ينادي على أسماء فوج جديد، وفجأة نادى:

- علي النجار، يعقوب عودة، عطا القيمري، خليل الصباح، ...

تحرك أهل الزوار نحو الباب الرئيس. دخلوا إلى داخل سور السجن العالي، وهناك انتظروا على الدور حتى يتم تفتيشهم تفتيشًا دقيقًا.

انقسم الزوار إلى قسمين، النساء تفتشهم سجانة يهودية، والرجال يفتشهم سجان. يخرج السجين كل ما في جيبه من أغراض، يضعها في كيس ويتركها لدى السجان حيث يمنع إدخال أي شيء معه، بعد ذلك، يدخل الزائر إلى غرفة صغيرة ليفتش تفتيشًا دقيقًا، بعضهم يطلب منهم خلع البنطلون إن اشتبه بهم، وأحيانًا يطلب من الزائر فتح فمه للتأكد أنه لا يحمل رسالة سرية إلى الأسرى.

بعد انتهاء التفتيش تحرك الزوار خلف السجان الذي قادهم من باب إلى باب حتى أوصلهم قاعة الزيارة. دخلوا جميعًا متلهفين، فقد كان أبناؤهم قد وصلوا قبلهم واحتلوا مقاعدهم من الجهة الأخرى.

عندما يدخل الزائر يناديه الأسير، ويشير إليه من خلف القضبان الشبكية ليعرف مكانه. كانت الأصوات تتعالى هنا وهناك. دخلت أم سعيد فناداها علي:

- أمي أنا هنا! وأشار لها بيده.

اقتربت أمه بسرعة متلهفة لرؤيته. سلمت عليه بأصابعها التي أدخلت بعضها خلال الشبك الحديدي؛ ما أروع أن تتعانق الأصابع بعد غياب طويل! خارج القضبان ليس لها معنى، ولكن للذين تفصل القضبان بينهم، فللأصابع إحساس غريب، من خلالها يتصل الأسير بمن هم خلف القضبان، ومن خلالها يرتبط بالعالم الخارجي.

كانت الأصابع تتعانق في كل الأمكنة، فالكل يسلم على الكل، سلم علي على عامر، لم ينتظر عامر أن يسأله علي عن نفسه فقال له:

- عامر الجعبة.

- أهلاً بآل الجعبة.

تقدمت خولة، سلمت عليه وقالت:

- خولة شاهين، صحافية من مؤسسة حقوق الإنسان.

قالت له أم سعيد:

- جاءت خولة لتكتب عن أوضاع الأسرى عندك.

- أهلاً بكم جميعًا، أنا سعيد لزيارتكم.

قدّم لكل منهم حبةً من السكاكر كان يحملها، فيما تقدّم عامر بسرعة ودفع إليه برسالة، قال له إنها من الشباب.

حمل علي الرسالة السرية المكبسلة ووضعها في فمه، واستأذن منهم لثوانٍ ليذهب كي يسلم على بعض الأهالي، فيما جاء يعقوب عودة، وبعده عمر القاسم، ثم عطا القيمري، وخليل الصباح، يسلمون على أم سعيد وزوارها. قال لهم يعقوب:

- هكذا نقضي نصف الزيارة يسلم كل منا على الآخرين، إنها فرصة للقاء والتعارف، هذه فرصتنا الوحيدة لرؤيتكم، بعض الشباب قد لا يزور إلا كل سنة مرة، فالزوار الذين ينتظرون دورهم كثيرون.

عاد علي إلى مكانه، ثم سأل أمه:

- كيف حال أبي وأخواتي؟

- كلهم يسلمون عليك.

- أهلاً بكم نوّرتمونا.

قال له عامر:

- ماذا حصل يا علي؟ الصحافة الإسرائيلية تتحدث عن الصراعات بين الأسرى في بعض السجون، وسجن الرملة واحد منهم؟

تنهد علي:

- يا عامر، هذه المشاكل مفتعلة! نحن لا نمنع أسيرًا من الصلاة والصيام، فنحن مسلمون أيضًا. هناك مجموعة تشكلت منذ سنوات في عسقلان، وبدأت تنتشر في سجون أخرى، تطالب فيها التحلل من

الالتزام التنظيمي داخل الأسر، ويعدّون أن منظمة التحرير الفلسطينية لا تمثلهم، ولا يعترفون بقيادة الأسرى داخل السجون. هذه مشكلة داخل السجن، فلو تركنا لكل مجموعة وشلّة أن تتصرف على هواها، فستكون هناك ثغرات كبيرة ينفذ منها الجواسيس ويثيرون الفتن والمشاكل. لقد حدث ذلك في مطلع السبعينيات، حيث كان وضعنا سيئًا. لقد ضبطنا الوضع، ولا أحد يسمح بتخريبه، على كل حال سأكتب لكم رسالة تفصيلية بالموضوع.

فرد علية عامر:

- بانتظار رسالتك، ولكن لا تتأخر، فنحن بحاجة لأخبار تفصيلية، الإخوة في الخارج يطالبونكم معالجة الأمور بحكمة.

- نحن حريصون على الوحدة والتآلف، فوضعنا بالسجن لا يسمح بغير ذلك أبدًا.

نظرت إليه خولة وسألته:

- كيف أوضاعكم بشكل عام؟ هل لديكم مرضى ترفض الإدارة علاجهم؟

- آه يا خولة ماذا أشكو لك؟ أوضاعنا هنا أفضل من السجون الأخرى، ولكن الإدارة تهمل علاجنا. إنهم لا يرفضون، ولكنهم لا يعالجون

المرضى بالسرعة الممكنة، ويحاولون دائمًا المماطلة والتسويف، فقد ينتظر المريض سنوات قبل أن ينقل لفحصه في المستشفى.

- هل هناك حالات معينة؟

- طبعًا كثيرة، أكثر الشباب مصابون بأمراض ويحتاجون إلى علاج.

- هل هناك أمثلة؟

- مثل أحمد عايد...

- هل تستطيع أن تزودنا بقائمة شاملة وسأحضر بعد شهر لزيارتك.

- كيف ستحملينها؟ هل تعرفين تهريب الرسائل؟

- لا تقلقْ، سأقوم بالواجب.

- أخاف عليك إن ضبطوك.

- أنا أقوم بواجبي الوطني والمهني.

- حسنًا سأراك بعد شهر.

كان علي ينظر إليها معجبًا بها وبشجاعتها، قال في سره:

- هؤلاء هن نساء فلسطين، ليت كل النساء مثل خولة.

قالت له أمه:

- ستأتي لزيارتك الأسبوع القادم أختك رحاب، فقد التحقت بجامعة موسكو وستغادر بعد شهر، لقد قبلت في كلية الصحافة.

- رحاب ستسافر؟

- لم تستطع تأمين قبول في جامعة بير زيت.

- وماذا عن فريد؟

- أخوك فريد أنهى السنة الثانية في المحاسبة في بريطانيا، يقول إنه بخير، ويأسف أنه لم يراسلك لأنه مشغول بالدراسة، ولكنه وعد أن يرسل إليك رسالة قريبًا مع صورة. أما سعيد فسيزورك الأسبوع القادم، وفادية مشغولة بأولادها وزوجها. نسيت أن أقول لك إنها حامل، وقد صممت لو رزقت بطفل ذكر ستسمّيه عليًّا.

ابتسم علي وقال لها:

- أوافق زوجها؟

- بكل سرور، كلهم يحبونك، أنت رمزنا يا علي.

هز رأسه وعقب قائلاً:

- سيكون لدينا علي جديد.

فقالت خولة:

- أرجو أن يكون كخاله علي النجار.

قال عامر:

- طبعًا، نحن نقول "ثلثا الولد لخاله".

فقالت أمه:

- وماذا أبقيتم لوالديه؟

- لأبيه الثلث الباقي.

قبل أن يتابعوا الحديث سمعوا سجانًا يصرخ:

- انتهت الزيارة، كلكم إلى الخارج!

بدء السجانون يطالبون الأهالي بالمغادرة، فيما طلب السجانون في الجهة المقابلة الأسرى بالعودة إلى غرفهم. وقف الأهالي من جهة، وأولادهم من الجهة الأخرى للقضبان الحديدية التي بالكاد يستطيع الزائر أن يمد أصابعه خلالها. تشابكت أصابعهم استعدادًا للرحيل، أصابع تتشابك كأنها في لحظة عناق حار، بعضهم يجهد أن يخفي دموعه، وآخرون تعوّدوا على تلك المواقف كل أسبوعين حتى أصبحت جزءًا أساسًا من حياتهم.

كانت الأصابع تنقل في الاتجاهين. المشاعر، والأحاسيس، والإصرار على الصمود، من خلالها كان الأهالي يؤكدون لأبنائهم أنهم لن ينسوهم، وأن مكانهم في القلب لم يتغير، فيما كان الأسرى يؤكدون لأهاليهم أنهم لن ينحنوا أمام قهر السجان، وأنهم على العهد باقون.

أدخلت خولة أصابعها الثمانية تودع عليًّا، فوضع علي يديه عليها، شد عليها شاكرًا لها حضورها. كانت أصابعها ناعمة قد أثارت مشاعره.

ودّعهم جميعًا، أشار لكل الزوار بقبضة يده، ثم اقترب من يعقوب عودة الذي كان يقف بجانبه، ونادى عمر القاسم ليقف من الجانب الآخر، شبكوا أيديهم معًا ورفع كل منهم شارة النصر تحية لكل الأهل.

تساقطت دموع بعض الأمهات، فقد تعودن على ذلك الموقف كل أسبوعين.

لوّحت لهم خولة بيديها وقفلت خارجة بعد أن طردها السجانون.

كانت خولة سعيدة بالزيارة، وقد شعرت بفخر أنها زارت بعض الأسرى الأبطال الذين ضحوا من أجل فلسطين. إنهم أكثر تفاؤلاً منا، وصامدون على الرغم من كل الظروف، فيما نحن نتذمر من كل شيء، بعضنا يهاجر من فلسطين بحثًا عن عمل أفضل، فيما أسرانا يضحون من أجل الوطن.

قالت خولة لأم سعيد:

- لا تنسي، سأزور عليًّا بعد شهر.

- لا تقلقي فالزيارة ممكنة دائمًا، أحيانًا بعض الأهالي لا يحضرون فيمكن الدخول باسمهم.

- وماذا لو كان كل منهم في فوج؟

- هذه مشكلة، ولكنها نادرًا ما تحصل، إذا سجلنا معًا فالأغلب أن نزور معًا.

جلس الأهالي الذين أنهوا زيارتهم خارج السجن بانتظار بقية ركاب الحافلة الذين يزورون في الفوج التالي. نصف ساعة مدة الزيارة، ليست كافية للتعارف. فقط نصف ساعة، وإن مرت دون زيارة، فالزيارة التي تليها بعد أسبوعين ينقطع فيها الأسير عن أهله، وأصدقائه.

جلست خولة في الحافلة بجانب أم سعيد وهي تتصور عليًّا أمامها باسمًا رافعًا قبضته ملوحًا بشارة النصر. كانت تمتم لنفسها: أسرى يرفعون شارة النصر، وحكام دول يوقعون وثائق الاستسلام! كم نحن بحاجة إلى تلك الروح العالية.. كم نحن بحاجة إلى هؤلاء الأبطال!

بدأت تردد الأسماء التي سمعتها: يعقوب عودة، عطا القيمري، سليم نسيبة، عوني الوعري، خليل الصباح، إسحاق مراغة، هاني العيساوي، ....

(3)

اليوم عيد الأم، حوّله نادي الموظفين ليومٍ لأمهات الأسرى والشهداء. توجهت أم سعيد إليه تلبية للدعوة التي تلقتها، وهناك التقت بأمهات الأسرى من القدس. قاعة الاجتماعات صغيرة، لم تتسع لكل المدعوين، لذلك احتشد كثير منهم في المردوان والغرف الأخرى، ووقف بعضهم خارج القاعة قرب الشبابيك يتابعون سير الاحتفال.

وقف الجميع دقيقة إجلال وإكبار لأرواح شهداء فلسطين، ثم قدّم عريف الحفل كلمة قصيرة رحب بها بالأمهات، وقال لهن بعد انتهاء كلمته:

– أترك الكلمة الآن للأستاذ عبد اللطيف غيث، أحد الأسرى المحررين الذي أمضى ثمانية أعوام خلف القضبان مع أبنائكن الأسرى في سجن الرملة ليحدثكن عن أوضاعهم وأوضاع الأسرى في السجون، وليجيب على أسئلتكن.

صفق الحضور للأسير المحرر عبد اللطيف غيث، كل أهالي الأسرى في القاعة يعرفونه، فقد كانوا يشاهدونه خلف القضبان قبل شهور، والآن يشاهدونه محررًا. قال لهم:

- في البداية، أنقل لكن تحيات أبنائكنّ وإخوتي، ورفاقي، رفاق الأسر والقيد، الذين اقتسمت معهم ليس فقط العيش والملح، بل الألم، والمعاناة، والصبر على قيد السجان. أنقل لكن تحيات أبطال كنت معهم يومًا بيوم نصنع ملحمة الصمود والتصدي أمام محتل تجرد من كل المواثيق والأعراف الدولية والإنسانية، وأراد تحطيم معنوياتنا، وانتمائنا، ولكن كل محاولاته باءت بالفشل. أقف اليوم أمامكن بعد أن كنت في القريب أستقبلكن معهم خلف القضبان. لن يطول انتظاركن، فأملنا بثورتنا كبير أن تحررهم من الأسر ليعودوا إلى أحضانكن تعانقوهن وتشمون فيهم رائحة عبير الوطن المقدس.

بعد انتهاء الكلمة أجاب على أسئلة الحضور. كانت كلمة عبد اللطيف غيث قصيرة، فقد أراد أن يكون سهلاً على الأمهات، فهو ليس أمام مؤتمر صحافي. سألنه عن أوضاع أبنائهن، قالت إحداهن:

- هل يطعمونكم؟

- نعم يطعموننا وإلا لكنا أمواتًا، ولكن الطعام المقدم لنا سيئ، وغير كاف، نحاول أن نعمل على تحسينه. مشكلتنا في سجن الرملة أننا جزء

من سجن كبير معظمه من اليهود. يوجد قسم واحد كله من السياسيين العرب، لكن بقية الأقسام مختلطة، ففي قسم (لكللي) مثلاً يوجد لنا بعض الأسرى يعيشون مع الجنائيين اليهود والعرب، ولكن في السجون الأخرى فالوضع أسوأ جدًّا، حيث ينام الأسرى على الأرض، ولا توجد فرشات، والأكل أكثر سوءًا، ولا يخرجون من الغرف إلا ساعتين كل يوم.

فجأة سألته إحدى الأمهات:

- يا أستاذ عبد اللطيف، ماذا عن المشاكل التي سمعنا عنها داخل السجن عندكم؟

- يا خالتي الله يمسّيك بالخير، نحن حاولنا من جانبنا تجنب المشاكل، ولا نريد أية خلافات، أو نزاعات، ولكن هناك شلّة داخل السجن، يمكنكِ أن تسمّيها تيارًا لا يريد الالتزام بقرارات قيادة السجن. نحن عانينا في السابق من الشللية داخل السجون، ودفعنا ثمنها حيث كان وضع الأسرى يسر الأعداء، وكل مجموعة تتصرف على هواها، والجواسيس ينفذون قرارات الإدارة ويثيرون المشاكل. لقد استطاع أبناؤكن المخلصون بجهد وتعب أن يرتبوا أوضاع الأسرى ويقضوا على التكتلات، وأصبح لدينا قيادات فصائلية كمرجع لأي شيء، وتخلصنا من الجواسيس، وعاقبنا من اكتشفناه، فأصبحت العلاقات بين الأسرى

علاقات أخوية كفاحية ارتقت إلى مستوى المسؤولية التي تنشدونها. هذا التيار الجديد يريد إعادتنا إلى الخلف. لقد قلنا لهم: "كل من لا يريد الالتزام بأي تنظيم فهو حر، لكنه يجب أن يظل تحت سلطة قيادة الأسرى في السجن فهو يعيش معنا، وعليه الالتزام بقوانيننا حتى لا تدخل إدارة السجون إلينا من خلاله". مثل أي مواطن يعيش في دولة ولا يؤيد حكومتها، لكنه يلتزم بقوانينها. لقد رفضوا ذلك، وخربوا علينا، وادعوا أن منظمة التحرير لا تمثلهم ولا يعترفون بها. لم يعلنوا عن تنظيم جديد ولا عن حزب جديد، ولو فعلوا لربما كان للمسؤولين عن الأسرى رأي آخر، ولكنهم يتجمعون معًا تحت مبرر أنهم إسلاميون لا يؤيدون منظمة التحرير، من قال لهم إننا غير مسلمين؟!

سؤال آخر:

- ألم يكن ممكنًا منع التصادم؟

- إخوتنا لم يتصادموا معهم، هم الذين بدؤوا العنف.

- ولكن ما حصل عندكم وتّر الأجواء عندنا، وبعض الأهالي كادوا يتشاجرون.

- يا إخوان لا داعي أن تتشاجروا لما يحدث خلف القضبان، دعوا أبناءكم هناك يحلون مشاكلهم بأنفسهم، كما عليكم حل مشاكلكم بأنفسكم،

عليكم التحلي بالصبر، وأن تكونوا قدوة لهم، عندما يزور الأهالي أبناءهم، عليهم حثهم على التعاضد والتكاتف، وليس التقاتل.

بعد انتهاء الكلمات، أعلن عريف الحفل عن البدء بتسليم الجوائز، كان يحمل ورقة بيده، ينادي أم كل أسير ويقوم أحد المشرفين بتسليمها الجائزة:

- هذه الجائزة من السيد عبد دنديس.
- وهذه الجائزة مقدمة من السيد عاطف الزغير.
- وهذه الجائزة من شركة البلاستيك الأردنية.
- وهذه الجائزة من محلات الحموري.
- وهذه الجائزة من محلات الحلواني.

لأول مرة توزع الجوائز على أمهات الأسرى في القدس، وأصبحت أمهات الأسرى يشعرن بالفخر بأبنائهن. التكريم خطوة جيدة، لمسة طيبة، تدغدغ العواطف، وتشجع الأمهات على الصمود.

لا.. لا، لستن وحدكن، فنحن معكن، الشعب كله معكن يا أمهات الأسرى، يا فخر الأمهات، تضحياتكن لم تذهب سدى، ماذا قدمنا لكن؟ بعض الهدايا الرمزية. هذه الجوائز فقط لنقول لكن: نحن كلنا عمر، وعلي، ويعقوب، وعطا، وسليم، وإسحاق، وعوني، وبسام، وخليل...

في نهاية الاحتفال قدّم المشرفون على الاحتفال العصير للحضور، وقطع الجاتوه، وانتهى الاحتفال حيث تسابق الجميع للحديث مع عبد اللطيف غيث وتحيته، وقد سار بين الحضور يسلم على أمهات إخوته ورفاقه اللائي يعرفهن جميعًا:

- أم سعيد، كيف حالك؟

- بخير الله يرضى عليك، والله علي يسلم عليك.

- أم يعقوب، كيف الأحوال؟

عانقته أم يعقوب، قال لها:

- إن شاء الله عقبى لتحرير يعقوب وعلي وعمر وسليم والجميع.

سلمت عليه أم عمر القاسم.

- أم عمر، اشتقت إلى عمر، حبيبي سلام حار له.

- أم عطا، كيف عطا؟ أما زال ينط الحبل؟

- أم سليم نسيبة، كيف أخبار سليم؟

- أم الشيخ فضي، كيف حال الشيخ فضي؟

- أم محمد عليان، ...

لم يترك أمًّا لم يسلم عليها، كلهن أهله، فقد كان يراهن في غرف الزيارة، حفظنه، وحفظهن كأحد أبنائهن وأحبهن جميعًا كأن له أكثر من أم.

فجأة اقتربت منه خولة شاهين. سألته:

- أستاذ عبد اللطيف، كيف أوضاع الأسرى المرضية؟

- يا عزيزتي، أوضاعهم لا تسر، فإدارة السجون دائمًا تماطل في علاجهم على الرغم من أن المستشفى المركزي موجود في سجن الرملة نفسه، ولكنه إدارة مخابرات أكثر من كونه سجنًا.

- أستاذ عبد اللطيف، هل كنت على علاقة مع الأسير علي؟

ضحك طويلاً ثم قال:

- كل مَن في سجن الرملة يعرفون عليًّا.

- ما رأيك به؟

ابتسم، ثم نظر إليها:

- تسألينني عن علي؟ عليك أن تسألي عليًّا عنا، فهو رمزنا، وخيرة المناضلين في السجون، يعده الجميع أبًا وأخًا ومعلمًا، فهو يفتح قلبه لكل الأسرى ويحاول حل مشاكلهم، إنه قائد وطني يستحق الاحترام.

- شكرا لك.

ارتاحت خولة لكلام الأستاذ عبد اللطيف. كانت تعرف كل ذلك عنه، ولكنها أرادت أن تتأكد.

في الطريق إلى البيت أغمضت خولة عينيها في الحافلة المتجهة إلى بيتها في منطقة شعفاط. كان علي يقف أمامها رافعًا قبضته، ملوحًا بإشارة النصر، يتوسط يعقوب عودة، وعمر القاسم، يا لهؤلاء الأبطال. عندما سلّمت

عليه بأصابعها ضغط على الأصابع كثيرًا، هل كان يعني شيئًا لها؟ هل كانت تلك رسالة منه لم يستطع أن يقولها بفمه؟ لماذا أشار لها بشارة النصر قبل أن يدير ظهره عائدًا إلى غرفته؟ لا.. لا.. غير معقول، لا يمكن أن يفكر كذلك فهو أسير، محكوم بالسجن المؤبد. لكنه سيتحرر، رفاقه سيحررونه من الأسر، الثورة لن تتركه بالسجن، ماذا لو لم يتحرر؟ ماذا لو ظل أسيرًا؟ ما هذه الأفكار التي تراودني يا رب؟ هل يفكر الأسرى كما نفكر؟ ألديهم وقت للحب؟ أم يضيعون وقتهم في النضال والعمل الوطني؟

كان علي يجلس في الغرفة عندما جاءه شاويش القسم؛ لقب يطلقه الأسرى على الأسير المكلف بالاتصال بإدارة السجن فيما يخص أمورهم اليومية، فالأسرى منظمون في علاقتهم بالإدارة، خاضوا إضرابات طويلة لإجبار الإدارة على التسليم بالتفاوض معهم عبر لجنة خاصة يفرزونها هم فيما يخص مطالبهم اليومية وأية مشاكل تطرأ مع السجانين. وإضافة إلى لجنة السجن الخاصة بالأسرى، يوجد شاويش لكل قسم، مهمته متابعة الأمور اليومية مثلاً؛ البريد الداخل، البريد الصادر، الماء الساخن... إلخ، حيث لا يسمح لأحد كان من الأسرى الاتصال أو الحديث مع السجان، ولا حتى إعطاء أية إشارة إليه. كان شاويش القسم يحمل رسائل جديدة وزعها على الأسرى، وكان نصيب علي رسالتان؛

الأولى من أخيه في بريطانيا يطمئن على أوضاعه، ويشرح له عن دراسته، ونجاحه فيها، أما الثانية فكانت غير متوقعة، رسالة من...؟! معقول؟!

بدأ يقرأ:

عزيزي علي، كنت سعيدة بزيارتك في الشهر الماضي، وسوف أكرر الزيارة لاحقًا. لقد كانت زيارة قصيرة، ولكنها حملت الكثير من المعاني. تعلمت منها سر بقاء الأشجار واقفة تعاند الرياح، وتصر على التشبث بالأرض.

(خولة شاهين)

رسالة قصيرة، فإدارة السجون لا تسمح برسائل طويلة أصلاً.

طوى علي الرسالة، وجلس يفكر محدثًا نفسه: خولة! يا لها من فتاة رائعة. بدت له بأناقتها عندما زارته: شعرها الطويل، كانت رائحة عطورها تنفذ إلى أنفي فتثيرني، آخ يا علي، لكن كيف وأنا أسير؟ لا أدري لماذا ضغطت على أصابعها عندما افترقنا. هل كنت أرسل لها رسالة محددة؟ كنت أود لو أن يدها كلها بيدي لألمسها، لأقبّلها، كانت يدًا ناعمة. كيف تفعل ذلك يا علي؟ هل هذا وقت الحب؟ أنت أسير! محكوم بالسجن المؤبد! إن أحببت ستظلم من تحبها. هل تذكر نوال، تلك الفتاة التي كانت تسكن قريبًا منا؟ هل تذكر رسائلك إليها؟ آه أين نوال الآن؟ ما أخبارها؟ هل تزوجت؟ هل تتذكرني كما أتذكرها؟ أتكون خولة بديلاً عن نوال؟ لا..

لا، أبعدْ هذه الأفكار عن رأسك، أنت أكبر منها كثيرًا، ألا يوجد أمل بالتحرر؟ هل ستظل الثورة عاجزة عن إطلاق سراحنا؟ دعك من هذه الأفكار يا علي، ولكن لماذا يا علي أرسلت خولة رسالتها إليك؟ هل هي رسالة إعجاب بأسير يعد قدوة لبنات شعبه؟ هل هي...؟ معقول...؟ لا.. لا يمكن؟ لماذا لا يمكن؟ لأنها لو فكرت بذلك تكون قد جنت على نفسها.. أنا؟ ألا تعلم أنني أسير محكوم بالسجن المؤبد؟

(4)

ودّعت رحاب أهلها متوجهة إلى الأردن عبر جسر الملك حسين، ومن هناك إلى موسكو، حيث حصلت على بعثة دراسية عن طريق إحدى المؤسسات التي منحتها البعثة لأنها أخت أسير. التحقت هناك بكلية الصحافة مع أنها كانت تطالب بدراسة الاقتصاد. تركت وراءها أمًّا حزينة وأبًا لم يعد يشعر بالبهجة على الرغم من أنه يحب أن يعلم أبناءه.

قال أبو سعيد لزوجته:

– اليوم يتوزعون رغمًا عنا؛ سعيد مشغول بزوجته وأولاده، ورحاب في موسكو، وفريد في بريطانيا، وعلي في السجن، وفادية في بيت زوجها. لم يبق سوانا في البيت، أصبحت أكره سفر الأولاد، لا أريدهم أن يبعدوا عنا، أشعر أن الغربة صعبة.

– يا أبا سعيد، توكل على الله، دعهم يبنون مستقبلهم.

– أنا خائف.

– ممّ؟

– أن أموت دون أن أراهم مرة أخرى.

– بعيدٌ الشّرُ عنك.

– ماذا بقي من العمر؟

– الأعمار بيد الله، ادع لهم بالتوفيق.

– وهل لي عمل سوى ذلك؛ اللهم ارض عنهم، ووفقهم، وفك أسر الأسرى من السجن.

– اللهم آمين.

– أوف، أوف...

– لماذا تتأفف؟

– أتذكر أيام زمان، عندما كان الأولاد صغارًا، هل تذكرين؟

– ولو؟ كيف أنسى؟

– كنا نسكن في البلدة القديمة، في باب حطة قرب بوابة المسجد الأقصى، يااه على تلك الأيام، كانت بوابة الحرم تبعد عن البيت ثلاثين مترًا فقط، كنت عند الفجر أذهب من هناك إلى المسجد لأصلي جماعة، وهل هناك أفضل من ذلك؟ كنت ألتقي مع الحاج زهير (رحمه الله)، وبأبي زينب، لا أعرف أين هو الآن، والحاج نمر، والحاج سعدي، والشيخ طافش، لا أدري ما أخبارهم؟ هل ماتوا أم ما زالوا أحياء؟ كنا نلتقي في مقهى باب

حطة القريب، ندخن النارجيلة، ونلعب الورق، لم يعد اليوم نارجيلة ولا حتى ورق.

- لماذا انقطعت عنهم؟

- كبرنا يا أم سعيد، وتبدلت الأحوال، وفرقتنا حرب 1967، منهم من هاجر إلى الأردن، ومنهم من سافر إلى الخليج، ومنهم من مات، هذه أحوال الدنيا.

- كل من عليها فان.

- لا إله إلا الله. هل تذكرين عندما كان يأتي معي علي لصلاة الفجر خصوصًا في شهر رمضان المبارك؟ كان يواظب أكثر من أخيه سعيد، كان نشيطًا لا يحب النوم، وكنت أتوقع له مستقبلاً مليئًا بالأحلام. كنت أعتقد أنه سيصبح دكتورًا مثل الدكتور صبحي غوشة، الله يسهل عليه، فقد كان يساعد المرضى الفقراء.

- ولماذا أنت زعلان، إنه فخر الرجال، بطل من أبطال فلسطين نرفع رأسنا به عاليًا.

- لكنه بالسجن يا أم سعيد، خلف القضبان، لا نعرف متى سيفرج عنه.

- كلما اشتدت، قَرُبَ الفرج.

- لم أكن أشك أنه يعمل مع المقاومة، لم أتوقع ذلك، فقد كان كتومًا.

- فرخ البط عوام يا أبا سعيد، البركة فيك.

- أفكر بزيارته في المرة القادمة. هل سيزوره أحد معنا؟

- لا يوجد سوى خولة.

- وهل تزوره كل مرة؟

- في الشهور الأخيرة، تأتي معي تقريبًا مرة كل شهر، وعلي يطالبني دائمًا أن أحضرها لأنها صحافية.

- إذًا سنذهب ثلاثتنا.

- على بركة الله.

(5)

مطلع نيسان 1980

دخلت قوة كبيرة من السجانين إلى سجن الرملة قسم (أ)، وبدأت تنادي على الأسرى في الغرف: عوني الوعري، محمود العبيدي، ...

أكثر من ثلاثين أسيرًا طُلب منهم تحضير ملابسهم وأغراضهم استعدادًا للنقل، ولم تبلغهم إلى أين، ولم تمهلهم سوى ساعة واحدة، عادت بعدها لتنقلهم إلى غرفة التنقلات، ومن هناك كانت سيارة نقل السجناء الكبيرة التي يسميها اليهود بـ(البوسطة) ومعها مجموعة كبيرة من الجنود.

لم ينس المنقولون وداع رفاقهم وإخوتهم في الأسر، فلا أحد يدري متى سيلتقون مرة أخرى، وأين؟ ربطوهم بالقيود وأدخلوهم إلى سيارة البوسطة، وبعد أن أحكموا إغلاقها، وضعوا البقية في سيارة أخرى كان ضابطان يجلسان خلف سيارة البوسطة وعدة سيارات للجيش تلاحقها.

الجو حار، والمسافة طالت، لم يقل لهم أحد إلى أين. في اليوم التالي، جاؤوا ينادون على قسم آخر. كان علي النجار، وعمر القاسم، ويعقوب عودة، ضمن الدفعة الجديدة، ربما إلى السجن الجديد؟ لكنه لا يتسع لكل هذه الدفعات.

أكثر من ثلاث ساعات، وهم جالسون يتمايلون داخل الصندوق، والعرق يتصبب على جباههم، ولا يحملون بشاكير، أو حتى قطعة قماش يمسحون بها جباههم، ولا يوجد معهم قطرة ماء يشربونها، ولا يستطيع أحد استخدام الحمام.

قال لهم علي:

- لقد طالت المسافة، يبدو أننا منقولون إلى سجن نفحة الجديد.

فرد عليه عمر:

- هل ستكون دفعة الأمس هناك؟

رد خليل الصباح:

- لا أعتقد، فقد كانت دفعة كبيرة، لو ذهبوا إلى هناك سيصبح كل السجن من سكان القدس، ليس هذا ما سمعناه.

قال لهم يعقوب:

- بغض النظر إن كانوا هناك أم لا، نحن مقدمون على صيف ساخن، المواجهة قريبة مع إدارة السجون.

فأكمل عمر:

- وستكون حاسمة.

فعلق علي:

- سيسقط فيها الشهداء.

فقال عمر:

- لأكن أولهم.

رد خليل الصباح وكان يجلس في الزاوية:

- عدونا شرس، لا يريدنا أن نستريح ولو ثانية.

فقال علي:

- لهذا قلت لكم دائمًا نحن في حالة مواجهة دائمة مع العدو، لا وقت للاستراحة، لأننا عندما نبدأ التفكير بالاستراحة سيجد عدونا ما يشغلنا به، وينغص علينا حياتنا، مهمتهم الدائمة أن يحوّلوا حياتنا إلى جحيم، ومهمتنا أن نفشل مخططاتهم، ونحول السجن وبالاً عليهم.

اقتربت السيارة من سجن نفحة. كانت الشبابيك عالية لا يستطيع أحد الصعود إليها إلا إذا وقف على المقعد الذي يجلس عليه، ولا يستطيع الوقوف إلا إذا وقف السجين الذي يرتبط معه بالقيد أو يرفع يده إلى الأعلى.

وقف أحدهم ونظر، سجن صغير، تحيط به الأسلاك الشائكة.

وقفت السيارة قرب الباب، ونزل الجنود من السيارة، وخرج عدد من السجانين، حوالي العشرين يحملون العصي ويلبسون خوذات الحرب، كأنهم في حرب حقيقة. ما الذي يجري الإعداد له؟

نزل الأسرى اثنان اثنان، ونقلوهم إلى حيث غرف الإدارة بعد تفتيش دقيق، وأخذوا كل سجين إلى غرفة الملابس وسلموه ملابس السجن الجديد، ونقلوا كل واحد منهم إلى إحدى الغرف.

جاء دور علي، سحبه السجان إلى غرفة في القسم الثاني (ب) الذي يقع بعد الساحة باتجاه الشارع الرئيس. كان خليل الصباح قبله ينتظر السجان ليفتح له الباب. فتح السجان الغرفة وأدخلهما إليها، وكل منهما حاملاً صرته.

كان في الغرفة (14) أسيرًا غيرهما، بدأ يتعرف إليهم واحدا واحدا؛ عبد العزيز أبو القرايا، حسان عليان، راضي الجراعي، سعيد الحمد الله، محمد دهمان، خالد ياسين، محمد دوحان، كمال الرنتيسي.

تعانق معهم، كأنه يعرفهم منذ سنوات، يكفي أن يوحدهم الأسر ليتعانقوا ويصنعوا معًا ملحمة الصمود.

جلسوا على الأرض، فكل ما سمحت به إدارة السجن لهم قطعة بلاستيك للنوم وثلاث بطانيات. كانت الغرفة تحكي عن نفسها؛ غرفة صغيرة تكاد تتسع لهم للنوم بجانب بعضهم بعضًا. الباب كله من

الصفيح مغلق لا ترى منه شيئًا، ويوجد به شباك صغير يفتحه السجان من الخارج إن أراد شيئًا، ولا يوجد لتهوية الغرفة سوى شباك واحد صغير في أعلى أحد الجدران في آخر الغرفة، وتوجد غرفة حمام واحد بدون ماء ساخن، وحنفية ماء داخل الغرفة. أبواب سجن الرملة كانت بقضبان حديدية، مفتوحة طوال اليوم، والسجون الأخرى كانت الأبواب قضبان واسعة يمكن رؤية خارج الغرفة منها، والتنفس بسهولة.

سألهم علي:

- منذ متى أنتم هنا؟

- قبل يومين فقط.

- ومن أين جئتم؟

قال له أبو القرايا:

- خمسة من غزة، والبقية جاؤوا من سجون الضفة.

فسألهم سليم:

- وماذا اكتشفتم حتى الآن؟

- لم يسمحوا لنا بالخروج من الغرفة سوى ساعة واحدة بالنهار، والأكل سيء، وكلما سألناهم عن شيء قالوا هذا ما سيكون عليه الوضع فلا تعترضوا. إنهم يريدون اكتشاف ردة فعلنا.

فقال علي:

- هذا وضع لا يحتمل أبدًا، الأسرى لن يرجعوا إلى الخلف. مكتسباتهم حققوها بالكفاح والشهداء. هل تشاورتم مع أحد في الغرف الأخرى؟

- تشاورنا، ونحن بانتظار أن يكتمل وضع السجن.

- ومن من الأسرى هنا؟

- هنا في الغرف الأخرى؛ محمد حسان، يعقوب دواني، إبراهيم أبو شيخة، جبريل الرجوب، خليل أبو زياد، جهاد الحلحولي، سليم الزريعي، وآخرون.

- رائع، فرصة نتعرف إلى إخوة ورفاق أَسرٍ جدد. محمد حسان سمعت عنه الكثير، أين وكيف نلتقي وكيف نودع؟! بالأمس ودعنا رفاقًا كنا قد عشنا معهم سنوات خلف القضبان، وكانوا لنا أكثر من إخوة، كانوا الأمل الذي عشنا به، وها نحن الآن لا ندري إن كنا سنلتقي بهم أم لا، يبدو أن دفعة الأمس نقلت إلى سجن بئر السبع.

سأل خليل:

- هل زار أهلُ أحد منكم؟

- لا لم يزر أحد، فلا أحد يعرف بعد أين نحن. ربما لن تخبرهم الإدارة حتى تملأ السجن.

كان جو الغرفة حارًّا جدًّا، والتنفس صعب، فالسجن وسط صحراء النقب حيث الحرارة العالية، إنه سجن للتعذيب إذًا.

في المساء، أدخلوا لهم صواني الأكل الذي كان عبارة عن شوربة كوسا، وبعض الفاصوليا، وملعقة أرزّ، وبعض قطع الخبز. بعد أن أكلوا، جاء أحد السجانين يجمع الصواني، فسأله أحد مسؤولي الأسرى:

- هل يوجد ماء ساخن للشاي؟

- لا، لا يوجد.. لاحقًا.

جلسوا يتسامرون، ولكن عمّ يتسامرون ولا شيء يقلقهم الآن سوى السجن الجديد؟ لا أحد يعرف ما الساعة، فلا ساعة، ولا يستطيعون رؤية شيء، استسلموا إلى النوم على الرغم من أن جو الغرفة لا يسمح بذلك.

كان الجو باردًا، هذا هو الطقس الصحراوي؛ حار في النهار، ولكنه بارد في الليل. بطانية واحدة للغطاء لم تكن تكفي. كانوا يرتجفون من البرد، فلم تغف لهم عين، وما إن غفت عيونهم في الصباح حتى تم إيقاظهم بمكبرات الصوت، ليستعدوا لعدّهم من قبل السجانين. كان الوقت قبل السادسة بقليل.

قال عبد العزيز لعلي وخليل:

- فرضوا علينا الوقوف أثناء العد بملابسنا الرسمية، وبأحذيتنا، إنها إجراء القصد منه التنغيص على الأسرى والتأكيد لهم أن الوضع بالسجن يتم حسب أوامر إدارة السجن لا حسب ما يريده الأسرى.

بعد انتهاء العدد بنصف ساعة جاء الفطور، كان نصيب كل سجين بيضة وقطعتين من الخبز وبعض المربى وأربع حبات زيتون. ما هذا الفطور؟!

قال مسؤول أحد الغرف:

- أين الشاي؟

رد عليه السجان بجلافة:

- لا يوجد شاي.

- نريد ماء ساخنًا؟

سأله السجان:

- تريد ماء ساخنًا؟ تعال معي لأعطيك الماء الساخن.

خرج الأسير من الغرفة، وأغلق السجان الباب، ثم فتح باب السجن، وسلم الأسير إلى سجان آخر قال له:

- يريد ماءً ساخنًا.

أخذه السجان الثاني إلى إحدى الغرف، واشتبه الأسير بالموضوع فسأله:

- إلى أين؟

- إلى الماء الساخن.

دخل الأسير إحدى الغرف القريبة من غرف الإدارة، وحضر على الفور عدة سجانين، وسألوا السجان الثاني:

- ما الأمر؟

- يريد ماءً ساخنًا.

فانهالوا علية ضربًا حتى سال دمه، وبعد ذلك نقلوه إلى العيادة، أسعفوه، ثم أعادوه إلى غرفته، فتح السجان له الباب ودفعه إلى الداخل، ثم أغلق الباب. وقف جميع من بالغرفة واجمين.

- ماذا حصل؟

قال لهم:

- أخذوني إلى غرفة خارج القسم، قرب مكاتب الإدارة حيث هجم علي عدة سجانين ضربًا وركلاً، كانوا يصرخون بي: "تريد ماءً ساخنًا؟ خذْ، خذ، وبعد أن نزفت دمًا نقلوني إلى العيادة".

ضحك الدكتور ساخرًا وقال لي: كيف تترك رفيقك في السجن يضربك؟ كان عليك أن تضربه. لم أتكلم! فماذا أقول وكلهم متآمرون علي؟!

قال أحدهم:

- الكلاب، الجبناء، يستقوون على أسير أعزل.

وعلّق آخر:

- إنهم يجسّون نبضنا.

قال ثالث:

- إنهم يرسلون لنا برسالة.

- إنهم يستفزوننا.

- ساعة الصدام لن تكون بعيدة، فلنستعد لها، ليس أمامنا من خيار آخر.

في الساعة العاشرة فتح السجانون الأبواب للخروج إلى الساحة لمدة ساعة فقط. فوجئ السجناء الجدد بالساحة التي طولها حوالي خمسة عشر مترًا وعرضها ثمانية أمتار. كانت الأوامر: ممنوع الركض في الساحة، فقد كانت صغيرة لا تسمح بشيء.

تعرف السجناء إلى بعضهم بعضًا، وعرفوا أسماء القادمين الجدد، ولم يكن باستطاعتهم التحدث مع القسم الآخر، فقد كانت الأوامر واضحة: عدم تدخل أي قسم بالآخر.

السجناء يتشاورون فيما بينهم لترتيب السجن، وبعد مشاورات خلال الساحة كل مع جماعته حدّدوا هيكلية السجن التنظيمية، وحدّدوا ممثلاً للأسرى للتحدث مع الإدارة، ثم أبلغوا الإدارة بممثلهم الرسمي، وكان أول طلب لهم تحديد عمال من الأسرى لخدمتهم، والعمل في المطبخ للإشراف على الأكل كما يحصل في السجون الأخرى، وكان أهم ما يريده الأسرى مرحليًّا هو وسيلة اتصال بين بعضهم ليتشاوروا كيف يواجهون

إدارة السجن، فقد بات واضحًا أن الإدارة نقلتهم إلى هذا السجن للانتقام منهم وليس لمحاورتهم.

وافقت الإدارة على عامل في كل قسم فقط، يعمل لخدمة عمال القسم، وكانت خطوة أولى نحو نقل الرسائل من قسم إلى قسم آخر وإجراء المشاورات بين المسؤولين، وكان أول عمل قاموا به هو شرح وضعهم الجديد في السجن الذي يشبه القبر إلى أهاليهم وأبناء شعبهم في الخارج، وقد نقلت هذه الرسائل عبر أول زيارة قام بها أحد المحامين إلى أحد الأسرى بعد سماعه بخبر افتتاح السجن الجديد.

(6)

فوجئت خولة وأم سعيد عند زيارة سجن الرملة أن عليًّا نقل مع آخرين إلى سجن آخر، وعندما استفسرت خولة من السجان، لم يحدد لها السجن الذي نقل إليه ليزيد حيرتها، وقلق الأهالي كلهم. كان السجانون يردون بطريقة جافة:

- هذا السجين غير موجود لدينا، ولا نعرف أين هو.

كان على كل منهم التوجه إلى الصليب الأحمر للاستفسار عن أبنائهم، وبعد أيام حصلوا على قائمة بأسماء كل المنقولين وإلى أي سجن نقل كل منهم.

كانت خولة قلقة كأم سعيد وأبي سعيد على علي، وحجزت في أول زيارة سمح بها إلى سجن نفحة.

كان الوضع مخيفًا، ثلاثة شبابيك للزيارة، كل شباك لعدة أسرى مع أنه يكاد يتسع لأسير واحد، ولا يوجد كراسي للجلوس للأسرى،

فالشبابيك من جهة الأسرى في الساحة، فيما الأهالي في العراء حيث الحرارة الشديدة، والسجانون هنا يختلفون عن سجاني سجن الرملة، ينظرون إلى الجميع نظرة احتقار، ويقتربون جدًّا من الأهالي والأسرى ليتسمعوا إلى أحاديثهم.

شرح كل أسير ما استطاع عن أوضاع السجن لأهله على الرغم من أن السجانين يقفون خلفهم مباشرة.

قالت خولة لعلي:

– جاؤوا بكم لينالوا منكم، لا تخف نحن معكم، لن نتركهم ينالوا من رموزنا وأبطالنا، سنتحرك باتجاه كل العالم.

قال لها محاولاً تشجيعها:

– نحن هنا في سجن الباستيل، نحن في قبر داخلي؛ غرفة كلها جدران، نكاد نختنق، لن يطول انتظارنا، هيئوا أنفسكم لدعمنا، المعركة طويلة.

– نحن معكم.

نظرت إليه ونظر إليها. كانت أم سعيد تنظر إليهما لا تعرف ماذا تقول. وضعت خولة يديها على شبك القضبان الحديدية الصغيرة، فعانقتها يدا علي، لمسها بقوة، تحسسها، ضغطت على أصابعه لتعطيه الإحساس بالأمان، احمرت عيناه، زادت دقات قلبه، قال لها:

– خولة، أنا بحاجة إليك!

- وأنا أيضًا.

- صحيح؟

- نعم، أنا أنتظر أن أسمعها منك.

- أنا أحبك.

- وأنا أكثر.

- لكنني أسير...

- سأنتظركَ.

- قد يطول انتظارك.

- أستعذب الانتظار، ما أجمل أن ينتظر العشاق أحبتهم!

- وقد لا أعود.

- يكفي أن أراك من خلف القضبان، يكفي أن ألمس أصابعك الرقيقة وأعانقها.

- أخاف أن أظلمك.

- لن تظلمني إلا إذا تحول قلبك عني.

- وأهلك؟

- يمكنك أن تحدثهم.

- كيف؟

- عن طريق أمك وأبوك! أنسيت؟

- أيخطبون لأسير؟

- لا إنهم يخطبون لبطل من أجل فلسطين، لرمز للقضية، لإنسان يحمل في قلبه حبًّا بحجم الوطن كله.

قالت أم سعيد وهي مستغربة ما يحدث:

- هل اتفقتما على كل شيء بدوني.

- أبدًا يا حماتي، أنت أمّنا كلنا، وعلي في عيوني.

- معقول؟ أتقبلين بعلي وهو في السجن؟

- أليس غريبًا أنه قبل بي؟

- محكوم بالسجن المؤبد؟

- إنه الحكم نفسه الذي أصدرناه على حبّنا؛ حب مؤبد، لا نهاية له.

صمتت خولة، ثم قالت لعلي:

- علي لن نترككم، لا تخف، سأرسل لك محاميًا بعد أيام لترسلوا معه أخباركم، ابعثوا لنا رسالة تفصيلية. سأتصل اليوم بكل الصحافة، والمؤسسات الدولية، لن ينام لنا جفن حتى نراكم أحرارًا.

انتهت الزيارة، وغادرت الحافلة باتجاه القدس وآخر باتجاه رام الله، أما زوار غزة فلم يحضر منهم أحد، فقد قسّمت الإدارة زيارة الأهالي بحيث يزور أهالي غزة في يوم مختلف عن أهالي القدس والضفة، لتفصل الأهالي عن بعض، وتحُول بينهم وبين اتخاذ خطوات مشتركة للتضامن.

عاد علي إلى الغرفة شارد الذهن، يشعر أن شيئًا ثقيلاً قد أزيح اليوم عن كاهله، وأخيرًا باح لها بما في قلبه. مَن الذي أرسلها إليه؟ كيف جاءت لتجري معه حوارًا، فواظبت على زيارته حتى أكثر من أقاربه. هل فعلا يحبها؟ أم لأنها الخيار الوحيد الذي لم يجد أمامه غيره؟ نعم، قد تكون الخيار الوحيد، ولكنها النور الوحيد المشع وسط الظلام، ألا يعشق الإنسان ضوء القمر في الليلة الظلماء على الرغم من أنه الوحيد المطل عليه، ولكنه الوحيد الذي أنار له حلكة الظلام. لقد كانت خولة بطلّتها عليه التي تتكرر كل شهر تجعل لحياته معنى، ولوجوده في السجن نكهة مختلفة.

قال متمتمًا: بعد أن كنت أحمل في قلبي حبًّا للوطن، أصبحت أحمل حبًّا للوطن ولخولة وللشعب كله.

ولكنك خلف القضبان؟

ما زال في الأفق بصيص ضوء، ثورتنا مستمرة، ستحررنا من الأسر، أملنا بإخوتنا ورفاقنا كبير، الأخ أبو عمار لن ينسانا أبدًا.

سأله الأسرى عن الزيارة، فشرح لهم ما حصل، وقال لهم:

- لقد علمت من الأهالي أن بعض المنقولين من الرملة أُخذوا إلى بئر السبع، وآخرون إلى عسقلان.

- الشباب بالخارج بدؤوا التحرك، علينا أن نهيئ أنفسنا للمعركة القادمة.

قال عبد العزيز:

- إنها معركة الأمعاء الخاوية.

في المساء، كان علي يفرغ السجاير من التبغ بداخلها وقصها ليستخدم ورقها في كتابة رسالة تفصيلية عما حصل في الزيارة إلى اللجنة الاعتقالية، وفي الصباح استطاع دفع الرسالة إلى شاويش القسم في الخارج الذي انتظر الفرصة لينقلها إلى شاويش القسم الثاني، وبالتالي إيصالها إلى بعض المسؤولين هناك.

صيف ساخن جدًّا. وضاع سجن نفحة لا تطاق. المشاورات مع قيادة الخارج مستمرة، وإدارة السجون تحاول بممارساتها تركيع الأسرى في "نفحة" وإذلالهم.

بعد مشاورات طويلة، اتفق الأسرى على لجنة قيادية للإضراب تكون مقبولة من الجميع ومجربة، وليس شرطًا أن تكون الهيئة نفسها المسؤولة حزبيًّا، فاللجنة القيادية للإضراب تتمتع بشروط تختلف بعض الشيء وخصوصًا لكسب ثقة الأسرى، وقد تكونت اللجنة من محمد حسان عن حركة فتح، ويعقوب دواني عن الجبهة الشعبية، وعمر القاسم عن الفصائل الأخرى.

استراح علي لهذه اللجنة، فقد كان لا يريد غيرها في القيادة. إنها معركة طويلة وشرسة وتحتاج إلى مناورة، فسلاح الأسرى الأكبر هو الإضراب

عن الطعام، وهو سلاح حاد ويضر بالأسرى، ويحتاج إلى تغطية إعلامية واسعة وتحرك خارجي على صعيد الهيئات الدولية، وإلا أصبح إضرابهم دون جدوى. إنه إضراب مصيري، خسارته تعني الكثير، لذلك يجب أن ننتصر.

(7)

في زيارة قبل اندلاع شرارة الإضراب التاريخي، عاد أهالي الأسرى غاضبين لحال أبنائهم، فأولادهم في خطر، أم جمال مراغة كانت قلقة على زوجها، إنه في غرفة مثل القبر، الباب محكم الإغلاق، الشباك صغير، وفي أعلى السقف، لا يستطيعون رؤية شيء خارج الغرفة. إنهم في جحيم، لا راديو، لا تلفزيون، لا جريدة، لا كتاب، منقطعون عن العالم، كأنهم في صحراوين، صحراء النقب وصحراء السجن.

كانت أم عمر القاسم تجلس مع ابنها علي القاسم تضرب كفًّا بكف:

- أصبح المسكين ينام على الأرض، تكسرت أضلاعه، لا فرشة، لا بطانيات كافية.

قالت لها أم عطا:

- يقولون الليل هناك بارد جدًّا، والبطانيات لا تكفي.

فردّ عليها علي القاسم:

- برد الصحراء قارص يا أم عطا.

أم هاني سمعت الحديث، فقالت معلقة:

- الله يقطع اليهود ويوم اليهود، ألا يكفي أنهم يحتلون أرضنا ويسجنون أبناءنا، ولا يريدونهم أن يتنفسوا، هذا ظلم والله.

قالت لها أم عمر:

- يجب أن لا نسكت، علينا كلنا التوجه إلى الصليب الأحمر والاحتجاج.

ارتاحت خولة لحديثهن فقالت:

- هذا صحيح، كلكم تحركوا غدًا إلى الصليب الأحمر اعتصموا، وأنا سأحرك الصحافة باتجاهكم.

فقال أحد الشباب الجالس مع أمه:

- أرجو أن لا نستنفد تحركاتنا قبل أن يقرر أسرانا ماذا سيفعلون.

فقالت له:

- لن نستنفد وسائلنا فهي كثيرة، وعلينا تحريك كل الأهالي وأبناء شعبنا. عندما تحين ساعة الصفر يجب أن ننزل للشوارع كلنا؛ الأهالي، الطلاب، العمال، النقابات، المؤسسات الوطنية، رجال الدين مسلمين ومسيحيين.

فقالت أم علي النجار:

- يسلم فمك يا خولة، هذا الكلام الصحيح.

فقال أحد الآباء:

- يكفينا أنك بعشر رجال.

فقالت له باسمة:

- وهل النضال حكرًا على الرجال وحدهم؟ انظر إلى أولئك الأمهات المناضلات اللواتي لا ينقطعن عن زيارة أبنائهن، إنهن قمة النضال، افسحوا لهن المجال وسترون العجاب.

فقال أخو الأسير محمد عليان:

- أنا أول من سيكون بالصليب الأحمر غدًا.

وقال آخر:

- اتصلوا بالآخرين ليحضروا.

فبدأت التعليقات:

- هذا وضع لا يحتمل.

- إنهم يقتلون أبناءنا أحياء.

- سيدفنونهم في رمال الصحراء.

- صهاينة عنصريون.

- أين جيوش العرب؟ أين جيوش المسلمين؟ أين المعتصم؟ أين سيف الدولة؟ أين هارون الرشيد؟ أين صلاح الدين؟

- يا عزيزي كل هؤلاء ماتوا رحمهم الله، السؤال الآن أين نحن؟ ليتحرك كل منا وسنحقق المعجزات! لا تنتظروا لا سيف علي، ولا صلاح الدين،

علينا كلنا المشاركة، أبناء شعبنا كثيرون في كل العالم، والخيّرون من أشقائنا العرب أكثر، لو عرفنا كيف نحركهم كلهم سنغير الخريطة، ولكن المشكلة أننا نائمون، ننتظر عصًا سحرية.

قال والد عطا:

– وهل ستنسقون الأمر مع الأهالي في الضفة والقطاع؟

فردّت عليه خولة:

– طبعًا يا عمي، يجب أن نعمل بشكل مشترك، لا بد أنهم الآن يفعلون مثلنا ويناقشون الوضع، لا أحد يرضى بهذا الوضع

كانت إحدى الأمهات تسأل جارتها الجالسة بجانبها:

– من هذه التي تتحدث ونراها دائمًا معنا؟

–إنها خولة شاهين، يقولون إنها صحافية تأتي لزيارة علي النجار لتأخذ منه أخبار الأسرى لتنشرها.

– ولماذا تزور عليًّا تحديدًا؟

– لا أعلم، ربما لأن أمه تسمح لها بذلك.

– لكنها دائمًا تزوره نفسه.

– ماذا تقصدين؟ إنه سجين لا يستطيع أن يفعل شيئًا.

– معاذ الله، لا أقصد شيئًا حرامًا!

– وماذا إذًا؟ أوضِحي.

- ربما بدأت تحبه ويحبها.

- احمْ احمْ، وكيف سيتزوجها؟

- عندما يخرج.

- إنه محكوم بالسجن المؤبد!

- السجن لا يغلق على مظلوم، ألم تسمعي أن إحدى الأسيرات لا أذكر اسمها خطبها أحد الأسرى عبر مراسلات بريدية عن طريق الصليب الأحمر، وقد زارها أهلها وأعلنوا الموافقة؟!

- خطبها حتى دون أن يراها؟

- نعم! قال إنه قرأ رسائلها، وشعر أنها قريبةً منه. يقولون إنها من تنظيمه نفسه.

- الله الموفق، ومتى سيتزوجان؟

- عندما يشاء الله.

- لا إله إلا الله.

(8)

كانت رحاب قد أنهت سنتها الثانية الجامعية عندما وصلها خبر افتتاح السجن الجديد وانتقال أخيها علي إليه. قرأت في صحيفة (البرافدا) الروسية مقالاً عن السجن الجديد المرعب، وأحست أن أخاها يتعذب وهي بعيدة عنه، أحست بوخزة ضمير.

- علينا التحرك نحن الطلاب الفلسطينيين.

أخذت الجريدة، وتوجهت باتجاه مقر لجنة الطلاب الفلسطينيين الذين قرروا بعد التشاور مع مكتب منظمة التحرير الفلسطينية الإعلان عن مسيرة طلابية على الرغم من قلة الطلبة المتواجدين في العطلة الصيفية، دعوا فيها الطلاب من مختلف الدول إلى المشاركة. كانت شعاراتهم واضحة:

- أغلقوا سجن نفحة النازي.

- الصهيونية = العنصرية = النازية.

- الحرية للأسرى العرب في سجون الاحتلال.

كانت مسيرة كبيرة شارك فيها المئات من الطلاب منهم الروس والعرب والأفارقة. كانت مسيرة أممية، شعرت رحاب بسرور أنها فعلت شيئًا تضامنا مع الأسرى.

كانت تسير في طليعة المتظاهرين تضع الكوفية الفلسطينية على كتفيها وترفع صورة أخيها علي، وشعارًا (الحرية للأسرى العرب)...

كانت الكاميرات تتجه نحوها، فقد كانت طويلة، جميلة، شعرها يتمايل على كتفيها.

نظرت رحاب فرأت طالبًا روسيًّا يتقدم بثبات للأمام حاملاً شعار (الصهيونية = العنصرية) باللغة الروسية. كان يردد بالروسية الشعارات المعادية للاحتلال الإسرائيلي، وكان منفعلاً كأنه والد أسير فلسطيني.

تقدمت منه صحافية روسية تسأله عن شعوره كطالب روسي، فقال لها:

- ما تفعله إسرائيل مخالف لكل المواثيق الدولية، إنها دولة عنصرية، إنها تريد الانتقام من الأسرى الأبطال الذين يدافعون عن حرية بلادهم. نحن نعلن تضامننا مع فلسطين وشعب فلسطين، ونطالب بإطلاق سراح الأسرى فورًا وإغلاق سجن نفحة اللا إنساني.

بعد انتهائه، تقدمت منه رحاب وشكرته على كلامه، وفي ختام المسيرة قدّمت نفسها إليه:

- أنا رحاب النجار أخت الأسير علي.

هز رأسه إعجابًا.

- أنت أخت أسير؟! أهلاً وسهلاً، قالها بالعربية.

- أنا فلاديمير، طالب سنة رابعة في كلية الطب.

سلمت عليه. قال لها:

- أنا سعيد بالتعرف إليك، لماذا لا نلتقي غدًا في الكافيتيريا العاشرة صباحًا؟

- العاشرة مناسب، لدي بعض الوقت.

- إذًا إلى اللقاء.

الساعة العاشرة كانت رحاب تنتظره في كافيتيريا كلية الطب، جاء فلاديمير حسب الموعد المحدد. كان دقيقًا في مواعيده. ابتسم لها، وقال مفتتحًا الحديث:

- أنا سعيد بالتعرف إليك، أشعر بالتضامن معكم، وآسف لما يفعله اليهود بأبناء شعبكم، إنهم يمارسون ضدكم ما مارسه النازيون ضد شعوب أوروبا قبل أربعين سنة، وحتى ضد اليهود أنفسهم، يا للعار.

قالت له، وقد أعجبها حديثه:

- شكرًا لتضامنك، أشعر بفخر من مسيرة الأمس.

لقد شعرت بالتضامن الدولي معنا، أنا سعيدة بما تحدثت به أمس للصحافة، التضامن الروسي مع شعبنا، وتضامن شعوب دول الاتحاد السوفيتي يحظى بتقديرنا، نأمل أن تتراجع إسرائيل عن قراراتها العنصرية، إنهم يسجنون إخواننا في سجن أشبه بالمقبرة، يريدون دفنهم أحياء، يعيشون وسط أربعة جدران، حتى الباب مغلق بالصاج، الشباك في الأعلى صغير جدًّا يكاد يدخل منه الهواء، الطقس حار جدًّا، لا يسمح لهم بالخروج من الغرفة إلا ساعة يوميًّا إلى ساحة طولها حوالي خمسة عشر مترًا ضرب ثمانية أمتار، إهانات يومية.

- أنا أشعر بالأسى لوضعهم، ليتني أستطيع فعل شيء، لكن عديني في قائمة المتضامنين دائمًا، أنا عضو في مجلس اتحاد الطلبة هنا، وهذا رقم هاتفي وعنواني، كلما احتجت لشيء، اتصلي بي لنشارك معكم، نحن وإياكم في الخندق نفسه، لا يمكن أن نكون في الخندق الآخر، نحن دائمًا مع الشعوب المتطلعة للتحرر.

نظرت إليه بإعجاب وهو يتحدث إليها، كان فلاديمير طويلاً، رشيقًا، شعره أشقر، عيونه زرقاء، حليق الذقن، مرتب في ملابسه، يحمل بعض الكتب والكراريس.

قالت له:

- أسعدني تضامنك، وهذا أيضًا هاتف مكان السكن الذي أقيم فيه أنا في كلية الصحافة.

سألها فلاديمر:

- وهل أحببت بلادنا؟

- إنها بلاد جميلة، شعبها طيب، بسيط، منظم، صديق، لا يحمل تعقيدات الحياة.

قال لها بالعربية:

- عظيم جدًّا.

- أنت تتحدث العربية؟

فردّ عليها بالروسية مرة أخرى:

- لا، ولكني أحفظ بعض الكلمات التي تعلمتها من صديق لي في الكلية، إنه من سوريا، اسمه نبيل.

- هل تحب العربية؟

- طبعًا، لو سمح لك وقتك، حبذا لو تعلميني بعض الكلمات.

- سأكون سعيدة بذلك.

- إذًا في اللقاء التالي سنبدأ الدرس.

ابتسمت، وقالت له:

- حسنًا متى تريد ذلك؟

فقال لها:

- ما رأيك في نهاية الأسبوع؟ نجتمع ونشرب معًا الشاي، بعد ذلك أدعوك لسهرة في عالم الطلاب الروس، هل تحبين المشاركة؟

فكرت رحاب قليلاً، قالت لنفسها: إنها فرصة للتعرف إلى الشعب الروسي بشكل أفضل، لم لا، فردت عليه:

- حسنًا، قبلتُ الدعوة.

(٩)

في داخل السجن، وبعد مشاورات عديدة بين لجنة قيادة الإضراب في سجن نفحة، قررت اللجنة ما يأتي:

أولاً: عينت لجنة احتياطية (خلفية) التي عليها قيادة الإضراب في حال نفي اللجنة الرئيسة من السجن، والتي بيدها يكون حل الإضراب، أو الاستمرار فيه، كما سلسلت عدة لجان احتياطية، كل لجنة تحل محل سابقتها إذا نفيت أو جرى عزلها.

ثانيًا: لجنة الإضراب الرئيسة تستمر في عملها حتى لو ظل عضو واحد منها، ولا تستلم اللجنة الخلفية القيادة إلا بنقل كل أعضاء اللجنة القيادية الأساسية.

ثالثًا: تعلن اللجنة أنها ستبدأ الإضراب المفتوح عن الطعام حتى النهاية لتحقيق مطالبهم.

رابعًا: تؤكد اللجنة أن خيار الإضراب اختياري، ولكنها تحث الجميع على المشاركة فيه، وتستثني المرضى وكبار السن، فاللجنة لا تريد أن يستنكف عن المسيرة أحد وسط الإضراب، فمن كان لا يستطيع الالتزام عليه إعلان ذلك من البداية.

خامسًا: ستجدد اللجنة ساعة الصفر عندما تنسّق مع الخارج حتى تكون الظروف مناسبة للتحرك الإعلامي والدولي.

مطالب الأسرى:

أولاً: الاعتراف بنا كأسرى حرب.

ثانيًا: تغيير الأبواب، واستبدالها بأبواب ذات قضبان حديدية مفتوحة.

ثالثًا: يقوم الإخوة الأسرى بالإشراف على طهي موادهم الغذائية، وتقديم المواد الأساسية والكافية حسب قوانين الأسرى العالمية.

رابعًا: مدة الخروج خارج الغرف يجب فتح الغرف طوال النهار.

خامسًا: أن يسمح لنا بالراديو.

سادسًا: أن يسمح لنا بالأسرّة.

سابعًا: أن يتم تخفيض الازدحام في الغرف.

ثامنًا: أن يتم تخفيض أماكن مريحة لزيارة الأهل مع كراسي للجلوس للجانبين.

.....

وقد أرسلت عدة بيانات إلى الهيئات الدولية والعربية وإلى أبناء شعبنا الفلسطيني، تم تهريب هذه الرسائل عبر طرق مختلفة بوساطة أحد الأسرى، كانت قد انتهت مدة محكوميته هناك، فحمل معه تلك الرسائل وسلمها إلى المسؤولين.

كانت القيادات الوطنية تتحرك على كل الأصعدة، ومستعدة لساعة الصفر.

وفي الرابع من تموز سنة 1980 هرّب أسرى سجن نفحة بيانهم الشهير الذي يعلنون فيه ساعة الصفر للإضراب المفتوح عن الطعام. وصل القيادات الوطنية في فلسطين بيان أسرى نفحة الشهير، والذي يعلنون فيه الإضراب المفتوح عن الطعام، ومما جاء فيه:

لقد جُلِبنا في 2 أيار سنة 1980 إلى هذا المعتقل لنرى العجب العجاب؛ بنايتان في كل منهما عدد من الزنازين صممت كل منها لقتل الإنسان جسديًّا ومعنويًّا، فمن أول نظرة تبرز واضحة جلية حقيقة العقليات الحاقدة التي صممت وساهمت في تشييد هذا المعتقل الذي يمثل مدرسة التعامل مع الإنسان الفلسطيني في المعتقلات، فمن يستطيع أن يصدق أننا في قلب الصحراء بعيدًا عن كل عمران؟

إن كمية الهواء الذي يشاء حظه التعس أن يدخل الزنزانة ليس له منفذ كما يجب للخروج، حيث لا توجد نوافذ للزنزانة التي يعيش فيها 8-10

أسرى. لقد استعاضوا عن النوافذ بستة خروم في كل زنزانة مساحتها مجتمعة لا تزيد عن نصف متر مربع، وهي تقع بالقرب من السقف، أي لا نستطيع أن نرى من خلالها أي شيء، كما أنها لا تسمح بإدخال الضوء الطبيعي مما يستلزم الإنارة بالكهرباء طيلة النهار، كما أن باب الزنزانة من الصفيح مغلق بالكامل، وبالباب نافذة صغيرة 20×20 سم، ثلاثة قضبان سُمك كل منها 2 سم، وهذه النافذة لا تفتح إلا في النهار وتغلق في الليل، حتى في أيام الحر الخانق حيث تنقلب الزنزانة إلى حيز ضغط عنيف، وتصبح أتونًا ملتهبًا، لا تفتح هذه النافذة الصغيرة، والسبب، كما يدّعون، أمني، وعملية فتحها 12 ساعة قد تمت بعد طلوع الروح وتدخل هيئة محايدة.

الإدارة هنا تتكلم بلسان مدير السجن الذي يتباهى بقوله:

- إننا نعطيهم الحد الأعلى من المضايقات، والحد الأدنى من شروط الحياة، هذه هي الأوامر، وأنا عسكري أنفذ الأوامر.

بعد رحلة العذاب في المعتقلات منذ 1967 تكون (نفحة) مقرًّا لنا قبرًا جماعيًّا، قبرًا لأبنائكم...

بهذه الشروط، قررنا أن نعلن إضرابًا مفتوحًا عن الطعام.

نعم لآلام الجوع، لا لآلام الركوع.

المعتقلون الفلسطينيون.

معتقل (نفحة) الصحراوي.

الرابع من تموز 1980.

*

14 تموز 1980

كان مقر الصليب الأحمر في الشيخ جراح في القدس يعج بأمهات الأسرى صباح اليوم سواء الذين نقل أبناؤهم إلى نفحة أو إلى بئر السبع أو عسقلان، وكانت وفود أخرى تتوافد من المدن الفلسطينية الأخرى إلى المقر الرئيس، فيما شهد مقر الصليب الأحمر في غزة حشودًا مشابهة، كان الجميع يطالبون بإغلاق سجن نفحة اللا إنساني، ويطالبون الصليب الأحمر بالتوجه إلى السجن للاطلاع على شروط الاعتقال المجحفة.

خولة أول المعتصمات، تلتها الوفود المتضامنة، كان يتقدمهم فيصل الحسيني رئيس جمعية الدراسات العربية.

اجتمع وفد من الأهالي مع رئيس مكتب الصليب الأحمر الذي قال لهم:

– لقد وصلتنا شكواكم، سنرسل وفدًا لزيارة السجن قريبًا بعد أن تأذن لنا السلطات الإسرائيلية بذلك، وسنقدم تقريرنا لهم بعد زيارتنا. لا نستطيع زيارة السجن دون موافقتهم، ولكننا أبلغناهم قلقنا على مصير أبنائكم المنقولين إلى سجن نفحة، وقد وعدونا بالرد.

كان الأهالي يعرفون أن رئيس المكتب لا يستطيع فعل شيء سوى الاحتجاج، ولكن تقريره واحتجاجه ضروريان في حشد التأييد الدولي بإغلاق سجن نفحة.

قالت له خولة:

- نحن نتفهم قلقكم، ولكن سرعة تحرككم ضرورية، فالسجن عبارة عن مقبرة للأسرى، لقد زرته واطّلعت على شكله واستمعت بنفسي للأسرى.

وعلق محمد عودة، أخو الأسير يعقوب عودة:

- لن نسمح لهم أن ينكّلوا بأبنائنا.

توالت التعليقات على مدير المكتب، فأكد لهم من جديد حرصه على مصير الأبناء، وتحركه لزيارة السجن.

خرج الأهالي من مكتبه، ولكنهم استمروا في اعتصامهم ذلك اليوم.

أحد الأهالي قال في الاعتصام:

- يا إخوان، هذا اليوم قد لا يكون الأول والأخير، المعركة قادمة، لذلك علينا تشكيل لجنة من الأهالي للمتابعة والاتصال بالجميع، وتكون جزءًا من لجنة وطنية أكبر من شخصيات وقوى وطنية في القدس وفلسطين لدراسة الموقف.

استحسن الجميع رأيه، وتم تشكيل لجنة.

فوجئت خولة أن معظم الأمهات رشحنها لتكون ضمن اللجنة المقترحة، لقد رأين فيها عنفوان الشباب وحماس المناضلين.

كان معها ستة أشخاص آخرين منهم محمد عودة.

بعد الظهر بقليل، جاءتهم سيارة محملة بالأكل مرسلة من قبل شركة القدس؛ ساندويتشات خفيفة للمعتصمين الذين لم يتركوا مقر الاعتصام منذ الصباح الباكر. كانت بعض الوفود الصحافية تزور مقر الاعتصام، وتلتقط الصور، وتجري حوارات مع بعض الأمهات، صور الأسرى كانت تملأ كل مكان، كل أم تحمل صورة ابنها أو أبنائها.

قبل أن يتفق الأهالي، قرأت عليهم خولة شاهين بيانًا قالت لهم إنه أعد من قبل لجنة الأهالي لنشره في وسائل الإعلام، وسألتهم إن كان لأحد منهم تعليق عليه، فأثنوا عليه وطالبوها بنشرة. كان نص البيان يقول:

"يا أبناء شعبنا الفلسطيني المرابط في أرض الرباط، يا أحفاد القسام، وعبد القادر الحسيني، وعطا الزير، ومحمد جمجوم، وغسان كنفاني...

يا أشقاءنا في كل مكان.

إخوتكم وأبناؤكم في سجن نفحة الصحراوي يواجهون القتل المنظم من قبل أجهزة العدو الصهيونية، لم تكتف حكومة إسرائيل بسجن طلاب الحرية في سجونها العنصرية، بل أنشأت قبرًا جديدًا أطلقت عليه سجنًا، ونقلت إليه بعض أبنائكم لتكسر شوكتهم وتقتل روحهم المعنوية..."

كانت صور الأسرى في مقر الصليب الأحمر في القدس في كل مكان.
وصلت دورية من حرس الحدود لتفريق المعتصمين في مقر الصليب الأحمر، ولكن مندوب الصليب الأحمر قال لهم:

- إن الاعتصام داخل مقر الصليب الأحمر، وهي مؤسسة دولية، والاعتصام سلمي.

اتصلوا بقيادتهم التي طالبتهم بالانسحاب من هناك، ولكنها ظلت تعود كل ساعة في محاولة لإرهاب المتضامنين. الناس تعوّدوا على سيارات الجيش حتى أصبح التنكيل جزءًا أساسًا من حياتهم اليومية.

كانت خولة أكثر قلقًا من الأمهات أنفسهن؛ كيف إحساسهم بالجوع الآن؟ كيف يتحملون كل ذلك؟ لا بد أنهم سيهزلون، آه يا خولة، كفي عن ذلك؟ دعك من هذه التساؤلات، لا بد سينتصرون، علي سينتصر، نعم سيهزمون الجلاد، سيهزمونه بصمودهم، بعدالة قضيتهم سيكتب عنهم التاريخ.

اقتربت منها أم عمر القاسم وسألتها:

- ماذا يا خولة، هل هناك أخبار جديدة؟

- آخر الأخبار، نقابات ومؤسسات عربية ودولية تعلن تضامنها مع الأسرى، النقابات العمالية في سوريا تشجب الممارسات الصهيونية...

هزت رأسها أم عمر وقالت:

- ماذا عن أخبارهم في الداخل؟ ماذا جرى معهم؟ هل هم بخير؟
- لا أخبار يا أم عمر، إدارة السجون منعت زيارة المحامين لهم، ولكنها سمحت بزيارة لجنة الصليب الأحمر التي سنسمع تقريرها بعد أيام.
- الله يسترهم، الله يحميهم أبطال، عمر أنا أعرفه مثل أبيه محمود القاسم المناضل الذي مات من أجل الوطن.
فقالت أم سعيد لها:
- أرجو ألا يطول الإضراب، سيموتون جوعًا، الكلاب لا يهمهم، يريدون قتل أولادنا، إنه اليوم الخامس الآن.
جاء محمد عودة بسيارة مع بعض الشباب، ودعا لجنة الأهالي إلى اجتماع، وأخبرهم أن الأخبار وصلت إلى إخوتنا ورفاقنا في كل السجون وهم على اطلاع كامل بالوضع، وسوف يصدر بيان قريب يحدد سبل تضامن السجون معهم.
لم تكن القيادة الوطنية تترك الأمر يمر دون اهتمام وتنسيق؛ فقد أبلغت كل الأسرى في كافة السجون عبر رسائل أرسلت لهم عن ظروف سجن نفحة، وشجعتهم على التضامن معهم لأن هزيمة أسرى سجن نفحة هزيمة لكل الأسرى، ونجاح الإضراب سينعكس نفسه على كل السجون، وهذا ما يفهمه الأسرى جيدًا، كما أخبرهم أن هناك دعوة لتصعيد التحرك نحو تظاهرات تعم الأرض الفلسطينية كلها يوم الجمعة

القادم (ثامن أيام الإضراب)، تظاهرات صاخبة حتى لو اصطدمت مع الجيش، سيكون شعاراتنا:

"الحرية لأسرى الحرية"

"أسرى حرب وليسوا سجناء أمنيّن"

"أغلقوا سجن نفحة النازي"

وافق الجميع، وقد أخبرهم أن لجنة المؤسسات الوطنية في القدس اجتمعت ودعت كل أنصارها وعناصرها لحشد جماهيري يوم الجمعة، يجب أن يسمع العالم كله صوت أسرانا. ثم سرّب لهم بيان وصل من أسرى سجن عسقلان، قرأته خولة بصوت عال على أمهات الأسرى:

"يا أبناء شعبنا المناضل، يا أمهات علي، وعمر، وعبد القادر أبو الفحم، وعلي الشطريط، وقاسم أبو عكر. هذا العدو الغاشم يحاول تركيعنا في السجن، ويمارس ضدنا شتى أنواع القمع التي تتعارض مع أبسط حقوق الإنسان، ويكشف أمام العالم زيف ادعاءاته، ويظهره على حقيقته...

أم عمر تهمس لجارتها أم يعقوب:

- الله يحميهم النشامى.

فردّت عليها أم يعقوب:

- لا يحرث الأرض إلاّ عُجولها.

(10)

20 تموز 1980

أسبوع كامل مرّ على إضراب أسرى سجن نفحة؛ تراجعت حالتهم الصحية، كل سجين نقص وزنه خمسة كيلو غرامات على الأقل، كانت وجوههم صفراء، يشعرون بالهزال. كانت التوجيهات للأسرى من قبل لجنة قيادة الإضراب واضحة؛ عدم بذل جهد في الحركة، التوقف عن ممارسة أية أنواع من الرياضة، عدم المشي كثيرًا، كل جهد يبذل خلال الإضراب يستنفذ طاقة الجسم، ويعرض صاحبه للصداع.

أحس علي في ذلك اليوم بصداع عندما استيقظ صباحًا، قال له زميله عبد العزيز:

– لا تنهض عن الأرض بسرعة، ولكن بالتدريج كي لا تفقد توازنك.

المضربون يسمح لهم بشرب الماء، فالماء لا غنى عنه وبدونه لا يستطيع المضرب عن الطعام الاستمرار فقد يموت خلال أيام قليلة. إدارة

السجون حسب قرار المحكمة العليا الإسرائيلية تجبر الأسير المضرب عن الطعام بتناول كأس حليب صغيرة مع بيضة نيئة كما هي توضع في الحليب، وذلك في محاولة لتأخير تعرضه للموت، لذلك على الأسرى أن يتناول كل منهم كأس الحليب مع البيضة مرة كل يوم. مدير سجن نفحة وبأمر من مديرية السجون، قرر إدخال الحليب في جسم الأسرى بطريقة إجبارية عادة تستخدم لمن يرفض تناولها، حيث يتم إدخال البربيج في حلق الأسير إلى داخل معدته وصب الحليب في محقن من الجهة الأخرى. كانت عملية مؤلمة تثير القرف، وكان الممرضون اليهود يتفننون في تعذيب الأسرى حيث يتم إدخال البربيج، وعندما يصل المعدة يدفعونه بسرعة ثم يسحبونه، ويدفعونه مرة أخرى مما يولّد ألمًا شديدًا للأسير فيتأوه وجعًا، فيما هم يتلذذون على عذابه ويتبادلون البسمات.

علي يقف أمام السجان الذي يقف أمامه بثياب خضراء، على أنه ممرض يضع لعلي البربيج في فمه، لكن السجان يسحبه منه ويقول له: سأضعه من أنفك.

- لماذا من الأنف؟

- هكذا، ألست مضربًا؟

- نعم.

- إذًا لن نضعه من فمك، حتى تشعر بلذة الإضراب.

يرفض علي، فيمسكون به، ويضعون القيود في يديه ورجليه ثم يدفعون البربيج إلى أنفه ويدفعونه حتى يصل المعدة. يشعر علي أن رأسه تكاد تنفجر، يكاد يختنق، يشعر بدوار، أرادوه أن يختنق، يصبون الحليب تدريجيًّا لتطول المدة. ما أن انتهوا وسحبوا البربيج منه حتى شعر كأن الحياة أعيدت له من جديد. فكّوا قيوده وأعادوه إلى غرفته، كان مرهقًا، جلس على الأرض مستلقيًا.

- هؤلاء الكلاب يريدون إذلالنا لإنهاء الإضراب، يريدون كسر عزيمتنا وصمودنا، لن نُهزَم، سننتصر بإذن الله.

الإرهاق يزداد إطباقًا عليه. فجأة يدخل إلى الغرفة أسير آخر لا يستطيع المشي. سأله علي بعد أن رفع رأسه:

- ما بك؟

- ضربوني!

- ضربوك؟ الكلاب! لماذا؟

- لأنني رفضت إدخال البربيج من أنفي.

كان الجميع يشكُون من صعوبة التنفس أثناء إدخال البربيج من الأنف.

قال لهم عبد العزيز:

- شدة وتزول، هذا سلاحنا الوحيد الآن سننتصر.

ابتسم علي، سَرّه أن يسمع مثل هذا الكلام من رفيق آخر، كل أسير يستند في صموده إلى همة الآخرين، إنهم كالبنيان الذي يشد الحجر حجرًا آخر ويستند إلى ثالث. العرق يتصبب من جباههم، والطقس حار جدًّا، الغرفة خانقة، أربعة جدران، والباب محكم الإغلاق، الشباك يكاد يسمح بالتنفس، الماء ساخن من حنفية الماء. أصبح كل أسير يشعر برائحة كريهة تصدر من فمه، لم يعد معجون الأسنان ينفع فالمعدة التي تبقى فارغة بدون أكل تتسرب روائح المواد التي تفرزها إلى الفم والأسنان. كان علي يتمتم لنفسه: آه كيف أنت يا أمي، يا أبي، يا سعيد، فريد، كيف رحاب في دراستها الآن؟ كيف فادية؟

خولة! آه يا خولة! هل سأراك؟ هل سنحتفل بزواجنا؟ أم ستكسرنا هذه القيود؟ هذا العدو الشرس لا يعترف بمواثيق ولا بلوائح ولا قوانين إلا إذا كانت لصالحه! إنه زمن الأعداء يتكاتفون، ونحن نرجع إلى الوراء، ترى ماذا تفعل خولة الآن؟ هل تشارك الآن في الاعتصام؟ هل تشارك مع المتظاهرين؟ أخاف عليهم من رصاصة طائشة! أو عصا جندي عنصري، لذا أعطتني الإحساس بالأمان، كلما رأيتها بالزيارة أحس أنني أملك المستقبل، لقد تعبت أمي، وتعب أبي. يطاردون دائمًا من أجل علي! لا، بل من أجل الوطن، قضيتنا قضية وطن، شعب، وليس مجرد أبناء يقبعون خلف القضبان.

يجلس محمد حسان رئيس لجنة الإضراب في غرفته منهمكًا في التفكير فيما آلت إليه الأوضاع، يسأله الآخرون:

- كيف حال بقية الغرف؟

- حتى الآن الأمور تسير بشكل جيد، هناك أخ أصيب بهزال شديد بعد تعرضه للضرب، وقد نقل للمستشفى، ولكنه صامد.

- من هو؟

- الأخ راسم حلاوة.

- راسم حلاوة في المستشفى؟! نرجو أن يعود سالمًا؟

- قد يقتلونه هناك ويدّعون أنه توفي.

- لا شيء غريب عن هذا العدو، المهم ألا يؤثر ذلك على معنويات الإخوة، والرفاق. نحن الآن في معمعة المعركة، ولا نريد لمعنويات الشباب أن تتزعزع.

رد عليه أحد الأسرى:

- لن يزيدنا ذلك إلا صمودًا.

- سنعيش معًا أو نموت معًا، أنا فداكم، فدى الوطن، فدى كل طفل وأم وأب وأخت وأخ يتظاهرون اليوم ضد الإذلال الذي نتعرض له.

اللجنة تصدر كل يوم بيانًا تحث الأسرى على الصمود، وتؤكد حتمية النصر.

- إن هُزمنا سينكّلون بنا أكثر.

قال يعقوب عودة:

- إنهم يراهنون على صمودنا، وسنثبت لهم أننا أقوى من هراواتهم، وسجونهم، وسلاحهم، نحن صامدون بإرادتنا، بعزيمتنا، بإيماننا بعدالة قضيتنا.

في المساء نزل الخبر عليهم كالصاعقة؛ راسم حلاوة انضم إلى قافلة الشهداء. صمت كامل ظلل على السجن، الأسرى واجمون يبكون شهيدهم البطل ويعاهدونه على المضي في المسيرة.

المسجد الأقصى يعج بالمصلين، شوارع القدس ينتشر فيها جنود الاحتلال، والشرطة، والمخابرات، والجواسيس، إنها ساحة حرب.

إسرائيل ترسل آلاف الجنود إلى مختلف مدن الضفة الغربية، خطيب المسجد الأقصى يعلن تضامنه مع أسرى شعبنا ويشرح أوضاع سجن نفحة. بعد الصلاة ينطلق الشباب في تظاهرة صاخبة، آلاف المواطنين يشاركون، كل القدس تهب في مظاهرة لم تشهد مثيلاً لها، رجال الدين والشخصيات الوطنية يتظاهرون في شوارع البلدة القديمة، الجيش يلقي القبض على بعض الشخصيات الوطنية منهم عبد أبو دياب من نقابة العاملين في شركة كهرباء القدس، امرأة تتعرض للضرب فتنقل إلى المستشفى، فتاة تصاب باختناق من الغاز المسيل للدموع، والد أسير

يتعرض للضرب فيسقط على الأرض رافعًا صورة ابنه، إنه والد الأسير علي النجار.

خولة تصاب برصاصة مطاطية في باب العامود، فتنقل إلى مستشفى المقاصد الخيرية بالطور.

مدن الضفة تنتفض انتصارًا للأسرى. الإذاعات وكالات الأنباء تعلن: "أسرى عسقلان يشاركون أسرى نفحة الإضراب عن الطعام".

التحركات في تصاعد. الأسرى كل يوم يعلنون عن انضمام سجون أخرى معهم.

قال محمد لأهالي الأسرى:

- أسرانا باستطاعتهم إعلان الإضراب كلهم مرة واحدة، ولكنهم يريدونها بالتسلسل ليظل لها حضور إعلامي.

فريد النجار في بريطانيا يتصدر الطلبة الفلسطينيين في تحركهم. بريطانيا تشهد تظاهرات تضامنية، ودول أوروبا تدعو إسرائيل لإعادة النظر في سجن نفحة. لجنة الصليب الأحمر تعلن أن سجن نفحة لا تتوفر فيه الشروط الإنسانية، وتطالب بإغلاقه. معظم دول العالم تشهد تحركات تضامنية مع الأسرى، شعارهم في كل مكان الحرية لأسرى الحرية.

إدارة السجون تحاول الالتفاف على الأسرى لخلق البلبلة في صفوفهم، فتستدعي أحد الأسرى ليفاوضها بمطالبهم.

يسألون خليل الصباح:

- ما رأيك أن نزيد ساعة للفورة مقابل فك الإضراب؟

- أنا لست مفوضًا عن الأسرى.

- من لجنة قيادة الإضراب؟

- لا أعرف، اسألوا ممثل الأسرى.

يشتمونه ويعيدونه إلى غرفته.

فجأة يطلبون ممثل المعتقل ويعرضون عليه استعدادهم لحل مشكلتهم؛ على كل أسير أن يعرض مطالبه لوحده.

يضحك، ويقول لهم:

- تعرفون رأينا في ذلك، لا للمطالب الفردية، نحن أسرى حرب ولنا ممثل واحد وقيادة واحدة.

محمد حسان يعلن:

- دم راسم حلاوة لن يذهب هدرًا، على طريقه سائرون، لن نتراجع، يا إخوة راسم، ورفاق نضاله، ستعمدون بصمودكم واستشهادكم طريق التحرير، للوطن السليب، إنكم تشقون بهذا الصمود مستقبل أولادنا، فلا تيأسوا، ولا تهنوا، إن الله مع الصابرين.

رحاب ترفع علم فلسطين في مسيرة طلابية كبيرة في موسكو. يتقدم الطلبة مجموعة طلابية من مختلف البلدان يضعون أيديهم معًا في صف

طويل في الساحة الحمراء، لونان امتزجا معًا، والكوفية السمراء التي تلفّع بها كل المشاركين في الصف الأول. كان بجانبها يمينًا فلاديمير الروسي، كانت يده تشد على يديها كأنه يريد أن يؤكد تضامنه اللا محدود مع قضية أسرى فلسطين.

بعد انتهاء المسيرة، دعاها إلى غرفته في سكن الطلاب، لم تتوقع أن تشاهد فيها صورة لعلي النجار معلقة على الجدار، فتساءلت:

- هل دعاني لأرى ذلك؟

صور أخرى تملأ الغرفة؛ جيفارا، كاسترو، لينين. جلست منهكة، متوجسة؛ هل فعلت الصواب بحضورها إلى غرفته؟!

قال لها:

- رحاب، هذا العدو إذا هزم، ستهزم أمريكا معه، قضيتكم قضية عالمية، لن تستطيعوا الانتصار على إسرائيل بطاقاتكم الذاتية في العصر الراهن، نضالنا مشترك.

هزت رأسها وقالت له:

- ثورتنا مستمرة حتى النصر.

اقترب منها، نظر إلى عيونها، ثم قال:

- رحاب؟ أنا بصراحة... أردت... أن أقول لك شيئًا مهمًّا، ولكني لا أعرف إن كنت...

صمت، نظرت إليه كأنها عرفت ما سيقول، قالت له:

- لماذا صمت؟

- لا أعرف إن كنت ستتقبلين ذلك، على كل حال سنظل أصدقاء حتى ولو لم توافقي. رحاب أنا أحبك.

لم تفاجأ رحاب كثيرًا، فقد لمحتْ ذلك في نظراته، واهتمامه بها، واتصاله الدائم بها، ولكنها لم تتوقع أن يصارحها بذلك، ربما للأسباب نفسها التي منعتها من بوح سرها إليه.

- أنت...

صمتت. لم تعرف ماذا تقول، هل تشكره؟ هل تمتنع؟ هل تقترب منه؟ هل تعتذر؟ هل تنسحب؟ هل تستسلم لحبه؟ دائرة التساؤلات اتّسعتْ بسرعة، حتى باتت لا تعرف أين ستقف، ومن هو الخيار الذي سيرسو إليه المؤشر.

ابتسمت بأدب، أغمضت عينيها قليلاً، ثم فتحتهما لتفاجأ بشفاهه على مسافة تكاد لا تلاحظها حتى العيون، لهيب شفاهه تقترب منها، هذا الروسي الثائر يريد أن يقتحم عليها عالمها الأنثوي، فبعد أن اخترق قلبها، ومشاعرها وجلس على قمة إعجابها، ها هو يتقدم باتجاه جسدها، أحست بذراعيه تطوقها، عادت إلى دائرة تساؤلاتها، ولكنها هذه المرة تباطأت، واحد، اثنان، ثلاثة، توقّف المؤشر على تطابق الشفاه، أحاطها

بذراعيه القويتين، ضمها إليه بقوة، أحست بلهيب يمتد عبر جسدها كله.

كانت تستسلم له بكل كيانها، لأول مرة تكون بين ذراعي رجل، أحست باطمئنان، أحست بنار حبه، ليتها تظل بين ذراعيه، ما أجمل أن تكون المرأة بين ذراعي رجل يحبها، يملأ عليها عالمها، تريد أن تطوقه كما يطوقها، تريد أن تلفه بذراعيها تضغط على كتفيه، تتحسس وجهه، تشده أكثر، يداها غير قادرتين على الحركة، ستحاول، لمَ لا تحاول؟ ماذا يمنع من ذلك؟ حركت يديها بحركة عفوية طوقته وشدت رأسه إليها، وأغلقت عينيها، رمت مجاديفها وبوصلتها في محيطه تاركة قاربها يسبح في الماء حسب اتجاه رياحه لا تدري إلى أين سيقودها.

(11)

24 تموز 1980

علي الجعفري يسقط شهيدًا ثانيًا في سجن نفحة، أسرى نفحة يصرون على المواجهة، وكل الأسرى في كل السجون انضموا إلى الإضراب، غزة تنتفض لاستشهاد راسم حلاوة وعلي الجعفري، فلسطين كلها تلبس ثوب الحداد، أهالي الأسرى يتظاهرون كل يوم، طلبة فلسطين يشتبكون مع جنود الاحتلال، إسرائيل تتعرض لانتقادات دولية.

خولة شاهين يخفق قلبها خوفًا على حبيبها علي النجار، كانت متوترة الأعصاب تمتم بين الفينة والأخرى لنفسها:

- إن استمر الإضراب سوف يستشهد آخرون. لا أدري على من يكون الدور هذه المرة، يا رب احفظه، يا رب احفظ كل أسرانا.

أمهات الأسرى يقدمن العزاء باستشهاد راسم حلاوة، وصورته وصورة علي الجعفري في كل مكان.

سجون رام الله، وطولكرم، والخليل، وجنين، تدخل الإضراب المفتوح عن الطعام.

متطوعون من المواطنين ينصبون خيمة تضامنية للإضراب المفتوح عن الطعام تضامنا مع الأسرى.

أم سعيد تضرب كفًّا بكف:

- آخ يا علي؟ كيف أنت يا بني؟ كم كيلو نقص وزنك؟ لا، لا، لا أريد أن أسمع خبرًا عنك.

تلتفت إلى أم عطا تسألها:

- هل وصلتك أخبار عن عطا؟

- من أين يا أم سعيد؟ أخباري مثل أخبارك.

- ألا يوجد حل؟

- لا تخافي، الله معهم.

- لا إله إلا الله.

إدارة السجون تقرر نفي بعض الأسرى إلى سجن الرملة الجديد (للموقوفين)، تنقل إلى هناك خمسة وعشرين أسيرًا بما فيهم أبو حسان ويعقوب دواني عضوي لجنة قيادة الإضراب، لم يبق سوى عمر القاسم من اللجنة، أصبح الوحيد الملم بقيادة الإضراب حسب قرارات اللجنة فيما كانت اللجنة الخلفية تستعد لاستلام المهمة في حال نقله، كان الاتفاق

واضحًا؛ كل الأسرى المنقولين يستمرون في إضرابهم حتى انتهاء الإضراب في سجن نفحة.

وصل المضربون المنقولون إلى سجن الرملة، وكانت قد جرت ترتيبات واستعدادات كبيرة لاستقبالهم؛ قوة كبيرة من الحراس محملين بالهراوات، وأدوات القمع. مدير السجون موجود في السجن ينتظرهم، ووزير الداخلية الدكتور يوسف بورغ يشرف على عملية الاستقبال، ويوجه الأوامر، ويصادق عليها. ينقل الأسرى إلى غرفة واحدة في مدخل السجن، يحشر فيها عادة السجناء القادمون إلى السجن لتسجيلهم قبل إدخالهم إلى أقسام السجن. بعد دقائق جاء بعض السجانين في عملية إرهابية بهراواتهم، ونادوا على الأسير الأول، أخذوه إلى الغرفة الثانية حيث تجمع الحراس والمسؤولون.

نظر الأسير محمد حسان فرأى حراسًا أكثر من عدد الأسرى، كلهم ينظرون إليه، ويحدقون به والشرر يتطاير من عيونهم، ويحركون هراواتهم كأنهم ينتظرون الإذن بالهجوم عليه. كان بعض المسؤولين من إدارة السجون يقفون في زاوية الغرفة بجانب الطاولة الموجودة في وسط الغرفة قرب الجدار الأيمن عليها كؤوس وبراد حليب، أحد المسؤولين كان بلباس عادي، بدلة رسمية، ويلبس نظارات، عرفه من صورته في الصحف بأنه وزير الداخلية.

هل أحضروه ليفاوضوه على فك الإضراب؟ وأحضروا الجلادين ليزرعوا الخوف في قلبه؟ ما الذي يمكنهم فعله أكثر مما فعلوه براسم حلاوة؟ هل الشهادة بانتظاره؟!

قال له أحد السجانين:

- انظر أمامك كأس من الأرز والحليب، إن أكلتها وأنهيت إضرابك، أدخلناك إلى السجن دون عقاب، وإن رفضت سنحطم رأسك بهذه الهراوات.

بدأ بعض الحراس بتحريك هراواتهم استعدادا للهجوم.

قال لنفسه: إذًا يريدون فك إضرابنا السلمي بالقوة؟ إن كان لا يهمهم الإضراب لماذا يريدون إنهاءه بالقوة؟ لماذا يستخدمون العنف للرد على مطالبنا العادلة؟ يريدون تحطيمنا؟ كسر إرادتنا؟ إذًا جاؤوا بنا ليقتصوا منا؟ أرادوا أن يبدؤوا بي ليقولوا لزملائي: "انظروا لقد حطمنا قائدكم، فلن تستطيعوا الصمود". لا لن أمكّنهم من ذلك حتى لو قطّعوني، إنها ساعة الشهادة إذًا! ساعة المواجهة، إما أن ننتصر أو يشعرون بالسعادة بالانتصار علينا.

تقدم نحو الطاولة. كانت العيون كلها موجهة إليه. رفع الكأس بيده في حركة مدروسة. كان يعلم أنهم ينتظرون قراره بفارغ الصبر. كان وزير الداخلية يراقب محمد حسان بدقة، لا ترف له جفن، يريد أن يلاحظ كل

حركة يقوم بها، وكان مدير السجون يدقق في تعبيرات وجه محمد حسان ويده على قلبه، هل سيفعلها محمد حسان ويجرع ما في الكأس؟ نظر أبو حسان في الكأس وعيونه تراقب حركاتهم بشكل دائري، ثم فجأة رفع عينيه موجهًا بصره إلى وزير الداخلية، ومدير السجون، وقلب الكأس ليسقط ما بها على الأرض.

فورًا بحركة من عيني وزير الداخلية، انهال عليه السجانون بهراواتهم، يضربونه يمينًا وشمالاً حتى سقط على الأرض مضرجًا بدمائه.

بعد ذلك أحضروا يعقوب دواني، وعرضوا عليه الشيء نفسه فرفض، فاقترب منه الممرض السجان وأدخل الأنبوب في أنفه ودفعه بقوة شعر خلالها أن رأسه انفجرت، وصب الحليب في الأنبوب (المحقن)، وبعد انتهاء الكأس شتمه السجان، وعندما رد عليه بالطريقة نفسها، فعلوا به ما فعلوه بأبي حسان.

كانوا يفجرون حقدهم الأعمى بالأسرى العزل، وبعد عدة محاولات جاء دور خليل الصباح، قال له مدير السجن:

- أنصحك أن تفك إضرابك، فأصحابك فكوا إضرابهم.

رفض ذلك، لقد عرف حيلتهم، فطلب منه أحد السجانين خلع ملابسه فرفض، فضربوه، وقام أحدهم بفك أزرار بنطلونه وأجبره على خلعه، هكذا بان أمامهم عاريًا، فصاروا ينظرون إليه بسخرية، واقترب سجان

آخر بعد أن قيدوه وأدخل طرف البربيج في مؤخرة خليل ثم سحبه وقال له:

- الآن سأدخله في فمك لتشرب الحليب بطعم جديد.

ثم أدخل البربيج في فمه بالقوة.

شعر خليل أن معدته ستخرج، وأنه سيستفرغ ما في بطنه، ولكن لا يوجد شيء يخرج منه سوى بعض اللعاب والأحماض. لم يكن يستطيع الحركة، شعر بدوار في رأسه، وتمنى لو يستطيع قتلهم، ضربهم. ما هذه السادية في التعذيب، إنهم آخر من له الحق في التحدث عن العدالة والسلام في العالم، عليهم اللعنة.

سقط على الأرض مغشيًّا عليه. سحبوا البربيح من جسمه ونقلوه إلى العيادة.

بعد خليل جاء دور إسحاق مراغة الذي نزلت بعض قطرات الحليب في رئتيه فنقلوه على الفور إلى العيادة، كان في وضع صعب يرثى له؛ يسعل ولا يستطع الوقوف، كاد يختنق، فنقلوه إلى المستشفى. كانت حالته سيئة جدًّا، رأى الموت في عينيه، وتراءت له زوجته أم جمال وابنه جمال، واعتقد أن نهايته قد حانت: سألحق براسم حلاوة وعلي الجعفري، يريدوننا شهداء، نعمد أرض الوطن بدمائنا، ولدي جمال، حبيبي، لا تتنازل عن دمي ولا عن أرض الوطن، لتحمل الراية من بعدي.

كان الطبيب اليهودي يقف فوق رأسه في غرفة العمليات، قال له بجلافة:

- إسحاق مراغة، لا تخف، ستعيش، لن نقتلك، ببساطة لأننا لا نريد أن نصنع منك بطلاً قوميًّا.

بعد لحظات أغلق عينيه بعد أن حقنوه بالمخدر.

لم يبق أسير لم يتعرض للتنكيل، بعض الأسرى لم يستطيعوا المواجهة، فأنهوا إضرابهم، كان أحدهم عبد السلام الزريعي، قال لزملائه عندما أعادوه إلى الغرف:

- أنا أنهيت إضرابي، اعذروني، سامحوني، لم أستطع تحمل عصيهم وأنا منهك القوى أصلاً.

بعد أيام، ونتيجة صمود الأسرى واستمرارهم في إضرابهم المفتوح عن الطعام، كان مدير السجون يقول لوزير الداخلية:

- رغم كل ما فعلنا بهم، ورغم أنهم يموتون جوعًا، لم يستسلموا، ماذا نفعل؟

قال له وزير الداخلية:

- احضر دفعة جديدة منهم لسجن الرملة ،علينا تكسير عظامهم.

الدفعة الثانية ضمت عمر القاسم آخر عضو في قيادة لجنة الإضراب المركزية. في سجن الرملة، أدخلو عمر القاسم إلى غرفة التعذيب التي

دخلها رفاقه من قبلة، نظر إليه وزير الداخلية بحقد، وسأل مدير السجون:

- أهذا عمر القاسم الذي طالب به المخربون في العام 1974 في معلوت، وقال لهم نفّذوا ما جئتم به من أجله؟

- هو نفسه، أحد قياديي الإضراب.

كان عمر طويلاً بعض الشيء، بدأ الشيب يغزو رأسه، عريض المنكبين، ولكن الإضراب جعله ضعيفًا كأنه خسر ثلث وزنه. ابتسم إليه مدير السجون بسخرية وقال له:

- ألا تريدون إنهاء الإضراب؟

- لقد قدمنا لكم مطالبنا الإنسانية، فلم تردوا علينا بغير القمع والضرب.

- ما هي مطالبكم؟ أسرى حرب؟ أنتم مجموعة من المخربين.

- نحن لسنا مخربين، نحن جنود من أجل حرية شعبنا.

- حرية شعبكم؟ !شعبكم في الأردن، في مصر، في الدول العربية.

- فلسطين وطن الشعب الفلسطيني منذ كنعان حتى اليوم.

- اسمع، أنا أعرض عليكم فك الإضراب وإلا سوف تتعرضون لقمع لم تعرفوه من قبل.

- لم نتوقع منك غير ذلك.

حرك وزير الداخلية رأسه، فانهالت عليه العصي، وبعد أن سقط على الأرض توقفوا، حملوه وأجبروه على الوقوف ودمه يسيل على وجهه .سأله مدير السجون مرة أخرى:

- هل ستفك الإضراب؟

- لا ليس قبل الاستجابة لمطالبنا.

تقدم منه أحد الممرضين بلباس أخضر، وأدخل البربيج في أنفه، وبعد أن أوصله إلى المعدة، بدأ يحركه بطريقة تصيب الشخص بألم في الأنف والمعدة صب الحليب فيه.

نقل عمر القاسم إلى حيث بقية أسرى نفحة ليحدثهم بما حصل معه، ولكن حالهم كان سيئًا، فتبادل معهم تفاصيل ما حدث، فصمموا على مواصلة إضرابهم حتى النصر.

(12)

جلست رحاب وحدها في شقتها في قسم الطلبة في الجامعة. سرحت في فلاديمير، وتراءت لها تلك اللحظة التي استسلمت له فيها، كان يعبر عن حب كامن في داخله، وينتظر لحظة انفجاره. هل فعلاً يحبها كما قال لها؟ أم أنها لحظة انفعال عاطفي آني؟ هل تسرعت في الارتماء في أحضانه؟ لكنها بادلته الحب، قالت تخاطب نفسها: إنه شاب رائع، كله عنفوان، ورجولة، وسيم، نظراته ساحرة، يعاملني باحترام وليس بالأوامر كما يفعل صالح، ولكن صالح شاب فلسطيني من الوطن نفسه، عبر عن إعجابه بي، وطاردني أكثر مرة، إلا أني لم أشعر بميل نحوه، ربما لأنه غير وسيم، أو لأنه يحاول التحكم بحياتي واعتباري جارية له.

كان نشيطًا في اتحاد الطلبة، ولكنه يمارس التمييز بين الطلاب، فهذا يمين وهذا يسار، ولا يساعد إلا أنصار الحزب الذي ينتمي إليه، لكن فلاديمير عكسه تمامًا، لقد تصدر المسيرات الطلابية ضد الاحتلال، وهو يشارك في

كل المسيرات، يتضامن مع كل الشعوب المناضلة. ترى ماذا أقول لأمي؟ ماذا أقول لأبي؟ لقد عرض علي الزواج، أنا أعرف أنهم لن يوافقوا، سيشتمونني، سيطلبون مني العودة، ولكن لماذا يسمحون للشباب الزواج ممن يشاؤون؟ لماذا يضعون القيود علينا وحدنا؟ ما الذي لن يعجبهم بفلاديمير؟ إنه المتضامن الأول مع أسرانا، كثير من الطلاب أبناء الجالية العربية بما فيهم فلسطينيون لم يشاركوا في المظاهرات الاحتجاجية، فيما هو كان أول المشاركين، شقته مليئة بصور المناضلين من أجل الحرية، إنه الوحيد الذي حظي بإعجابي،... لا... لم أخطئ عندما ارتميت في حضنه، أنا لم أستسلم له، ولكنني بادلته الحب. فلاديمير، لن أتخلى عنك حتى لو غضب كل الناس مني.

لم تفاجأ رحاب عندما عرض عليها فلاديمير الزواج، فقد شعرت بصدق مشاعره تجاهها، ورأت فيه فارس أحلامها المفضل، إنه يشبه عليًّا في عنفوانه ونظرته للأمور، وهو مناضل من أجل الحرية، لا يتعصب لقومية أو حزب، إنساني النزعة، ثوري في كل شيء، يريدها ثورة على العنصرية، على الظلم، على الاضطهاد القومي، إنه يطبق المثل الذي تعلمته رحاب من والدها أكثر من مرة عندما كان يقول لها: يا ابنتي، لقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم): "كلكم لآدم وآدم من تراب". كانت سعيدة بسماع فلاديمير وهو يقول لها:

- رحاب، هل تقبلين بي زوجًا؟

ابتسمتْ، كادت تقبله في الكافيتيريا حيث كانا يجلسان. كانت تتمنى أن تقول له: نعم.. نعم.. ولكن هناك تقاليد وأصول عليها الالتزام بها. قالت له:

- طبعًا موافقة، ولك...

- دائمًا هناك لكن، متى تستطيع المرأة أن ترد بالإيجاب دون أن تضع كلمة لكن؟

- يجب إعلام الأهل بذلك حتى لا يشعروا أنني خرجت عن طوعهم.

- وهل سيرفضون؟

- يرفضون؟ لا...، ولكنهم قد يفاجئون، فالنساء في بلادنا لا يتزوجون من خارج الوطن، والأهم عندهم الدين، أن تكون مسلمًا.

- لعيونك سأكون مسلمًا.

ابتسمت، نظرت إليه، وعلى الفور تبادرت لها صورة علي عندما قال لها في آخر زيارة:

- رحاب، احذري أن يخدعك أحد، احذري أن تقعي ضحية لأحد الشباب، لقد منحناك ثقتنا فلا تخذلينا، أريد أن أسمع عنك أخبارًا سارة لتعودي إلى فلسطين فهي بحاجة لك.

- آه، ماذا سيقول علي عندما يعرف ما سأقدم عليه؟! كيف هو الآن؟ هل يحس بالجوع؟ هل يتألم الآن؟ ليتني أستطيع مساعدته. ماذا لو رفض علي؟ ماذا لو نصحني أن لا أقدم على الزواج من فلاديمير؟ هل أوافق؟ هل أنفذ ما أحلم به؟ لماذا لا أتزوجه دون علم أحد ثم أخبرهم؟ سيزعلون، ولكن بعد ذلك سيخضعون للأمر الواقع. لا.. لا، دعني أصارحهم أولاً، لكن الوقت غير مناسب، يجب انتظار انتهاء الإضراب، اللهم أنقذ عليًّا من براثن الاحتلال.

اقتربت هند الزماميري (أم خولة شاهين) وقالت لها:

- يا ابنتي، أراك تحملين هم الأسرى أكثر من زعماء فلسطين؟

نظرت إلها وقالت لها:

- أليسوا رمز الوطن والقضية؟

- صحيح، ولكنك لا ترتاحين، لم نعد نراك، اهدئي قليلاً.

نظرت إلى أمها، ابتسمت، دققت النظر كمن يريد أن يقول شيئًا. قالت أمها:

- مالك يا خولة؟ كأنك تريدين أن تقولي شيئًا؟

- كنت سأصارحك بشيء، ولكني...

صمتت.

- أكملي، ماذا تريدين أن تقولي؟

- لا أدري، هل ستوافقين أمي لو تقدم لخطبتي أحد الشباب وأنا وافقت هل ستوافقين؟

- طبعًا يا ابنتي لماذا لا نوافق؟!

- أقصد هل لديكم شروط، أم تكتفون بموافقتي؟

- مثل الناس يا ابنتي، نريده رجلاً يليق بك.

ابتسمت أمها فجأة ثم قالت:

- يبدو أن عينك على أحدهم؟ ها قولي، اعترفي من هو؟ أنا أمك وأعرفك.

- بصراحة هناك رجل يحبني، وأحبه، وأرجوك أن توافقي عليه؟

- ليس قبل أن أعرفه.

- إنه بطل من أبطال فلسطين، رمز القضية، سأنتظره حتى تخرجه.

- هو طالب إذًا، وكم سنة ستنتظرينه؟

- ربما سنة، وربما أكثر، أنا مستعدة لانتظاره العمر كله.

- أووف، أتحبين من وراء ظهري؟ من ذاك الطالب؟

- إنه ليس طالب علم، إنه طالب حرية!

- لا تثيري أعصابي بألغازك، من هو اعترفي؟

- إنه علي!

- علي؟! علي مَن؟

- علي النجار.

- علي النجار؟ الأسير؟ ابن أم سعيد؟

- نعم هو نفسه.

- تتزوجين أسيرًا محكومًا بالسجن المؤبد؟ كيف؟ كيف ستجتمعين به؟ هذا ليس زواجًا؟

تغير وجه خولة:

- لماذا يا أمي؟ لماذا؟ يكفي أنه ضحى بنفسه من أجل الوطن، ضحى بشبابه، كان على وشك الاستشهاد من أجلنا كلنا، فلماذا نستكثر عليه أن يتزوج خلف القضبان؟!

- معقول؟! ماذا لو لم...

- لا تكملي، لا، لا، لا تقولي تلك الكلمة، كلا، سوف يتحرر، السجن لن يغلق عليه، الثورة لن تترك أسراها، شعبنا لن يتنازل عن أبنائه.

صمتت ثم قالت:

- سأنتظره العمر كله، الذي ضحى بنفسه من أجل الوطن لن أبخل عليه بروحي، لي الفخر أن أكون زوجته، يكفي أن أحمل اسمه تاجًا على رأسي، لو رأيته يا أمي وهو يقف خلف القضبان، شامخًا كجبل الطور، باسمًا كوردة تفتحت مع شروق الشمس، يكاد أن يطير كطائر ينتقل من شجرة

إلى شجرة، يسلم على أهالي الأسرى، ويشد أزرهم، إنه يطالبهم بالصمود والصبر، مع أننا نحن الذين علينا أن نحثهم على ذلك.

- ألهذا إذًا كنت تزورينه؟

- ما العيب يا أمي؟ ألست أنا التي ستتزوج؟

- نعم أنت، ولكن... لا أدري، دعيني أحدّث أباك بالموضوع.

- أمي أرجوك، أقنعي أبي ولا تقفي في طريق سعادتي.

- هل ملك عليك قلبك؟!

- نعم، لقد أسرني يا أمي؟ إنه فارس أحلامي.

- أخاف أن...

- أمي لا تخافي، أحلام الثوار لا بد أن تتحقق.

صمتت خولة ثم قالت:

- يكفي أن تذكّرها يجلب السعادة إلى الإنسان.

- أنا خائفة؟

- مم؟

- خائفة عليك من المستقبل!

- ما دام علي معي، لن تخافي من شيء.

- لكنه ليس معك.

- إنه في قلبي في كل لحظة.

- وهل تعرف أم سعيد ذلك؟

- نعم.

- إذًا أنا آخر من يعلم؟

- لا ليس القصد يا أمي، لكنها تزور معي، أو أنا أزور معها، لذلك من الطبيعي أن تستمع حديثنا.

- ولماذا لم تفاتحني بالموضوع؟

- لأنها تريد أن تسمع رأيك ورأي والدي قبل ذلك، لقد فوجئت مثلك بالموضوع، وتخاف إن جاءت أن تسخري من طلبها، إنها مثلك تستغرب طلب ابنها، ولكنها كأم ما زالت تحلم بحريته.

- لا أدري ماذا أقول لك يا ابنتي، دعيني أحدث أباك بعد عودته من العمل اليوم وسأخبرك ماذا يقول، بل ربما يدعوك هو ليتحدث معك بالموضوع مباشرة.

- المهم أنت يا أمي، إن وافقتِ فوالدي سيسهل إقناعه.

- سأفكر بالموضوع، دعيني أفكر.

- أمي.. تذكّري أنه يدفع عنا ضريبة الوطن.

- الله يجيب ما فيه خير.

(13)

الحكومة الإسرائيلية تتضايق من الانتقادات الدولية الكثيرة خصوصًا، ونقل العشرات من المضربين إلى المستشفيات. إدارة السجون تقرر مفاوضة المضربين لتنفيذ بعض المطالب.

مدير سجن نفحة يستدعي مندوب لجنة الإضراب الجديد خليل أبو زياد الذي يحضره السجانون مكبلاً للاجتماع مع المدير.

يدخل خليل أبو زياد إلى المكتب، حيث يجلس المدير خلف مكتب عريض عليه بعض الأوراق وخلفه صورة بن غوريون أول رئيس لإسرائيل وعلم إسرائيل، وبعض الشعارات، إلى اليمين يجلس أحد المسؤولين من إدارة السجن، لم يعرفه خليل، ولم يعرف عن نفسه، وظل طوال الوقت صامتًا مستمعًا.

طلب المدير من خليل الجلوس. قال له:

– إلى متى ستستمرون في إضرابكم؟

- إلى أن تستجيبوا إلى مطالبنا العادلة.

- ولكنكم تعرفون أن الاعتراف بكم كأسرى حرب ليس في أيدينا، هذه مسألة سياسية، مهمة الحكومة، نحن لن نتعامل معكم كأسرى حرب، أنتم تنتحرون.

- لقد قدّمنا لكم مجموعة مطالب.

- اسمع خليل، اذهب إلى جماعتك وناقشهم بمطالبكم، نحن درسناها بتمعن وأرى أنه يمكن تنفيذ بعضها، ولكن لا أستطيع أن أنفذها الآن. إدارة السجون لن تنهزم أمامكم، أنا أعدكم بدراسة مطالبكم، واستمرار المفاوضات لتنفيذ الممكن منها بشرط أن تنهوا الإضراب.

عاد خليل أبو زياد إلى لجنة قيادة الإضراب الخلفية، وكان علي النجار على اطلاع بكل مفاوضاتها، كان القرار العام في اللجنة أن المطلوب الآن بعد مرور شهر على الإضراب، وتراجع الحالة الصحية للأسرى، البحث عن أفضل الطرق لإنهاء الإضراب بعد تحقيق ولو بعض المطالب الصغيرة، فإمكانية إعادة الكرة ممكنة في كل وقت.

استمرت المفاوضات المكوكية حتى توصل الطرفان إلى اتفاق:

أولاً: يتعهد مدير السجن بدراسة المطالب وتنفيذ الممكن منها فورًا.

ثانيًا: توافق إدارة السجن على زيادة مدة الخروج إلى الساحة فورًا والسماح إلى أسرى القسمين بالالتقاء.

ثالثًا: ينهي الأسرى إضرابهم عن الطعام مؤقتًا.

رابعًا: تتعهد إدارة السجن بإعادة الأسرى المنقولين إلى الرملة إلى أماكنهم.

انتهى الإضراب عن الطعام، ثلاثة وثلاثون يومًا. كل أسير خسر أكثر نصف وزنه. كان مطلبهم أن يكون الغذاء في اليومين التاليين الشوربة فقط لأنهم حسب خبرتهم سيصابون بالإمساك الشديد إذا عادوا إلى الغذاء العادي على الفور، وعلى الرغم من جوعهم الطويل، ولكنهم لم يستطيعوا الأكل كما في السابق، فالمعدة تقلصت.

شعر علي كغيره بتحسن، آلام الرأس اختفت، بدأ يستعيد عافيته.

إدارة السجن في الرملة تبلغ الأسرى المنقولين أن الإضراب قد انتهى، ولكنهم لم يصدقوا حتى استمعوا إلى الراديو، وسمعوا إذاعة فلسطين تنقل الخبر الذي وصلها عن طريق الصليب الأحمر.

كل الأسرى يوقفون إضرابهم، ولكن سجن نفحة ما زال يلملم جراحه، الأسرى يقررون إطلاق اسم علي الجعفري على القسم الأول من السجن، وراسم حلاوة على القسم الثاني.

الأسرى المنقولون يعودون إلى السجن، الابتسامة غائبة عن وجوه الجميع.

أهالي الأسرى يعودون إلى بيوتهم بعد أن أنهوا إضرابهم متوتري الأعصاب ينتظرون أول زيارة لهم لرؤية أبنائهم.

خولة تتفق مع أم سعيد ووالده على زيارته. سعيد يسجل اسمه مع أحد الأسرى الذين لا أهل لهم في الداخل هو خالد ياسين، بانتظار يوم الجمعة.

كان أبو خولة قد حاول إقناعها بالعدول عن قرارها لأنه قرار متسرع غير مدروس مشحون بالعواطف الوطنية:

- يا ابنتي، نحن نقدر دور الأسرى وكفاحهم، ولكن عليك أن تكوني واقعية.

- أنا واقعية جدًّا، وعلي سيتحرر قريبًا، والله العظيم سيتحرر.

- لا إله إلا الله، ماذا لو لم يتحرر؟! هل ستبقين بانتظاره؟

- يكفي أن أزرع الأمل في قلبه.

- يا لكلام الشعراء، وماذا بعد عمر طويل لو متنا؟ من سيقف معك؟

- لا تيأس يا والدي، فالمناضلون موجودون والثورة مستمرة.

- أخاف عليك من حماسك الزائد.

- والدي أرجوك حقق لي أمنيتي.

- زواج من خلف القضبان؟!

- سندمر القضبان، وسنبني الوطن معًا، ونخلف الأولاد، وستراهم يركضون أمامك.

- اللهم اسمع منها.

صمتت فجأة، ثم قال لزوجته:

- ماذا تقولين يا هند؟

- أنا خائفة مثلك، ولكن ما دامت راضية ومقتنعة، وهي ليست مراهقة، فها هي صحافية قدّ الدنيا، فلا أعترض، ولكن على أهله أن يتقدموا لخطبتها رسميًّا، ويقوموا بالواجب.

فقال أبوها:

- على بركة الله، أرجو أن لا تندمي على قرارك.

فرحت خولة لموافقة والدها، ونامت ليلتها تحلم ببذلة العرس، وعلي بجانبها.

استيقظ علي صباحًا وقلبه يخفق، كانت أذنه ترن كأن جرسًا يدق بجانبها، وضع أصبعه فيها، حركها، لكن استمر الطنين، قال لنفسه:

- ما هذا الذي أحس به؟!

انتبه إليه عبد العزيز الذي استيقظ على حركته وسأله:

- ما بك يا علي؟

- أذني كأن بها جرسًا.

- هذا دليل خير.

- خير؟ كيف؟

- هذا يعني أن أحدًا يتحدث عنك الآن، يبدو أن خبرًا مفرحًا في الطريق إليك.

ابتسم علي وقال له:

- هل أنت مفسر الأحلام؟

- هذا ما كنت أسمعه من جدتي.

- جدتك؟ وهل تصدق هذه الخرافات؟

- وهل عندك تفسير آخر؟

- لا، ولكن ربما أحتاج إلى دكتور؟

- لا تقلق، انتظر وسترى.

- حسنًا، سأسمع كلامك، والآن لنهب استعدادًا للعد.

صوت السجان في القسم يصرخ: "سفيراه" عدد بالعبرية.

(14)

كانت خولة ومن معها في الفوج الأول ومعها أهالي ستة أسرى آخرين. بعد تفتيش الجميع سُمح لهم بالدخول، كانت قلوبهم تخفق لرؤية أحبائهم بعد إضراب استمر أكثر من شهر كانوا خلالها بين الحياة والموت.

حاولت خولة أن تسبق الجميع، ولكن بعض الأمهات سبقنها، ولم تستطع تجاوزهن، فسنّها لا يسمح لها تجاوز الكبيرات، هكذا تربّت، ولكن عيونها كانت تراقب من بعيد كل الجدران والقضبان، وما أن استدارت إلى شبابيك الزيارة حتى دققت في كل وجوه الجالسين؛ هذا هو هناك، رفع علي يده مبتسمًا:

- خولة، أمي أنا هنا.

لوح لها، كان قلبه يخفق كأنه لم يرها منذ سنة، بل منذ عقد كامل. من يدري ربما منذ جيل كامل، ففي تلك الفترة خاضوا معركة طويلة ضد

إدارة السجون سلاحها الأمعاء، والجوع، كانوا أقرب إلى الموت منها إلى الحياة، في لحظات القمع الشديدة كان يعتقد أن نهايته قد اقتربت.

تقدمت خولة بسرعة، دفعت أصابعها إلى الشبك فلامست أصابعه، نظرت إليه بشوق، نادته:

- علي! بحبك، بحبك.

كلمة يحلم أن يسمعها كل يوم لتدغدغ مشاعره، وعواطفه.

تقدم بسرعة نحو الشبك، كأنه يناديها لتستجيب لقبلته. قدمت رأسها قبل وصول الآخرين. كانت شفاهه تطبع أول قبلة على شفاهها، قبلة امتزجت بطعم الحديد والقيد، ومعاناة السجن، هل هي قبلة؟ أم نصف قبلة؟ أيًا كانت، فلها طعم خاص لدى علي، طعم لا يعرفه إلا العاشقون خلف القضبان.

وصلت أمه وأبوه وأخوه، نادته أمه:

- علي حبيبي، ماذا جرى لك، لقد فقدت نصف وزنك، هل أنت بخير؟

اقترب والده يسلم عليه بأصابعه. قال له سعيد وقد ذرف دموعه على خدوده:

- إن شاء الله تكون آخر معاناتكم وتتحررون قريبًا من الأسر.

بكت أمه، ولحقها والده، لم تبك خولة على الرغم من أنها كانت حزينة لشكله الذي تغير، يبدو أن صحته قد ساءت، فالإضراب ليس سهلاً، إنه

سلاح دو حدين، فالذين ظلوا أحياء سيصابون بأمراض، منها ما هو مزمن ومنها ما يحتاج إلى علاج طويل.

نظر إليهم علي الذي كان سعيدًا برؤيتهم، حاول أن يحبس دموعه، ولكنها غلبته.

- أمي، أبي، يا جماعة، ما هذا البكاء؟ أنا بخير وبصحة جيدة، وقد عدت لممارسة الرياضة.

خولة، قولي شيئًا، سعيد أنت أكثرهم إدراكًا لطبيعة الصراع، فقال له سعيد:

- إنها دموع الفرح برؤيتك، هل تعتقد أنك قليل لدينا؟ أنت كل حياتنا.

ثم استدار لخالد ياسين الذي يجلس بجانب علي وقال له:

- أنتم عنفوان الوطن، لم نتوقف يومًا واحدًا عن الاعتصام والتظاهر تضامنا معكم، كل فلسطين من النهر للبحر انتفضت لكم.

فرد عليه علي:

- خجلتنا يا سعيد؟ البركة فيك أنت أخي الكبير.

- لا أحد يعلو عليك يا علي، أنا أكبر منك سنًّا، لكنك أكبرنا ثقافة، ووطنية، وصمودًا، نحن لا نتعلم إلا منك، أنت أستاذنا، عميدنا، أنت الوجه الأكثر إشراقًا في آل النجار.

فقالت له أمه:

- لدينا خبر يفرحك.

- وما هو يا أمي؟

- لقد وافق أهل خولة على أن نتقدم لخطبتها لك.

- صحيح؟

زادت دقات قلبه، نسي نفسه أنه في السجن، قال له خالد ياسين:

- مبارك يا علي مبارك.

- اخفض صوتك إلى أن يصبح الأمر رسميًّا.

بصوت عال يسمعه كل الزوار قال خالد:

- يا شباب، علي النجار خطب خولة شاهين.

- مبارك، مبارك.

كل الزوار، والأسرى في الفوج باركوا له.

قال علي لسعيد:

- سعيد، سأعتمد عليك.

- علي، لا تقلق، لن نحضر المرة القادمة إلا ومعنا أبوها وأمها والمأذون.

كانت خولة تنظر إليه، إلى الشوق المتطاير في عينيه لولا تلك القيود، لولا تلك القضبان لهجمت عليه تعانقه، إنه فارس أحلامها، من يجرؤ أن يسجن فرسان الأحلام؟ لا لن يقتلوا الأمل في قلبي.

قطع علي لحظات الصمت مرة أخرى:

- كيف حال أختي فادية؟ كيف رحاب؟ وكيف فريد؟

- كلهم يسلمون عليك، كل الأصدقاء والشباب، إن شاء الله قريبًا ستزورك فادية وزوجها.

السجان ينظر إلى ساعته. كلما نظر هذا السجان اللعين إلى ساعته، تغير وجه خولة، إنه على وشك إعلان انتهاء الزيارة كأنه يطعنها في قلبها! إنه مجرم لا قلب له. نصف ساعة؟ بعد حرمان طويل!

قالت خولة:

- ماذا حصل معكم؟

- يا خولة، لقد تعرضنا لأبشع حملة تنكيل، لقد فقدنا شهيدين وكاد ثالث عندنا أن يموت، وعلى الرغم من ذلك فهو ما زال مريضًا. ضربونا بوجود وزير الداخلية لنعلن انتهاء الإضراب. نقلوا قسمًا إلى سجن الرملة، وهناك هجموا عليهم الكلاب بالهراوات أمام أعين وزير الداخلية ومدير السجون، وموافقتهما، ماذا أحدثكم بهذه الزيارة؟ المهم أن معركتنا لم تنته، لقد وعدوا بتنفيذ بعض مطالبنا مقابل أن نفك الإضراب. لقد قبلنا الوعد، نعرف أنهم قد يتراجعون، ولكننا جاهزون لمواصلة الإضراب. قبل يومين في آخر اجتماع مع لجنة قيادة السجن من الأسرى وعدوا بالتنفيذ الفوري للأسرّة والفرشات، ونأمل أن تنفذ بقية مطالبنا العادلة.

قالت أمه:

- الله يحميكم جميعًا، ويشتت شمل أعدائكم يا رب.

فقال سعيد:

- يعني هذا أسوأ مكان للزيارة، كأننا في شارع وليس في غرفة زيارة.

السجان يعلن انتهاء الزيارة.

قال علي:

- إن شاء الله سأحدثكم في مرة قادمة.

سلموا عليه واحدًا، واحدًا، وعلى خالد ياسين الذي لا يزوره أحد إلا نادرًا وخصوصًا إذا جاء أحد لزيارة أحد الأسرى وكان زائدًا عن العدد.

قال لأمه وأبيه:

- أرجو منكم في كل مرة أن تطلبوا خالد ياسين، فليس له أهل هنا، كلهم في مخيم البداوي في شمال لبنان، لا تتركوه وحيدًا، إنه أخي.

- تكرم عينك، وعين خالد ياسين.

قالت أم سعيد:

- سنضعه في عيوننا.

فرد عليها بسرعة خالد ياسين:

- الله يخليك يا حاجة ويطول عمرك، لا تخافوا، علي في عيوننا، وهو ليس وحيدًا هنا، كلنا أهله وإخوته.

فقال والده:

- تسلموا لنا جميعًا.

قال سعيد قبل أن يبتعدوا عن الأنظار:

- أنت المثل الأعلى لنا، لا نريد أن نسمع عنكم إلا الأخبار الحسنة.

ودعهم خالد ياسين وأدار ظهره تاركًا الثواني الأخيرة لعلي يودع خولة، اقتربت منه، شبكت أصابعها مع أصابعه، أحست بكل حرارة الشوق التي في قلبه، كأنها قرأت كل ما يجول بخاطره، فهمت عليه، دققت النظر في عينيه ثم قالت:

- علي، لن ينالوا من حبنا مهما فعلوا.

استراح لكلامها، قال لها:

- خولة، ابعثي لي صورة لك، أريد أن أعلقها بجانبي لتمنحني الأمل كل يوم.

ابتسمت، هزت رأسها قائلة:

- وسأرسلها اليوم.

- بحبك، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

أرسلت إليه قبلة عبر الهواء، واستدارت لتلحق بأهل علي، أهل علي؟ لقد أصبحوا أهلها، لم تعد غريبة عنهم، إنها تشعر أنها زوجة علي إلى الأبد.

في الطريق إلى خارج السجن كان الزوار يباركون لها، قال أحدهم:

- أنت شجاعة في قرارك، أتمنى لو كانت لي ابنة مثلك.

قال لها سعيد:

- بلغي أباك أننا سنزوره بعد أسبوع...

قاطعه أبوه:

- يا سعيد، الواجب أن نتصل به نحن، لا أن ترسل معها موعدنا، سأتصل به مساء اليوم بعد وصولنا البيت بالسلامة، ابنتي يا خولة أعرف أنك اخترت التضحية من أجل علي، وأعلم أنك سوف تعانين في سبيله الأهوال والمشقات، اللهم يفرج عنهم ويسعدكما، ويرزقكما المال والبنين.

فأكملت أم سعيد:

- إن شاء الله يكون احتفالنا أكبر بعد أن يتحرروا من الأسر هو وكل رفاقه.

علق سعيد:

- سنحتفل بعقد قرانها في السجن، بين القضبان، سيكون الاحتفال الأول من نوعه.

سألت خولة سعيد:

- هل تعتقد أنه يمكن أن يسمحوا لنا بعقد القران بدون قضبان؟ هل نجرب عن طريق محام؟ ماذا سنخسر؟

- سأحاول، غدًا سأتصل بالمحامي عبد عسلي وأسأله.

كان أول من اتصل بأم سعيد ابنها فريد، كان فرحًا لسماع الخبر، سأل أمه بلهفة:

- أمي، كيف كان علي؟ هل أثّر الإضراب على صحته؟ هل هو بخير؟ هل حققوا النصر؟

لم تدر أم سعيد ماذا تقول، فقد تكاثرت الأسئلة، ولم تعد تتذكرها كلها، قالت له:

- علي بخير ويهديك السلام، الحمد لله، لكن وزنه نقص كثيرًا، لقد كان نصف إنسان، المهم أن معنوياته عالية...

قاطعها:

- الكلاب تركوهم يجوعون أكثر من شهر.

- يا بني، لا تشتمهم فقد يسمعونك على الهاتف، ويعطلون سفرك عندما تأتي للزيارة.

- إنهم يحاولون تعطيلها هنا، فكلما ذهبت إلى القنصلية الإسرائيلية لأجدد الفيزا يطلبون منا أوراقًا كثيرة تعجيزية قبل أن يختموها لمدة سنة. سبحان الله، نحن أبناء الوطن يسمح لنا بالعودة خلال سنة وإلا فقدنا حقنا في وطننا، المهم طمئنيني ماذا يقول عن الإضراب؟

- الله يساعدهم، تعرضوا للقمع والتعذيب خلال الإضراب.

- ألا يكفيهم جوعهم وعذابهم حتى يضربونهم؟! أي بشر هؤلاء؟ لا أدري كيف يهاجمون النازية، وهم يمارسون ممارساتها نفسها؟!

- المهم أنت، كيف دراستك؟

- أنا بخير يا أمي، بخير، ممتاز، سوف أتخرج قريبًا، وسأهدي نجاحي إلى علي.

- ما أخبار رحاب؟ هل تتصل بك؟ أو تراسلك؟

- أخبار رحاب لن تسرك.

- لن تسرني؟! ماذا جرى؟!

سمعها أبو سعيد، فهب عن مقعده واقترب منها يسمع ماذا يقول فريد.

قال لها فريد:

- لقد اتصلت بي قبل فترة بسيطة، وطلبت مني أن أخبركم بخبر قالت إنكم قد تعترضون عليه.

- ما هو، لقد أزعجتني؟

- سوف تتزوج.

- تتزوج دون علمنا؟ مَن؟

- لا ليس دون علمكم، ولكنها لن تتزوج فلسطيني.

- هل هو مصري؟ أم سوري؟ لا بأس، كلهم أهلنا؟

- يا ليت يا أمي.

- يا فريد، أعصابي لم تعد تتحمل.

- هل أبي عندك؟

- نعم، وهو يسمعك معي.

- كيف حالك يا والدي؟ مبارك انتهاء الإضراب وزيارتكم علي.

مسك أبو سعيد السماعة، ثم قال لفريد مقاطعًا:

- فريد، لقد أشغلتني بكلامك؟ ماذا حصل مع رحاب؟ اعترف ولا تنكر.

- يا والدي... ماذا أقول لك؟

صمت لحظة ثم قال:

- اتصلت بي قبل فترة، وسألتني: فريد، ما رأيك بالزواج من أجانب؟ فقلت لها أنا شخصيًّا لا أحبذ ذلك، ولكن الشرع يحلله للرجال ويحرمه على النساء إلا إذا كان مسلمًا.

فقالت لي: لماذا يحرمه على النساء؟ وهل أنتم على رأسكم ريشة؟ ضحكت وقلت لها: هات ما عندك؟ سؤالك وراؤه خبر. فقالت لي إنها أحبت شابًّا روسيًّا كان يشارك في المسيرات تضامنا مع الأسرى، وأن هذا الشاب طلبها للزواج وهي موافقة وتريد موافقتكما.

- تتزوج روسيًّا؟ هذه آخرتها. هل هو مسلم؟

- لا يا والدي، ليس مسلمًا.

- هذا مخالف للشرع، فماذا قلت لها؟

- اعترضتُ طبعًا، ولكن ليس من منطلق ديني، ولكن من منطلق ثقافي، فأنا أعتقد أنها ستختلف معه لاحقًا، الثقافة، العادات، اللغة، ...

قاطعه أبوه:

- الحيوانة لم تبلغني، تحب روسيًّا ونحن هنا نعتقد أنها تدرس!

- لقد طلبت مني أن أقنعكم، وقد فهمت من كلامها أنها ماضية في عزمها على الزواج منه.

- دون موافقتنا؟! لعنها الله، اتركني الآن لأتصل بها، سأمسح بها الأرض، هل هذه نهاية تربيتي لها؟ ماذا أقول للناس؟

أغلق أبو سعيد الخط غاضبًا، وقال لأم سعيد:

- أرأيت؟! قلت لك لا نريدها أن تتعلم في روسيا فقلت لي: لا تخف، هذه ابنتي بعشرة رجال، عشرة رجال؟! إنها تريد أن تجعلنا مضغة في أفواه الناس، أخت علي النجار تتزوج روسيًّا! ألم تر إلا الروس. طبعًا خدعها بكلامه المعسول فانقادت إليه. أنتم النساء تطيشون على شبر ماء.

- لماذا الغضب يا أبا سعيد؟ دعنا نتصل بها ونسألها، مَن يدرِ ربما نقنعها بالعدول عن قرارها؟

- العدول عن قرارها؟ ألم تسمعي فريد ماذا قال؛ إنها عازمة على الزواج. أخاف يا أم سعيد أن تكون قد عاشرته كعادتهم في بلاد الأجانب، ومن

يدري ربما تكون قد حملت منه، يا فضيحتك يا أبا سعيد!! أنا أبو علي النجار، البطل الأسير الذي يفتخر الناس بابني يحصل لي هكذا؟! ماذا سنقول لعليّ؟ ماذا سنقول لسعيد؟!

ذهبت أم سعيد، حملت سماعة التلفون واتصلت برقم رحاب في منزل الطلبة في روسيا:

- ألو، رحاب النجار.

ردت عليها امرأة بالروسية، فلم تفهم منها شيئًا، فأعادت عليها السؤال نفسه:

- أنا أريد التحدث مع رحاب النجار، أنا أمها، أنا ماما لرحاب.

لم يرد أحد، بعد لحظة رفع السماعة في الجهة الأخرى طالبة يبدو أنها سورية من لهجتها، سألتها أم سعيد:

- أريد التحدث مع الطالبة رحاب النجار.

فقالت لها:

- رحاب غير موجودة، هل أنت أمها؟!

- نعم أنا أمها، هل تعرفينها؟

- طبعًا فنحن معًا في الغرفة نفسها.

- أرجو أن تخبريها أننا اتصلنا بها من القدس، سنعيد الاتصال بعد ساعتين، ما الساعة عندكم الآن؟

- الساعة السابعة مساءً.

- ولم تأخرت؟

- لا أدري يا خالتي، ربما مشغولة في الجامعة أو مع...

- مع من؟ لماذا لم تكملي؟

- ربما مع فلاديمير.

- فلاديمير؟ ومن فلاديمير هذا؟

- إنه طالب روسي من كلية الهندسة، ومن اتحاد الطلبة الروس. إنه نشيط يشارك في كل النشاطات الفلسطينية تضامنًا مع الشعب الفلسطيني.

- وماذا تفعل معه؟

- أفضل أن تسأليها أنت يا خالتي.

- شكرًا لك، ما اسمك؟ هل أنت سورية؟

- أنا هدى من حلب.

- تشرفنا فيك وبحلب الشهباء، سلمي على رحاب.

- مع السلامة.

ضرب أبو سعيد يدًا بيد لا يعرف ماذا يقول.

بعد فترة بدأ يحدث نفسه: آخرتها رحاب تتزوج روسي، وأنا سأكون جدًّا لأولاد روس، يا فرحة إسرائيل، ستتخلص من مواطنة فلسطينية ومن أولادها.

- يا أبا سعيد، لا تحرق أعصابك، وانتظر حتى نحكي معها، لا تنس أنك وعدت خولة أن تتصل بأبيها.

- صحيح، أخاف أن تشغلني رحاب عن علي؟ دعيني أتصل به الآن، أعطني رقم بيتهم.

بحثت في الدفتر الصغير الموجود بجانب الهاتف، وقالت له:

- تفضل هذا هو الرقم.

اتصل أبو سعيد ببيت السيد نبيل شاهين. حاول أن يهدئ من مخاوفه قبل الحديث معه حتى لا يكون صوته حادًّا، فجأة ردت عليه هند الزماميري، أم خولة:

- ألو.. السلام عليكم، من المتكلم؟

- وعليكم السلام، أنا محمود النجار (أبو سعيد)، أود التحدث مع السيد نبيل لو سمحت؟

- أهلاً، أهلا، تكرم عينك، ما أخبار علي والأسرى؟

- الحمد لله لقد أنهوا إضرابهم على وعد بتحسين شروط الأسر.

- عقبى للتحرر إن شاء الله، لحظة من فضلك.

بعد ثوان كان نبيل على الخط:

- ألو أبا سعيد.

- أهلاً، أبا عدنان، سعيد أن أسمع صوتك، لقد سمعت عنك الكثير، وآن الأوان أن أتعرف إليك.

- أنا أكثر شوقًا للقائك لأطمئن على أبنائنا الأسرى، طمئني كيف علي؟

- بخير، يهديك السلام، معنوياتهم عالية، إنهم أكثر تفاؤلاً منا، أخي أبا عدنان نود زيارتك يوم الأربعاء القادم مساء، هل تسمحون لنا؟

- ولو البيت بيتك في كل وقت، سنكون بانتظارك ومعي كل العائلة، إنها فرصة لنسمع أخبار أسرانا منك مباشرة.

- إذًا على بركة الله.

(15)

في كافيتيريا الجامعة كانت رحاب تجلس مع فلاديمير، وبعد انتهاء الدوام غادرت معه إلى بيت الطلبة، لم تعد تأبه بكلام الطالبات وتعليقاتهم، فعلاقتها به أصبحت علنية، إنها في طريقها للزواج منه. كان بعض الطلاب الفلسطينيين يثيرون عنها الحكايات ويتهمونها بخيانة مبادئ أخيها الأسير، أما صالح الذي كان يحلم بعلاقة متميزة معها، فقد قال لها ذات يوم:

- ما الذي يعجبك فيه؟

- إنه شاب لطيف، شخصيته قوية، مساند للحرية وتحرر الشعوب. إنه ثوري.

- ثوري! وهل نحن رجعيون؟

- لا، لا يعني إن كان ثوريًا أن غيره رجعيّ، لكن الفتاة تحب رجلاً واحدًا لا رجلين.

- لكنه غير فلسطيني، ولا حتى عربي.

- ما المانع؟ أليس إنسانًا، بشرًا، له قلب وأحاسيس ومشاعر؟! لعله يساند قضايانا أكثر من بعض الزعماء العرب، أليس كذلك؟!

- صحيح، لكن هذا غير كاف.

- وما المطلوب؟

- رحاب لا تنسي بأنه غير مسلم.

- لكنه غير متعصب لدين، كل منا له حرية اختيار دينه.

- ماذا عن الأولاد؟

- عندما يكبرون سيختارون ما يشاؤون.

- هل أنت جادة فيما تقولين؟ ألن تعلميهم أركان دينهم وهم أطفال؟ ألن تأخذيهم إلى الجامع؟ ألن تصومي معهم شهر رمضان؟

صمتت لثوان ثم قالت:

- لا أعتقد أنه سيمانع.

- ماذا لو أخذهم إلى الكنيسة.

- فلاديمير شيوعي لا يذهب إلى الكنيسة، ثم ماذا عن الشباب العرب الذين يتزوجون روسيات؟ لماذا لا تنصحهم أن يتزوجوا من بنات بلدنا بدل تركهم عوانس هناك؟ لا أعتقد أنك تجهل أن كل عربي هنا في

الجامعة وكل مسلم له صديقة روسية، أو أوكرانية... الخ من طالبات الجامعة، هل تنكر؟

- ليس كلهم...

- بسيطة، 90٪ منهم.

- معنى ذلك أنك مصممة على رأيك؟

- إنه يحبني بإخلاص.

- وأنت؟

- أبادله الحب، هل هذا ما تريد سماعه؟

- كنت...

صمت.

- أكمل يا صالح، لماذا سكت؟

- لا أدري إن كان كلامي سيعني لك شيئًا الآن، لكن كنت أحلم أن أكون فارس أحلامك، ليس فلاديمير وحده يحبك، هناك من يحبك أكثر منه، لكنه لم يثر انتباهك.

- صالح، أنت شاب طموح ولطيف، ولكن الحياة قسمة ونصيب. بالتأكيد ستجد من تحبك وتحبها، لا تنظر إلى الموضع بحساسية.

في الطريق إلى البيت كانت رحاب تسير بجانب فلاديمير تفكر بمستقبلها الذي ينتظرها، لقد قررت ربط مصيرها بمصيره، هذا يعني العيش نهائيًّا في روسيا، لن تعود إلى فلسطين إلا للزيارة.

ماذا لو أصر أبوها على عودتها؟! ماذا لو جاء إلى هنا يبحث عنها، أتواجهه أم تهرب منه؟ ولماذا تهرب منه؟ لم ترتكب جريمة، إنها ستتزوج من فلاديمير، أليس أفضل من الطالبات اللواتي يتمتعن مع الطلاب العرب وغير العرب ثم يعدن إلى بلادهن ينتظرن فرسان أحلامهن دون أن يحدثن أحدًا عن مغامراتهن؟!

اقترب منها فلاديمير، مسك يدها، وسار بخطوات بطيئة كأنه يتنزه على شاطئ بحيرة يملؤه البط، ويحد من سرعة مشيته.

قال لها قاطعًا حبل تفكيرها:

- رحاب، متى سنعلن زواجنا؟

- قريبًا، لقد انتهى الإضراب عن الطعام الذي يخوضه الأسرى، وأصبح الحديث مع الأهل فرصة مناسبة، لقد حدثت أخي فريد في بريطانيا، وطلبت منه أن يجس نبضهم.

- ماذا كان رأيه؟

- غير موافق.

- لماذا؟

- للأسباب نفسها التي أتوقع أن يرفض أهلي بسببها الزواج؛ اختلاف الثقافة والدين، لكن لو كانت رحاب رجلاً لما قال أحد شيئًا، فالرجال في بلادنا يتزوجون إنكليزية، وروسية، وهنغارية، وحتى يهودية.

- لا أفهم سبب هذا التصرف، هل هو عنصرية؟

- لا، لا أسميها كذلك، لكنهم يعدون الرجل يحمل ثقافة الوطن، إذا تزوج سيتبعه أولاده، والمرأة إن تزوجت غالبًا ما تتبع زوجها، وهذا حال أولادها.

- ولكن بعض الفلسطينيين تزوجوا روسيات، وأخذوهن إلى بلادكم، وأولادهن سيصبحون فلسطينيين، فلم نمنعهم، أتأخذون نساءنا وتحرمون علينا امرأة واحدة أحببتها؟

نظرت إليه وقالت:

- لهذا كله، صممت أن أبقى معك، سأقنعهم، إذا لم يقتنعوا سأقاومهم.

- لا أريد أن أكون سببًا في قطيعتك عن أهلك.

- لا، أنت لست سببًا في قطيعة، إنها أفكارهم.

- عندي فكرة قد تسهّل عليك الموضوع.

- ما هي؟

- قولي لهم إنني مسلم.

- ولكنك...

قاطعها:

- بسيطة، سأعلن إسلامي، لا فرق عندي أن يقال إني مسلم أو مسيحي، فأنا لا أمارس أية طقوس أو عبادات. الطلاب المسلمون في بلادنا القادمون من الدول العربية معظمهم لا يقيمون أية شعائر، وأراهم دائمًا يملأون النوادي الليلية مع الفتيات، ويشربون الخمر مع أن ذلك محرم في دينكم، ويقولون: إننا مسلمون.

- صحيح، ألاحظ ذلك كل يوم، الإسلام ليس فقط دين عبادات لدى المسلمين، إنه انتماء لشعب، لثقافة، لعادات، يمكن أن تسميه انتماءً حضاريًّا أكثر منه إقامة شعائر.

- المهم، أرجو أن يسهل ذلك عليك مهمتك.

- بالتأكيد ستكون أسهل، ستكون حجتي أقوى.

- ومتى ستتحدثين معهم؟

- بعد أن أسمع ردهم على فريد، على كل حال لا بد أن أتصل بهم لأسمع أخبار الأسرى، لا بد أنهم زاروا عليًّا اليوم، يقينًا لو أن عليًّا خارج الأسر لسهل الأمر، لا أعتقد أنه سيرفض، المناضلون من أجل الحرية سوف يتفهمون الأمر.

- هل تعتقدين ذلك؟

- لم لا؟

- لكن المناضلين من أجل الحرية أيضًا يتصارعون حتى في ساحات النضال، وأحيانًا يتعادون، ويتقاتلون!

- ليس علي من هذا النوع، إنه أسير محبوب من رفاقه وزملائه، دائمًا يناقشهم، ويستمع لهم، وإن اختلف عنهم أو اختلفوا عنه فإنه يحترم آراءهم.

- كم أنا متشوق لرؤيته.

- إن شاء الله سيتحرر، ويلتقي بك. سيكون فخورًا أن يلتقي بمن كان يتصدر المسيرات تضامنًا معه، ومع الأسرى الفلسطينيين، وسيكون فخورًا أن يعانقك ليشكرك على خطاباتك في الطلبة الروس، وحضهم على التضامن مع الفلسطينيين في وجه الهمجية الصهيونية.

قاطعها قائلاً:

- التي تعد الوجه الآخر للنازية، رحاب، هل تمانعين أن نسمي ابننا الأول عليًّا؟

فوجئت بكلامه، ابتسمت، ثم سألته:

- هل أنت جاد فيما تقول؟

طبعًا، لماذا لا أكون جادًّا؟! إن كنت قد أحببت رحاب، فهل من الغريب أن أسمي ابننا عليًّا؟! إنه مناضل من أجل الحرية، إنه رمز للإنسانية المعذبة.

- أنا سعيدة بذلك، هل تعرف أن عليًّا اسم آخر الخلفاء الراشدين لدينا، الخلفاء الذين يعدهم المسلمون الأفضل في الحكم، والتقوى، إنه علي بن أبي طالب، ابن عم الرسول عليه الصلاة والسلام، اشتهر بوقوفه مع الفقراء، والصدق والأمانة.

- إذًا نكون قد ضربنا عصفورين بحجر واحد، لم أعرف أن اسم علي لديكم له هذه المكانة القدسية.

- ماذا لو كانت بنتًا؟

صمت فلاديمير ثم قال:

- ما رأيك أن نسميها (كاترينا)؟

- كاترينا؟! اسم جميل.

وصلا بيت الطالبات، وحان موعد افتراقهما، قال لها:

- كنت أحب أن يكون الطريق أطول، لكني مضطر لكي أودعك، سأراك غدًا. سأكون بانتظارك في الموعد نفسه.

تعانقا قبل أن يفترقا، قبلها بحرارة فيما كانت إحدى صديقاتها تراقب الحدث من نافذة غرفتها، نادت زميلاتها في الغرفة وقالت لهن:

- انظرن، رحاب وفلاديمير!!

قالت إحداهن:

- يا عيني، يا عيني، ما هذا الغرام؟! قيس وليلى، أم روميو وجولييت؟!

فعلقت الثالثة:

- إنها ليلى مع روميو.

فقالت الأولى:

- هذه ليست ليلى، ولا بطهارة ليلى، إنها رحاب، أخوها يتعذب خلف القضبان فيما هي على حل شعرها.

- لا أدري ما الذي أعجبه فيها؟

- الأولى: الحب أعمى.

- الثالثة: عمى بعينيها، كل الطلاب يحكون عنها، لقد أساءت لنا بعلاقتها مع عشيقها.

- الثانية: ما رأيكن أن نبلغ أهلها؟

- الأولى: أهلها؟ وماذا سيفعلون؟ سيقولون لك: ابنتنا أشرف منك، وأنت كذابة.

- الثالثة: ما لنا ولها، هنيئًا لها ولفلاديمير، أنا شخصيًّا لن أتزوج إلا من بلدي سورية.

فقالت الأولى وكانت عراقية:

- يعني لو كان عراقيًّا لن تقبلي به؟!

ابتسمت وقالت:

- السوري أحلى.

- لماذا أحلى؟ لأن لهجته سورية؟! (قالتها بمط الكلمة على طريقة السوريين).

- ولك المثل يقول: "اللي ما بتجوز شامية طول عمره عزابي، واللي ما بتتجوز سوري كأنها ما تزوجت".

فقالت الثانية وكانت مصرية:

- ما هذا؟ ما هذا؟ خلاص، أوقفوا الخناقة، كل واحد يتزوج التي يريدها.

فقالت العراقية:

- العراقيون أصلاً لا يحبون إلا عراقية.

- ألا تريدون التوقف عن الخناقات، سورية، عراقية، مصريه؟ ما رأيكن أن المصرية كل الشباب العرب يحبونها!

- لماذا؟

- لأنها سمراء دمها خفيف.

- ثم ضحكت بصوت عال.

فردت عليها السورية:

- "جميل وأسمر، جميل وأسمر".

فتبعها الأخريات وأكملن الأغنية معًا:

"جميل وأسمر، جميل وأسمر

بيتمختر، بيتمختر

بقول سكر، وأقول أكثر من السكر

ميتين مرة، تررم تررم"

فجأة فتح الباب ودخلت رحاب. سكت الجميع.

قالت لهن:

- مساء الخير.

فأجبنها معًا:

- مساء النور.

قالت السورية:

- يا رحاب، لم نعد نراك، الذي شغل بالك يشغل بالي يا رب.

فقالت لها:

- مشغولة.

- مشغولة بالدراسة في العطلة الصيفية؟ أم...

- أم ماذا؟

فقالت العراقية:

- الدراسة العاطفية؟

ها ها ها، ضحك الجميع.

اغتاظت رحاب، فقالت لهن:

- إذا سمحتن، احفظن تعليقاتكن لأنفسكن.

فقالت المصرية:

- متأسفات، نحن فقط نمزح معك.

ثم أكملت السورية:

- على كل حال اتصلت أمك وطلبت أن تتحدث معك، وقالت إنها ستتصل الساعة التاسعة.

نظرت إلى الساعة، ثم قالت:

- يعني بعد نصف ساعة. شكرًا.

ذهبت كل طالبة إلى فراشها، كن يتغامزن عليها عندما جلست مشغولة تفكر ماذا عسى أن تقول لها أمها، هل اتصلت لتخبرها عن علي؟ أم اتصلت لتسألها عما سمعته من فريد؟

حاولت أن تشغل نفسها بالدراسة، لكنها لم تستوعب أية كلمة قرأتها؛ القلق سيطر عليها، ظلت متوترة الأعصاب، وهن يتغامزن عليها بين الفترة والأخرى، إلى أن جاءت مسؤولة الدار وقالت لها:

- رحاب، مكالمة بانتظارك.

نزلت بسرعة إلى الطابق الأرضي، دخلت المكتب، واقتربت من سماعة الهاتف، رفعتها ثم قالت:

- ألو.

رد عليها أبوها:

- ألو، يا رحاب، كيف حالك؟ كيف دراستك؟

- بخير، والحمد لله، مشاقة لكم جميعًا، كيف أخبار علي؟

- أخبار غير مشجعة، لكنه يقاوم خلف القضبان، معنوياته عالية، يرسل لك تحياته، ويقول لك إنه يريد أن تزوريه في الصيف القادم.

- إن شاء الله يا أبي، كيف حال أمي؟ وكيف حالك؟

- أمك وأنا بخير، لكنا عاتبون عليك.

- لماذا؟ خير؟

- ما الذي حدثنا به فريد؟ هل صحيح أنك ستتزوجين روسيًّا؟ هل تريدين الخروج عن تقاليد أسرتنا؟

- يا أبي، إنه شاب محترم، كان من المتضامنين مع علي ومع الأسرى.

- يا ابنتي، هل كل من تضامن مع الأسرى يجب أن نتزوجه؟! أنت بزواجك تحكمين على نفسك بالغربة النهائية، بالانسلاخ عنا نهائيًّا، ثم أنسيت أنك مسلمة وهو غير مسلم؟!

- لا... لا، هو قال إنه مستعد لكي يسلم.

- مستعد أن يسلم من أجل الزواج، هذه خديعة.

- لم يعلن ذلك رسميًّا لأنهم هنا لا يهتمون بالدين.

- يا ابنتي، إن كنت تحبيننا فلا تتزوجي قبل إنهاء تعليمك وعودتك إلى بلادنا، نريدك أن تتزوجي من فلسطين لنفرح بك، ونحتفل بك، أنت آخر البنات، أنسيت محبتنا لك؟

- يا والدي، إنه شاب طيب ،وهو طالب نشيط.

- اسمعي رأيي النهائي: لا زواج قبل انتهاء الدراسة، والعودة إلى القدس، وإن كسرت كلامي وفعلتها، سيكون زواجك طعنة في قلبي...

- أبي...

قاطعها:

- خذي، هذه أمك.

أخذت أمها السماعة، وقالت لها:

- لقد ذهبت إلى روسيا للدراسة وليس للزواج، إن كنت تريدين الزواج فعودي فورًا.

- يا أمي، لماذا تقسون علي؟ يعني لو كان فريد سيتزوج بريطانية هل ستمانعون؟

- أخوك شاب.

- وأنا بنت؟! أنا العار الذي سيلحقكم بزواجي.

- رحاب، لا تنفعلي، فكري بهدوء، صدقيني إذا تزوجت منه ستندمين لاحقًا، حتى الشباب الذين يتزوجون من أجانب معظم زواجهم يفشل

بعد حين، ومن يستمر إما لأن أحد الأطراف استسلم للطرف الآخر ثقافيًّا ودينيًّا، ولم يعد يهتم بها سيدرسه الأبناء، أو لأن المرأة للأسف الشديد تتبع زوجها حتى في الغرب.

- لماذا تريدون الوقوف أمام مستقبلي؟!

- مستقبلك عندنا هنا.

- ماذا لو كان الشاب مصريًّا؟

- لأن المصري، أو السوري، من ثوبنا، من ثقافتنا، من ديننا، يومًا ما سيقف أبناؤه يطالبون بأرض أجدادهم المغتصبة.

- وما رأي سعيد؟ ما رأي فادية؟

- لا أحد يعرف بالموضوع سوانا هنا، والرأي في النهاية رأينا، وليس رأي سعيد، ولا حتى فادية، نحن والداك، ونحن مسؤولان عنك.

- يا أمي...

- رحاب، لا أريد نقاشًا في الموضوع، سأعتبر الموضع منتهيًّا، سأتصل بك بعد أسبوع لأسمع أخبارًا سارةً.

صمتت لحظة ثم قالت:

- مفهوم.

-انتبهي لنفسك، ودراستك، وحافظي على ثقتنا بك، تصبحين على خير.

أغلقت رحاب الخط، وعادت إلى غرفتها مضطربة لا تعرف ماذا تفعل، إنهم يحاولون القضاء على طموحها، إنه فارس أحلامها، من غيره؟ حتى لو عادت إلى القدس، من سيتزوجها؟ لم تعد عذراء، لم تعد الفتاة التي سيتسابق الشبان لخطبتها، ستكون مصيبة أكبر لو تزوجت من القدس، ستكون فضيحة سيقتلها أبوها، وربما يموت قهرًا، ماذا تفعل الآن؟ ماذا تقول لفلاديمير؟ هل تتزوجه دون إعلام أهلها؟ هل تتحداهم؟ يجب أن تتصل بسعيد، لكن المكالمة غالية، وهذه مسألة تحتاج إلى نقاش. لكن ماذا يفعل سعيد؟ هل سيقتنع بكلامها؟ كلهم سيقولون لا، وحتى لو قال أحدهم نعم، فهذا لن يغير من رأي والدي، ولا والدتي، هل أتحداهم جميعًا؟ إن فعلتها بدون علمهم ستكون القطيعة، قطيعة إلى الأبد، هل أختار القطيعة؟ هل أتخلى عنهم؟ أم أنهم يتحملون مسؤولية ما سأتخذه من قرارات، اللهم ألهمني الصبر، أللهم حبّب والدي بي وبفلاديمير.

غيرت ملابسها في الغرفة، وتوجهت إلى النوم. سألتها المصرية:

- رحاب، يبدو أنك قلقة، هل هناك أخبار مزعجة؟

- لا... كل شيء على ما يرام.

- هل أهلك بخير؟

- كلهم بخير.

- وما أخبار الأسرى؟

- الحمد لله، علي بخير، انتهى الإضراب وحققوا بعض المطالب.

- تهانينا لك، إن احتجت لشيء لا تترددي بالسؤال.

- شكرا لك، أكيد لن تقصري.

استلقت في فراشها، حاولت أن تنام، ولكن لم تستطيع، ظلت تتقلب من جهة إلى أخرى حتى ساعات الفجر، كانت حائرة، لا تعرف هل تسير بالاتجاه الصحيح، أم أنها تسير عكس التيار؟ ألديها خيارات كثيرة؟ القناعة التي توصلت إليها أن الزواج من فلاديمير هو الخيار الأفضل، ولا شيء غيره لصالحها. سأتزوجه مهما كانت النتائج، أنا في سن يسمح لي أن أختار شريك حياتي بنفسي.

(16)

بعد شهر كان المأذون جاهزًا لزيارة سجن نفحة ليعقد قران علي وخولة. لم تسمح إدارة السجن له بالزيارة بدون قضبان، واشترطت أن يتقدم علي إليها بطلب رسمي خاص لتوافق على اجتماع العائلتين في غرفة خاصة.

مدير السجن كعادته قال لممثل الأسرى:

- كل سجين يقدم طلبًا خاصًّا سأستجيب له بما فيه الزيارة الخاصة بدون قضبان.

لكن عليًّا والأسرى يرفضون ذلك لأن هدف إدارة السجون معروف لهم؛ كسر وحدة الأسرى وإجبارهم على التعامل مع الإدارة كأفراد، وهي الخطوة الأولى نحو مساومتهم على تلك الحقوق الفردية لكسب المزيد من التنازلات منهم، وزرع الجواسيس في صفوفهم.

ممثل الأسرى قال له:

- إذا كنتم توافقون على المطالب، فلماذا تشترطون التعامل الفردي؟

- هذه أوامر الداخلية.

- وردّنا واضح؛ رفض الشرط.

لم يستطع المحامي عبد عسلي فعل شيء، ولم يكن أمام العائلتين سوى تحديد موعد بالتنسيق مع بعض الأهالي الذين لن يزور أبناءهم ثلاثة أشخاص لإدخال بعض الأهل باسمهم.

وافق أهل عمر القاسم وخليل الصباح، ولم يحضر منهم سوى أمّ كل منهما، وخالد ياسين لا أهل له، وقد حضر والدا علي وأخوه وأخته، وحضر والدا خولة وأخوها عدنان وأختها سهام، كما حضر المأذون.

انطلقت عدة سيارات في الصباح الباكر ليكونوا في الفوج الأول، وليضمنوا أنهم في فوج واحد، وإلا تعطلت المهمة. السيارة الأولى ضمت أهل العروس مع ابنتهم، أما الثانية فضمت أم سعيد، وأم عمر، وأم خليل الصباح، فيما ضمت السيارة الثالثة سعيدًا ووالده والمأذون.

المسافة طويلة، لم يتعود المأذون عليها، فهي مهمة ستأخذ نهاره كله. كان المأذون فخورًا أنه سيعقد قران أسير خلف القضبان. سأله أبو سعيد في الطريق:

- كيف ستسجل العقد، وكيف سيوقع علي عليها؟

فرد سعيد قائلاً:

- بعد أن يقوم سيدنا الشيخ بما هو شرعي وواجب ولا يبقى سوى توقيع علي، سنطلب من المحامي زيارته ليأخذ توقيعه الرسمي على عقد الزواج.

هز المأذون رأسه وقال له:

- فكرة رائعة يا سعيد، لم تخطر على بالي، في الزيارة سنقوم بالواجب الشرعي شفهيًّا، وبعد إتمام العقد وهو عرض وقبول، سأسجل كافة المعلومات بعد انتهاء الزيارة، وسيوقّع الشهود والعروس وسنكون جاهزين لزيارة المحامي.

فقال أبو سعيد:

- على بركة الله.

كانت خولة في قمة سعادتها، تكاد تطير من الفرح، ترى الطريق أطول من المعتاد مع أنها في سيارة خاصة وليس في حافلة الصليب الأحمر، أو الهلال الأحمر، قلبها يزداد خفقانًا، تنتظر تلك اللحظة منذ أن وافق أبوها على طلب والد علي عندما حضر مع وفد من آل النجار وبعض الأقارب والأصدقاء، شعرت بفخر عندما جاء وفد آل النجار لخطبتها، كانت شخصيات وطنية، وقيادات شعبية، رجال دين، وبعض الأسرى المحررين في الوفد، كلهم جاؤوا ليطلبوا يدها إلى علي، كلهم جاؤوا

ليشهدوا على موافقتها، لكنه للأسف لم يستطع الحضور معهم لمشاهدة تلك اللحظة التي تنتظرها على أحر من الجمر.

كان فيصل الحسيني أبرز الشخصيات الحاضرة، وقد وقف باسم آل النجار وباسم أسرى سجن نفحة يطلب يد خولة لعلي النجار ابن فلسطين، قال لوالدها والوفد المرافق من عائلة شاهين وبعض الأقارب:

- لقد جئت لكم باسم آل النجار، وباسم أسرى سجن نفحة، وباسم كل مناضلي الحرية، نطلب يد ابنتنا خولة إلى ابننا وحبيبنا وبطلنا وأسيرنا علي النجار.

وقف والد العروس، وقد أثلج صدره وجود كل تلك الشخصيات الوطنية في بيته ورد عليه:

- اشربوا القهوة، فلن نجد لابنتنا عريسًا أفضل، ولا أروع من علي.

فقال فيصل:

- إذًا لنقرأ الفاتحة.

رفع الجميع يديهم وقرؤوا الفاتحة، وبعد انتهائهم تعالت زغاريد النسوة، كانت أم سعيد في الغرفة الأخرى مع ابنتها فادية أول من أطلق زغرودة الفرح.

بكت أم سعيد، كانت تتمنى لو كان علي حاضرًا، محررًا. عانقتها فادية، ثم خولة، وتتالت النساء يعانقنها ويباركن لها ولخولة. لم تتحمل خولة

رهبة المنظر، فشاركتها دموعها بدموع أخرى كانت تتمنى لو كان موجودًا، لو تستطيع أن تعانقه، تقبله، ولو لمرة واحدة.

في غرفة الرجال، وقفوا يباركون لوالد علي، ويعانقونه واحدًا واحدًا.

- مبارك يا أبا سعيد.

- عقبى للتحرر.

- هذا يوم سعيد لنا جميعًا، مبارك يا آل النجار.

- مبارك لنا جميعًا.

- شكرًا لآل النجار.

- مبارك للعروسين.

- بالرفاه والبنين.

كان أبو سعيد يشعر بغصة في القلب، فكل التهاني وما يزال ابنه في الأسر، هل سيتحرر؟ هل سيخرج يومًا ويرزق بولد قبل وفاته أم سيظل ذلك حلمه حتى وفاته؟ هل سيراه بدون قضبان؟

نظرت أم عدنان إلى ابنتها خولة، وسألتها في الطريق إلى نفحة:

- مالك مشغولة؟ هل أنت معنا؟

- طبعًا معك، الطريق طويلة أليس كذلك؟

- قصيرة بالسيارة، ولكنك تريدين اختصار المسافات.

فعلّقت أختها سهام:

- الانتظار صعب، ولكن لا تقلقي سنصل، وسنبارك لك.

قال لها أبوها:

- هل أنت على رأيك؟ إياك أن تترددي، إن شعرت أنك تسرعت بقرارك فلا تخجلي، لا حياء في الدين.

- لا يا والدي، لم أتسرع، هذه مسألة غير قابلة للنقاش.

فقال عدنان:

- مبارك مرة أخرى، أتمنى أن يتحرر من الأسر وأراكما في بيت واحد.

فقالت أختها:

- أدعو الله أن لا يطول انتظارك.

فقالت أمها:

- لقد اختارت طريقها، وتعرف ما هي مقبلة عليه، ليس أمامها سوى الصبر.

سرحت خولة في البعيد، الصبر؟! ما أصعب الصبر من زيارة إلى أخرى! ما أصعب صبر المشتاقة إلى حبيبها!

فجأة لمحت عليًّا قادمًا من بعيد، يلبس بذلة بيضاء، رافعًا ذراعيه ليضمها إلى صدره، سألته:

- لماذا ملابسك كلها بيضاء؟

اقتربت منه، ورمت نفسها على صدره، لفها بذراعيه، وشدها إليها، قال لها:

- خولة، أعطني حنانك كله، مشتاق لك، مشتاق للمسات يديك، لأنفاسك...

وضعت رأسها على كتفه، ويدها تداعب صدره.

- ضمني يا حبيبي، ضمني لصدرك أكثر؟

- كسرنا القيد، لم نعد نلتقي خلف القضبان، سنبقى معًا معًا.

- صحيح؟

- نعم، لقد جئتك منتصرًا.

داعب شعرها بيده اليمنى، فيما اليسرى كانت تمسد ظهرها، وصدرها كله على صدره.

فجأة رفعت رأسها واقترب يقبل شفتيها، وعندما اقترب من الشفاه أحست بمن يدفعها بيده:

- خولة، اصحي، لقد وصلنا.

- آه يا أمي أين نحن؟

- نحن أمام سجن نفحة.

- هل وصلنا؟

- نعم.

تساءلت وهي تفرك عينيها: لماذا وصلنا قبل أن يطبع قبلته؟ لماذا لم تتأخر السيارة ثانية واحدة؟

اقتربت منها أختها وهمست في أذنها.:

- هل كنت تحملين بليلة الزفاف؟

ابتسمت، وهزت رأسها نصف هزة ثم قالت:

- كنت في وسط الطريق.

لم ينم علي طوال الليل، كان ينتظر ذلك اليوم بفارغ الصبر، وكان يعرف من أخته التي زارته في الزيارة الماضية مع زوجها أنهم سيحضرون لعقد قرانه هذا اليوم، فكان طوال الليل يفكر بخولة، يحلم بالحرية؛ متى سوف يتحرر من الأسر؟ لماذا تأخر شباب الثورة في أسر جنود إسرائيليين؟ لا بد أنهم يحاولون. غدًا سأخرج كما خرج غيري، غدًا سأتحرر.

كان كل فترة يتمايل من جنب إلى جنب يتخيل خولة بثوبها الأبيض، أحس بتعب آخر الليل، وتمنى لو ينام ليستيقظ نشيطًا، ولكن عبثًا حاول، كان يتطلع في سقف الغرفة، يدقق النظر في كل بقعة فيها، الجو بارد، إنه جو الصحراء في الليل، لم يسمع سوى صوت مفاتيح السجان وهو يتحرك، كان السجان كل ساعة يفتح الشباك الصغير الموجود في الباب الرئيس يتطلع ويعد الأسرى، كأنه خائف أن يفروا على الرغم من كل التحصينات الموجودة. كان يخاطب نفسه: هذا السجان اللعين الروسي

من أين أتانا؟ كيف يا رب يحق له أن يكون في فلسطين ونحرم نحن من بلادنا؟

عادت به الذكريات إلى أيام المدرسة؛ تذكّر عندما كان طالبًا كيف كان الطلاب يتظاهرون مطالبين بالرد على اعتداءات إسرائيل، لكن الشرطة الأردنية كانت ترد عليهم بالضرب والاعتقال. كان في تلك الأيام له شلة من الأصدقاء يقضي معهم بعض أوقات فراغه.

لم ينقذه من أفكاره سوى أول شعاع للشمس إيذانًا بقرب موعد الزيارة. انتظر حتى أتى السجانون للعد الصباحي، استيقظوا جميعًا ووقفوا للعد، وبعد أن غادر السجان، نام الجميع إلا هو، هب متوجهًا نحو الحمام، استحم ليطرد الأشباح من رأسه، ثم صلى الفجر، وبدأ ينتظر موعد الزيارة، وعندما جاء الفطور استلم الفطور نيابة عن كل زملائه بالغرفة وبدأ بتناول فطوره وحده.

كانت خولة تنتظر خارج السجن، كل عدة دقائق تتطلع إلى الساعة. في الثامنة صباحًا تبدأ الزيارة. الساعة الآن السابعة والنصف تقريبًا، يا لهذه الساعة! أووف.. كل دقيقة كأنها دهر كامل. ترى ماذا يفعل علي الآن؟ هل استحم؟ هل حلق ذقنه؟ هل نام ليلته يحلم بي أم ظل قلقًا مثلي؟

كانت أمها وأختها تحسان بقلقها، لذلك حاولتا أن تسلياها بالحديث عن المستقبل، قالت لها أمها:

- ترى بماذا تفكرين يا خولة؟

- بماذا تفكر العروس يا أمي؟

- ماذا ستسمّين أول ولد يا ترى؟

- قال لي علي سنسميه كنعان.

- كنعان؟ ولماذا كنعان؟

- لأن أول شعب سكن فلسطين هو شعب كنعان الذي تعود بعض جذور الفلسطينيين إليه.

- ولكننا عرب يا ابنتي.

- صحيح نحن عرب، والكنعانيون عرب أيضًا، ونحن لم نأت من الجزيرة العربية، بل جاء بعض العرب منها وتخالطوا مع سكانها الأصليين الذي كانوا خليطًا من بقايا الكنعانيين، والفنيقيين وحتى الفلستينيين، والرومان، تعربنا جميعًا، وأصبحنا جزءًا من الحضارة العربية والإسلامية.

- لم أعرف أنك ملمّة بالتاريخ إلى هذا الحد؟

- لقد تعلمت من علي أشياء كثيرة.

- بهذه السرعة؟

- إنه موسوعة تاريخية. ماذا وراءه سوى القراءة؟ إنه يحمل مأساة شعب بأكمله.

- وإذا جاءت بنتًا ماذا ستسميها؟

- سنسميها أمل.

- أمل، اسم حلو، وهل هناك سبب لهذه التسمية؟

- طبعًا.

- وهل لي أن أعرف؟

- لأننا نأمل بالتحرر والانتصار.

- إن شاء الله يا خولة.

فقالت أختها وقد جاءت وجلست بجانبهما:

- "أمل حياتي، يا حب غالي، ما ينتهيش".

فأكملت خولة معها بصوت خافت كي لا يسمعها أحد من الرجال الذين كانوا يجلسون على مقربة منهن:

- "يا أحلى غنوة سمعها قلبي..."

السجان يخرج من الغرفة وينادي أسماء الفوج الأول. كانت الحافلة قد وصلت وتسابق الجميع للتسجيل:

عمر القاسم

خليل الصباح

علي النجار

خالد ياسين

سليم نسيبة

يعقوب عودة

وقف أهل الأسرى، ثم توجهوا مع السجان إلى غرفة داخلية للتفتيش، وبعد ذلك قادهم نحو مكان الزيارة.

كان علي جالسًا ينتظر وبجانبه خالد ياسين، وبعد أن سلم على الجميع، حدثه أبوه أنه طلب يد خوله له، وأن أباها وافق على ذلك، والآن جاء المأذون ليعقد قرانهما. الوقت ضيق، لذلك سنترك المأذون ينجز مهمته، وسنحدثك لاحقًا عما جرى.

سلم علي على والد خولة ووالدتها ثم أخوها وأختها وشكرهم جميعًا، قال لوالدها:

- أنا سعيد بموافقتك، أنا واثق من التحرر، ثورتنا لن تنسى أبطالها في الأسر، سأضع خولة في عيوني.

شكره والدها وتمنى له السعادة.

تقدم المأذون من القضبان الحديدية، وقال لعلي أن يمد أصابعه من الشبك الحديدي، فوضع كل إصبع في واحد من الثقوب واستطاع أن يمد أربع أصابع. كان السجان يدقق النظر فيما يجري، فشرح له سعيد بأن ما يجري عقد قران. هز السجان الروسي رأسه وظل يتابع. اقترب والد العروس ومسك بأصابع علي، وأراد المأذون أن يغطي اليدين بمنديل

أبيض، ولكن السجان منعه من ذلك، فظلت كما هي. نظر المأذون إلى علي وقال له: ردد ورائي:

......

وبعد ذلك، توجه إلى والد العروس وقال ردد ورائي:

......

بعد ذلك قال المأذون:

- تم العقد، الفاتحة.

كان الأهالي والأسرى يراقبون ما يجري، كلهم شهود على عقد قرانه. بعد انتهاء المراسيم صفقوا جميعًا، وزغردت أم سعيد وابنتها وأم خولة، وهب الأسرى يهنئونه واحدًا واحدًا.

كان ينظر إلى خولة ليرى آثار الحدث عليها فيما كانت هي تراقب كل حركة له، كانت ترسم في مخيلتها حركة شفاهه، وتعابير وجهه، وعيونه التي لم ترف، وشعره الأسود، وأصابعه التي تحدت السجان وخرجت من خلف القضبان.

قدّم خالد ياسين حبة من السكاكر لكل فرد من الزوار والأسرى، هذا ما يمكنهم تقديمه في السجن ..

قال أبو عدنان لابنته:

- يا ابنتي سلمي على زوجك.

اقتربت خولة منه، كانت العيون تلاحقها، تخيلته أمامها بدون القضبان التي تفصله عنها، كأنه يمد ذراعيه ليرقص معها في ليلة زفافها . والموسيقى تعزف "دقوا المزاهر يلا يا أهل البيت تعالوا.. جمّع ووفّق والله وصدقوا اللي قالوا".

انتهت الزيارة، انتهت نصف الساعة، وكيف لا تنتهي! لم تكتمل فرحتها، فصوت السجان قطع شريط أحلامها. سلمت عليه بأصابعها الناعمة، قال لها بلهفة العاشق الولهان:

- مبارك.. مبارك يا حبيبتي. لا تنسي أن تزوريني في المرة القادمة، يا ليت تزوريني لوحدك بعد إذن أمي.

- سأزورك، وهل أستطيع بعد اليوم أن أتغيب عن زيارتك؟

سلم على الأهل كلهم بسرعة قبل أن يسحبه السجانون إلى الغرفة، ولوح لهم بيده وعاد مزهوًا.

يا إلهي! أي سجان هذا الذي يمنع القلوب أن تلتقي؟ إنها قضية إنسانية تجيزها كل المواثيق العالمية. هذا السجان لم يغتصب أرضنا فقط، لكنه سلب أحلامنا، صادر حرياتنا، يريد قتل الحب في داخلنا، لكنه لن ينتصر، سيكبر حبنا وسيهزم كل حرابه وكل سكاكينه.

(17)

تغير الوضع في سجن نفحة الصحراوي؛ لم تعد الأوضاع كما كانت من قبل إدارة السجون التي نفذت الكثير من مطالب السجناء بعد الاحتجاجات الدولية العديدة، والأهم من ذلك بعد أن اقتنعت أن الأسرى لن ينكسروا على صخرة تعنتها، وأن خطتها باءت بالفشل، فالأبواب لم تعد مغلقة بالصباح، بل أصبح ثلثها العلوي عبارة عن قضبان مع شبك، والأسرى ينامون على أسرّة، وعلى فرشة إسفنج لا بأس بها إذا ما قورنت بالنوم على الأرض. إحدى الغرف تحولت إلى غرفة زيارة، وغرفة أخرى تحولت لغسيل الأواني والصحون التي يحتفظ بها الأسرى، لم تعد الغرف مزدحمة، كل غرفة فيها أربعة أسرة مزدوجة، وعدد الغرف عشرة بثمانين أسيرًا، وقد نقل العدد الزائد من سجن نفحة. الجهة التي تواجه الشارع العام لم تعد يفصلها عن الشارع جدار، أصبح بإمكان الأسير التفرج إلى البعيد ليرى حركة السيارات القليلة المارة.

التنقل من الغرف أصبح سهلاً، فكل أسير يريد زيارة زميله في الغرف الأخرى ما عليه سوى الطلب من السجان فتح الباب والانتقال إلى الغرفة الأخرى، لكن الزيارة ظلت منظمة بين الأسرى للحفاظ على خصوصية كل غرفة وعدم إزعاج الآخرين إن كان لديهم برامج دراسة أو قراءة، فالزيارات كانت بأوقات محددة وبالتنسيق مع مسؤول كل غرفة، هناك مواعيد للزيارات الخاصة فقط مثل دراسة، اجتماع تنظيمي... الخ، ومواعيد الزيارات الاجتماعية للتفاعل بين الأسرى، وقد حرص أسرى نفحة على استغلال تلك المسألة وتغيير أماكن سكنهم كل فترة للتفاعل بين الأسرى، وكسر حاجز الروتين اليومي بينهم، وقد حرصوا على اختلاط الأسرى ببعض من كل المناطق والاتجاهات السياسية حتى لا تتقوقع الأحزاب معًا وتتكرس الشللية بينهم.

أصبح بإمكان علي اليوم ممارسة رياضته كل يوم، ولكن الساحة ظلت كما هي لم تتوسع، والركض فيها ليس سهلاً، فالساحة صغيره، يحاول الأسرى في الصباح أن يركضوا في حركة دائرية، بعد ذلك يقف بعضهم في الوسط لممارسة رياضة القفز بالحبل لأنها الأسهل، وأصبح بإمكان الأسير شراء حبل بعداد يصل إلى ٩٩٩٩ حركة.

تغير الأسرى في سجن نفحة؛ بعضهم تحرر من الأسر وآخرون نقلوا إلى سجون أخرى، حركة تنقلات واسعة جرت في السجن، لكن على

النجار، وعمر القاسم، وبعض الأسرى الآخرين لم يتغيروا، ظلوا في نفحة، وأصبحوا جزءًا تراثيًّا من حركته الاعتقالية، فهم الذين خاضوا مع رفاقهم وإخوتهم معارك الأمعاء، وانتزعوا انتصاراتهم من فم التنين، فتحسنت أوضاعهم. لكن إدارة السجون لم تعترف بهم كأسرى حرب وإن تعاملت معهم بشكل جماعي. أرادت حكومة إسرائيل القضاء على أحلامهم وطموحهم، فاستغلت معاهدة كامب ديفيد، واحتلت لبنان، ووصلت حتى بيروت.

كان الأسرى لا حديث لهم سوى التبادل، فالمقاومة أسرتْ تسعة جنود إسرائيليين، أطلق سراح ستة منهم فقط مقابل (85) أسيرًا. كان الجميع محبطين من النتائج، فانتظروا التبادل الثاني. كان علي متفائلاً:

- هذه المرة سنخرج من هنا. أنا متفائل، أحمد جبريل لن يتنازل، كلما طالت مدة التفاوض يشعرني بالأمل.

قال له خليل الصباح:

- كيف يا علي؟

- هذا يعني أن شبابنا لن يتنازلوا عن مطالبهم، إنهم يتحدثون عن إطلاق سراح كل الأحكام العالية، بعضهم سيظل في فلسطين، في التبادل السابق جرى نفيهم كلهم إلى خارج فلسطين، إننا نحقق حلم إسرائيل بالهجرة من الوطن.

- ولكن إسرائيل قد تغتالهم.

- بإمكانها أن تغتالنا كلنا في الأسر، من يمنعها؟

- ربما الموقف الدولي، صورتها كدولة أمام العالم.

- الشيء نفسه، فهي تتعهد أمام المجتمع الدولي بعدم التعرض للذين أفرج عنهم.

كانت خولة تنقل له أخبار التبادل أولاً بأول، ولكنها كانت تقول له:

- المفاوضات صعبة، لذلك الانتظار سيطول.

خرج علي من غرفته بعد أن فتح له السجان الباب وانتقل إلى القسم الثاني إلى غرفة المكتبة حيث مسؤول المكتبة رأفت النجار من غزة، يحمل اسم العائلة نفسها، لكن كلاهما لا يمتّان بصلة لبعضهما، فعلي من القدس، ورأفت من خان يونس في غزة.

كانت المكتبة تضم حوالي (300) كتاب اشتراها الأسرى على حسابهم بالتدريج، وفي كل فترة يدخل لهم كتاب جديد يضيفونه إلى مكتبتهم. الكتب هنا مقدسة، والجميع يهتم بالكتاب وإلا تعرض للنقد، فالكتب نادرة، وإدارة السجن لا تدخل لهم كل كتاب يرسله الأهالي، بعض الكتب لا تصل، وبعضها يعاد لصاحبها، وأحيانًا تصادر بعض الكتب التي سمحت بإدخالها، فليس للإدارة نظام خاص، فهي تعمل حسب ما يراه مدير السجن مناسبًا في ذلك اليوم، قال علي لرأفت:

- أريد أن أقرأ رواية جيدة، دائمًا أقرأ الكتب السياسية والتاريخية، أريد رواية أدبية هذه المرة.

نظر إلية وقال له بعد تفكير:

- ما رأيك برواية "الإخوة الأعداء"؟

- "الإخوة الأعداء"؟ هل لديك اقتراح آخر؟

- "ميرامار" لنجيب محفوظ، "اللاز" للطاهر وطار.

- "اللاز"؟ أليس الطاهر وطار كاتبًا جزائريًّا؟

- بلى هو كذلك، إنها رواية رائعة، لقد قرأتها.

- حسنًا، ناولني إياها.

أخذ الرواية منه، وقبل أن يعود نظر من القضبان التي تعزل السجن عن الشارع البعيد، وتساءل وهو يحدق في الأفق: متى ستنكسر القضبان ونعود أحرارًا؟

في طريق عودته قبل أن يطلب من السجان فتح باب القسم للانتقال إلى القسم الآخر، نظر في الغرفة رقم 92 هناك المحاذية للاتجاه الشمالي التي تقابل غرفة المكتبة، كان محمد عليان يجلس منهمكًا في الكتابة.

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام، أهلاً علي، تفضل.

- أراك منهمكًا في الكتابة.

- أحضّر مقالي الشهري لمجلة نفحة الثورة.

- ذكّرتني يا محمد، لقد نسيت، لم يبق لموعد كتابة المواضيع سوى يومين، لقد وعدتهم بكتابة موضوع عن تبادل الأسرى، سأنجزه اليوم، ما الذي تكتبه لنا اليوم؟

- قصة قصيرة جديدة.

- أصبحت قاصًّا في نفحة، سنطلق عليك القاص النفحاوي. المهم أن تواظب بعد التحرر، دائمًا أقرأ قصصك، ربما يجب أن أناقشك فيها، فأنا لست ناقدًا أو أديبًا.

- لماذا لا تدخل الآن؟

- لدي بعض الأشياء سأنجزها، لكن قل لي: ما رأيك برواية "اللاز" للطاهر وطار؟

- إنها رواية رائعة، تنقل لك أخبار الثورة الجزائرية، وتوضح مدى بشاعة المحتل الفرنسي.

- الاحتلال هو الاحتلال، بشع في كل زمان. شوقتني لقراءتها يا محمد، إلى اللقاء.

طلب علي من السجان فتح باب القسم، انتقل إلى الساحة، ولم يذهب علي إلى الغرفة، فقد كان نزلاء قسمه في الساحة، فهذا موعد نزهتهم التي يسمونها الفورة. أصبح السجناء اليوم يخرجون إلى النزهة (الساحة)

مرتين يوميًّا، ساعة ونصف صباحًا، وساعة ظهرًا، وكل قسم يخرج لوحده، القسم الأول أربع غرف فيها (32) أسيرًا، وفيه غرفة الزيارة، والعيادة، وقسم التنظيف، والقسم الثاني ست غرف فيها 48 أسيرًا، وفيه المكتبة فقط.

جلس علي مع الشباب على الأرض، يستنشق الهواء الطلق، كان الجو دافئًا بعض الشيء. نظر إليه خليل الصباح وسأله:

- ماذا تقرأ يا علي؟

- رواية "اللاز" للطاهر وطار.

- ألم تقرأها بعد؟ إنها رواية قديمة.

- لا، لم أقرأها حتى الآن.

فعلق عليه عمر القاسم:

- يبدو أنك مشغول بخولة، فلم تعد تقرأ.

ضحك وقال:

- أكثر من ثلاث سنوات مر على زواجنا المسجون في قفص. لن يدوم هذا القفص، هذه المرة التبادل سيكون قفزة إلى الأمام، ثلاثة أسرى إسرائيليين لدى القيادة العامة، لقد وردتنا أخبار تقول إن جبريل أعد قائمة أسرى، ولن يتنازل عن أي اسم فيها مهما طالت مدة التفاوض.

فقال خليل الصباح:

- أعتقد أنهم في سوريا بعيدين عن محاولات جواسيس إسرائيل في لبنان لاصطيادهم.

فقال خالد ياسين:

- إذًا عليك أن تحضّر نفسك يا علي.

ضحك علي وقال:

- سنجتمع معًا في القدس.

فقال خالد ياسين:

- قد لا أجتمع معكم، فأنا بالتأكيد سأخرج إلى مخيم البداوي، وأما اجتماعنا في القدس فليس قبل تحريرها.

علّق محمد دوحان الذي كان يجلس قريبًا قائلاً:

- قد لا يكون في زماننا نحن، هزيمة إسرائيل لم تعد مجرد هدف وحماس وطني.

- لا ندري ماذا تخبئ الأيام.

- لا تخبئ إلا كل تراجع، فبعد حرب لبنان، ووصول إسرائيل إلى عاصمتها، والعواصم الأخرى تتفرج عليها وهي تسقط، لم يبق ما نعتمد عليه.

- لا تنسوا مجزرة صبرا وشاتيلا،.....

- على الرغم من كل الهزائم ،علينا عدم اليأس.

- لن نيأس، لكن علينا إعادة ترتيب الأوراق.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن انتظارنا لمعجزة قادمة من الشرق أصبح مجرد وهم. الأنظمة العربية بعد تنازل مصر عن دورها خلال حقبة السادات، أصبحت عاجزة عن فعل شيء، وجماهيرنا العربية نائمة لا تفعل شيئًا، حتى التظاهرات تخرج خجولة.

- يا عزيزي، جماهيرنا محبطة أولاً بفعل القمع الذي تتعرض له، وثانيًا لأنها تعودت على الاعتماد على النخبة، والدولة، والجيش، والفدائي.

- ولماذا لا تقول غير مبالية، اتكالية.

- أيًّا كان ذلك، فهذه هي جماهيرنا وهذه أمتنا، علينا استنهاض طاقاتها وزجّها في المعركة.

- بعد معركة بيروت ذاب الثلج.

- ما لي أراك يائساً؟

- لست يائسًا، ولكن علينا التعامل مع الواقع، علينا التراجع عن مطالبنا بعيدة المدى والاكتفاء بالممكن.

- على فكرة، آخر الأخبار تقول إن إسرائيل ستظل في لبنان لفترة قادمة.

- المؤسف أن إسرائيل في لبنان، والفلسطينيون يتقاتلون.

السجان يعلن انتهاء النزهة، كل أسرى القسم يعودون إلى غرفهم.

(18)

تشرين ثانٍ، 1983

كان خبر استشهاد إسحاق مراغة في سجن بئر السبع كوقع الصاعقة على أسرى نفحة الذين عاشوا معه لسنوات، وخاضوا معه إضرابهم الشهير.

قال علي النجار لعبد العزيز أبو القرايا:

- كأنهم نقلوه من هنا ليقتلوه، ما الذي حصل؟

- لقد أحس بألم شديد في بطنه، فطلب أن يفحصه الدكتور، لكنهم أرسلوا له ممرضًا أعطاه حبة أكامول، وبعد فترة ساءت حالته الصحية أكثر، فطالب ممثل القسم أن ينقل إلى المستشفى، لكنهم ماطلوا في الرد، فاضطر الإخوة إلى إعادة إحدى وجبات الأكل احتجاجًا، فأرسلوا السجانين لنقله إلى عيادة السجن، ويبدو أنهم تركوه هناك حتى لفظ أنفاسه الأخيرة.

- ألم ينقلوه إلى المستشفى؟

- إنهم يدّعون أنه مات في المستشفى، لكن كيف نعرف أنهم أرسلوه إلى هناك؟ إن كانوا قد تباطؤوا في نقله من القسم، فكيف نصدق أنهم اهتموا بعلاجه؟

- إنهم ينتقمون منه بسبب مواقفه في سجن نفحة خلال الإضراب.

- إنهم ينتقمون منا جميعًا، إنهم يضربون الأسرى في العمق، يريدون كسر شوكتنا بضربات متفرقة، رحمك الله يا أبا جمال.

- هل أقام له إخوتنا في بئر السبع تأبينًا؟

- لقد حزن الجميع لوفاته، وأضربوا يومًا واحدًا عن الأكل، وحمّلوا الإدارة مسؤولية قتله، إنها جريمة أخرى تضاف إلى جرائمهم الكثيرة ضد شعبنا.

(19)

أواخر 1984

كان الأسرى منشغلين بقضية التبادل، كل مجموعة تناقش الوضع في الساحة حينما سمعوا صوت سيارة السجن (البوسطة) قادمة، قال عطا القيمري لهم:

- سيارة البوسطة وصلت، يبدو أن معها أسرى جددًا.

سمع بعضهم صوت جلبة، وفتح أبواب، عادة الأسرى المنقولون إلى نفحة يتم وضعهم في غرفة الزيارة المجاورة للغرفة الأولى حتى يتم تسجيلهم، وتسليمهم ملابس السجن. اقترب عمر من القضبان التي تفصل القسم الأول عن غرفة الزيارة ونادي بصوته:

- أهلاً وسهلاً يا شباب، أنا عمر القاسم، من أنتم؟

رد أحدهم:

- أنا محمد القطب، ومعي أحمد ياسين من غزة، منقولون من سجن غزة.

- أهلاً وسهلاً بكم.

انتشر الخبر بين كل الأسرى، الشيخ أحمد ياسين منقول إلى سجن نفحة. اجتمعت قيادة سجن نفحة لحركة فتح، وقررت بعد مشاورات عدم استقبال أحمد ياسين في السجن، فهو مسؤول المجموعات الدينية التي كانت تقاتل الوطنيين في غزة، وتشتري سلاحها من عملاء الاحتلال، إضافة إلى ذلك فهو مُقعد، ويحتاج إلى من يخدمه، وهم غير مسؤولين عن خدمته. على إسرائيل إطلاق سراحه أو نقله إلى سجن يتواجد فيه بعض من أنصاره مثل عسقلان مثلاً.

اجتمع مندوب من فتح مع مسؤولي الفصائل وأبلغهم قراره، لم تمانع القوى الأخرى القرار، فقد كانت أقل حدة في رفض استقباله، ولكن لم يكن أحد منها مستعد لخدمته.

قال لهم علي النجار:

- ولكن رفض استقباله ستستغله الإدارة بشكل سلبي.

- ولكنه مقعد، ويحتاج إلى من يحمله إلى الحمام، ومن يغسله، ومن يطعمه، إنه ربع إنسان.

- أنا مستعد لخدمته.

- ولكن قرارك هذا فردي، وهناك موقف جماعي برفضه، لماذا تثير عليك القيادة؟

- أحببت أن أوفر عليكم فرصة ستستغلها الإدارة.

- لكن موقفه أيضًا سيء، فقد قتلت جماعته أحد الوطنيين في الخارج بسلاحهم المشبوه.

- لكنه الآن أسير بيننا، واختلافنا السياسي معه لن ينزل من مستواه.

- نحن لا نعترف بتنظيم غير منضوٍ في إطار منظمة التحرير الفلسطينية.

- سيأتي يوم تندمون فيه على هذا القرار.

ممثل المعتقل يطلب مقابلة مدير السجن، وبعد مقابلته قال له:

- أحمد ياسين رجل مقعد، ولا يوجد لدينا من يستطيع خدمته.

ضحك مدير السجن وقال له:

- لهذا فقط لا تريدون استقباله؟

- هذا رجل يحتاج إلى من ينقله إلى الحمام...

- إنه من جماعتكم.

- تعرف أنه ليس من جماعتنا، يمكنك نقله إلى عسقلان.

- ولكن إدارة السجون تنقل السجناء حيث تريد، وليس حسب رغبتكم.

- حسنًا، نحن لن نستقبله، ولن ننقله إلى الغرفة، ولن نخدمه.

- سيموت...

- أنتم من يتحمل مسؤوليته.

نظر إليه المدير ثم سأله:

- هل هذا قراركم كلكم؟

- هذا قرار كل الأسرى.

- حسنًا، سأنقله غدًا من عندكم، استقبلوه الليلة ،وسننقله في بوسطة الغد.

دخل أحمد ياسين في عربة المقعدين إلى السجن ووضع في الغرفة الثانية، وأوكل أحد الإخوة في فتح لخدمته. لم يهتم به أحد، سلم عليه مَن في الغرفة فقط، فيما تجاهله الآخرون.

كانت العلاقة مع تيار المتدينين الذين كان يطلق عليهم (المنفشلين) سيئة جدًّا، والصراع معهم في بعض السجون مثل عسقلان وصل إلى مداه حتى اضطرت الإدارة إلى نقلهم إلى قسم منعزل عن بقية الأسرى. كانوا لا يؤمنون ببرنامج منظمة التحرير، ولا يؤيدون سياستها، ولا يعدونها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ما كان يثير حفيظة القوى كلها دون استثناء، والتي كانت ترى في عدم التزامهم خدمة لإدارة السجن التي كانت تحاول النفاذ إلى الأسرى من خلالهم، وقد وجهت الإدارة بعض جواسيسها لتأييد ذلك التيار والانضمام إليه، لأن الانضمام إليه يعني التحلل من الالتزام التنظيمي داخل الأسر، وبالتالي عدم الخضوع لقرارات إدارة المعتقل الأمنية ما يسهل عمليًّا عمل الجواسيس،

ويوفر لهم الغطاء بالتحرك، وافتعال المشاكل. أحمد ياسين كان بالنسبة إلى بعض هؤلاء الزعيم الروحي. كان بعض الأسرى يسألونهم:

- ألديكم نية لتأسيس حزب جديد؟

الجواب كان لا، لا يريدون تأسيس حزب جديد، ولا الانخراط بأي عمل سياسي، أو مقاوم.

صباح اليوم التالي، أحضر السجان قائمة بأسماء المنقولين إلى سجن عسقلان ومنهم الشيخ أحمد ياسين.

ودع الأسرى بعض شبابهم المنقولين وكانوا ثلاثة، فيما نقل أحمد ياسين، ولم يودعه سوى عدة أسرى منهم علي النجار الذي شد على يديه ولوح له مودعًا والدمعة تسقط من عينيه.

التنقل بين السجون مسألة تعوّد عليها الأسرى، فمن كان اليوم في عسقلان قد يكون غدًا في سجن شطة، وهكذا دواليك.

(20)

تخرجت رحاب من جامعتها وحان موعد عودتها إلى أهلها، حانت ساعة العودة.

كان أبوها وأمها يستعدان لاستقبالها بعد غيابها الطويل، لم تحضر خلال الزيارات الصيفية، كانت تقول لهم إنها تستغل عطلة الصيف للتحضير للسنة التالية.

عادت ليستقبلها الأهل بالأحضان، وينشرون لها التهاني بالصحف المحلية.

كانت أم سعيد لا تصدق أن ابنتها أصبحت امرأة كاملة النمو زاد وزنها عن السابق، وقد كبر نهداها واتسع حوضها، قالت أم سعيد لنفسها:

- أصبحت رحاب في سن الزواج، لا بد من البحث عن عريس لها.

كانت في أول زيارة لعلي. لم يصدق علي عينيه:

- رحاب؟! كيف أنت؟ الحمد لله على سلامتك.

اقتربت من القضبان، ودست أصابعها في الشبك، تحسست أصابعه،و نظرت إلى عينيه.

- علي، الوطن يكبر فيك، أرى الأمل في عينيك خلف القضبان.

- كيف أخبار الناس في الخارج؟

- كلهم يسلمون عليك يا علي، كل الإخوة والرفاق والطلاب.

- المهم أنت، أيتها الصحافية النجارية، هل ستملئين الدنيا ضجيجًا؟

- هل عندي غير قضيتكم؟!

- أين ستعملين؟

- لا أعرف، الصحافة هنا محدودة، وتعرف أنها تمول من المصدر نفسه، وكل جماعة تحاول تشغيل مؤيديها سياسيًّا.

- لكنك صحافية مجازة، والصحافيات عندنا قلة، قدمي طلباتك إلى كافة الصحف.

- ربما يوظفوني لأنني أخت علي النجار... ها ها ها.

- وربما لا يوظفونك لأنك أخته.

- كيف؟

- الصحافة مركز قوى، وهي طوائف وجماعات.

- لا تقلق سأجد عملاً.

- ألم تجدي عريسًا بعد؟

ابتسمت وقالت له:

- تحررك من الأسر هو فرحي الحقيقي.

استدار إلى أمه وقال لها:

- أسمعت يا أم سعيد؟ الصحافة بدأت تؤتي ثمارها. كيف خولة؟ لماذا لم تأت معكم؟

- لقد سافرت لحضور مؤتمر عن حقوق الإنسان في روما؛ سافرت عن طريق الأردن. قالت إنها ستتحدث عن الممارسات غير الإنسانية بحق الأسرى الفلسطينيين والعرب في سجون الاحتلال.

فقالت رحاب:

- مبارك مرة أخرى يا علي، أرجو أن تتحرر وتخلف منها البنين والبنات.

- كيف حال سعيد؟ كيف أبي؟ لماذا لم يحضر معكم؟

- أبوك حالته الصحية متوسطة، أما سعيد فقد انشغل اليوم في العمل، إنه مشغول جدًّا، لكنه وعد بالحضور في المرة القادمة.

- وفريد؟ ألن يزورنا؟

- فريد سيعود في العام القادم بعد أن ينتهي من رسالة الماجستير.

- ألف مبارك، ها هي العائلة تكبر يا أم سعيد، إنهم فخر يديك.

- وأنت فخرهم كلهم يا بطل فلسطين.

- أنت البطل المجهول الذي يتجاهله الناس.

- المهم أن تتحرر قريبًا لنحتفل بك كما كل الناس.

- الأخبار كلها تشير إلى أن التبادل على الأبواب.

- نحن بالانتظار، كيف أوضاعكم بالسجن؟

- الأوضاع تحسنت كثيرًا يا رحاب عن السابق، ولكن لا يعني أنها الأنموذج. أنا الآن في غرفة مع عمر القاسم، وسمير قنطار، وعطا القيمري، وحسان عليان، وخليل الصباح، وعبد العزيز أبو القرايا، ومحمد دهمان. إنها غرفة أنموذجية، كلنا متفاهمون، ومتعاونون، أنا وخليل وعطا من القدس، وسمير من لبنان، والبقية من قطاع غزة. قريبًا سيخرج خليل الصباح، فقد اقتربت مدة سجنه على الانتهاء. سأرسل لكم معه دفاتري التي كتبت فيها مقالاتي عن الأسر والحياة داخل السجون، ربما يصادرونها منه لدى خروجه، فإن مرت بسلام حافظوا عليها، فهي ثمرة إبداع سنوات طويلة.

- سنضعها في عيوننا ولو.

- كما سأرسل لكم معه تقريرًا شاملاً عن حياتنا ومعاناتنا في مختلف السجون في رسالة سرية. اكتبيه بخط واضح وادفعيه للنشر، أو أعطه لخولة، فهي تعرف كيف تتصرف به.

- وهل نجهل نحن ذلك؟

- لا، ليس قصدي يا رحاب، لكن لأنك غائبة عن البلد لا تعرفين؛ النشر كما فهمت منها ليس مهمة سهلة حتى ولو كان تقريرًا عن الأسرى، فهي بحاجة إلى معارف، وشبكة علاقات في الداخل، وحتى لدى صحافة أبناء شعبنا في الجليل والمثلث والنقب، ولدى وسائل الإعلام الأجنبية.

- ماذا عن الصحافة الإسرائيلية؟

- لا يهمنا نشر مثل تلك التقارير في صحافتهم.

- لماذا؟

- جيد أن ننشر لديهم تقارير سياسية، مواقفنا منهم، رأينا في الحل السياسي، لكن ماذا سيثير اهتمامهم بقضية أسرى يعدونهم أعداءهم؟

- لن نخسر شيئًا، بل سنستفيد من بعض الأشياء.

- كيف؟

- عندما يشير التقرير إلى أوضاعكم الصعبة، ومعاناتكم وصمودكم على الرغم من ذلك، ومعنوياتكم العالية، سيثير لديهم السؤال المشروع دائمًا: "ما سر صمودهم وإصرارهم على المقاومة؟"

- هل يمكن أن يصلوا إلى تلك النتيجة؟

- لِمَ لا يا علي؟ علينا اختراق جبهة الأعداء، إن لم نكسب الأكثر منها فلن نخسر أكثر مما خسرنا.

- أراك محللة سياسية.

- مَن يعش تحت الاحتلال يتعلم كل شيء، أليس كذلك يا علي؟

(21)

نيسان 1985

الأخبار تتناقل بين أهالي الأسرى بأن تبادلاً قريبًا للأسرى على وشك أن يتم. الأهالي يترقبون، يعيشون لحظات صعبة بانتظار النتائج، كل منهم يحلم بابنه خارج القضبان.

كانت خولة فرحة جدًّا، ولكن أعصابها متوترة، تعد اليوم قرنًا كاملاً. تقلب الصحف كل يوم لعلها تعثر على خبر هنا أو هناك فلا تجد شيئًا، فالمفاوضات حول تبادل الأسرى بين إسرائيل والقيادة العامة سرية جدًّا جدًّا، ولعل هذا أحد أسباب نجاحها. عندما كانت تزور علي تسأله:

- هل وصلكم أخبار عن التبادل؟

فيجيبها:

- ليس أكثر مما تسمعينه.

نظرت إليه، دققت في شكله وحجمه، وقررت أن تشتري له ملابس جديدة تكون بانتظاره عندما يفرج عنه، فقد مكث في السجن خمسة عشر عامًا وملابسه القديمة لم تعد صالحة.

ذهبت إلى السوق في نهاية نيسان 1985، وتنقلت من شارع إلى شارع، ومن محل تجاري إلى آخر حتى وجدت ضالتها لدى محل صغير في سوق العطارين في البلدة القديمة، لم تترك شيئًا إلا واشترته له؛ ملابس داخلية، وبنطالين، وقميصًا، وبلوزتين، وجاكيتًا ربيعيًّا.

هذا يكفي، قالت لنفسها:

- سيشتري هو بنفسه كل شيء بعد خروجه، سأزور معه الأسواق كلها، من شارع إلى شارع، سينظر إلي الناس، وسيتهامسون:

- أهذه زوجة الأسير علي النجار؟

لن يكون بإمكانها الهروب من عيون الناس، فالصحافة تتحدث دائمًا عنه، وتنشر صورها والتقارير التي تكتبها، وكل أهالي الأسرى يعرفونها، وكذلك طلاب المدارس، اسمها على كل لسان، الزوجة التي لم تلتق مع زوجها إلا عبر الأصابع.

سألها صاحب المحل:

- هل أنت متأكدة من القياس؟

- تقريبًا.

- لماذا لا يأتي معك؟

- لأنه أسير.

- أسير؟ وهل سيسمحون لك بإدخال الملابس؟

- لا، ولكن سيفرج عنه قريبًا، إنني أنتظر تبادل الأسرى.

- من هو؟

- علي النجار؟

- وهل هذه الملابس كلها لعلي؟

- نعم.

- ما دام كذلك لا تقلقي، إن لم تكن على قياسه أعيديها متى شئت، متى التبادل؟

- نحن ننتظر، يقولون كل لحظة.

- سلمي عليه.

وضع لها الملابس في كيس وقدمه لها ثم قال:

- مبارك، سنزوركم بعد الإفراج عنه.

- كم ثمنها؟

- ثمنها؟ هل نأخذ منك ثمن ملابس لعلي النجار؟ بطل قدم للوطن حياته، أفلا نقدم له بعض الملابس؟

- لا، لا، غير معقول، يجب أن أدفع.

- إن كان زوجك فهو أخي، أفلا أقدم لأخي هدية متواضعة؟

- لقد أحرجتني.

- لا تشعري بالحرج، بل بالفخر، لا تنسي أن تسلمي عليه، وعلى كل أحبائنا معه.

حملت الكيس بخجل، وقالت له:

- شكرًا جدًّا، لقد أثقلت عليك.

- إلى اللقاء، مع السلامة.

تركت المحل ولسانها وقلبها يلهجان بالثناء لهذا الرجل الطيب (شعبان أبو خلف)، يا له من رجل رائع، ما زال الخير في شعبنا، نعم ما زال أهل الوفاء كثيرين.

عادت أدراجها إلى البيت. كانت خلال الطريق تدقق في البضائع المعروضة في المحلات التجارية، وكلما رأت شيئًا، قالت:

- سأشتريها بعد الإفراج عن علي.

باب خان الزيت كالعادة يعج بالمواطنين ومزدحم أكثر من العادة. حاولت مسك حقيبة يدها حتى لا ينشلها اللصوص الذين يجدون زبائنهم في ذلك الشارع، وعندما وصلت إلى مفترق طريق الآلام استدارت إلى اليمين لتتجه إلى شارع الواد عن طريق قناطر خضير، فهناك الشارع أقل ازدحامًا، ويمكنها السير براحتها.

في شارع الواد التقت فجأة بخليل الصباح يسير باتجاه المسجد الأقصى، هذه المرة الثانية التي تلتقي به بعد الإفراج عنه، في المرة الأولى زارته في البيت بعد الإفراج عنه واستلمت منه رسالة مهربة من علي النجار.

- خليل؟! كيف حالك؟ وكيف وجدت البلد؟

مدت يدها لتسلم عليه، سلم عليها بحرارة وقال لها:

- أحاول استعادة ذكريات الماضي؛ عشر سنوات خلف القضبان تغير خلالها كل شيء، إنها الشوارع التي عشت فيها طفولتي، انظري من هنا إلى هذا الزقاق المنسي (قناطر خضير) حيث كنت أسكن، وهذا الحلاق، الشيخ يوسف، قريبي، كان يحلق لي شعري.

- عندما زرتك في البيت كان لديك زوار كثيرون، فلم أسألك كيف تركت عليًّا؟

- بخير، بصحة جيدة، ما زال كما هو يمارس الرياضة كل يوم.

- بصراحة، لقد وحشوني، لا أريد أن أعطلك، يبدو أنك تحملين أغراضًا كثيرة.

- إنها ملابس لعلي.

- اشتريتها من الآن؟

ضحكت وقالت:

- لا بد أن يجد شيئًا يلبسه.

ابتسم وقال:

- لقد كان محظوظًا بك، ليت أني أجد امرأة في مثل وفائك وعطائك.

- ستجدها، فهن كثيرات.

قال لها:

- أحضريها معك عندما تزوريننا.

ضحكت وقالت:

- إن شاء الله، سأبحث لك عن فتاة تناسبك.

- شرفتمونا في كل وقت.

تركها خليل الصباح وأكمل سيره. كان كلما سار بضع خطوات سلم عليه بعض الشباب، فهو ابن شارع الواد، هنا عاش طفولته، وبداية شبابه، ومن هنا كانت تخرج التظاهرات والمسيرات، وفي هذا الشارع كان يكمن للجنود، فيضربهم بالحجارة والمولوتوف. كل المنازل تعرفه، وكل المحلات تذكره. أصيب عدة مرات وتم علاجه في مستشفى الهوسبيس، كان زبونًا دائمًا لديهم. كانت مقهى (منى) في مطلع شارع الواد مقره شبه الدائم يجلس مع بعض الأصدقاء يلعبون الورق أحيانًا، وفي الشارع نفسه التحق بمدرسة دار الأيتام الإسلامية قرب (عقبة التكية). كان مشاغبًا، ودائمًا يحرض الطلاب على التظاهر وملاحقة الجنود، وكانت حبيبته تسكن بجانب المدرسة، عندما يأتي صباحًا إلى المدرسة، في الطابق

العلوي كان يراها تجلس على سطوح منزلها تحمل كتابها تدرس قبل أن تغادر إلى مدرستها خارج سور القدس، لعلها كانت تتظاهر بالدراسة لتلفت انتباهه أو لتراه، كما كان هو يفعل أحيانًا حيث يأتي مبكرًا قبل كل الطلاب ليراقبها، ولكنه لم يكن يجرؤ على الحديث معها، فالويل له لو شاهده أحد من أهلها.

كان يكتفي بالنظر إليها، وأحيانًا يغمزها عندما يكون في أقرب نقطة إليها، ويبتسم، فتبادله الابتسامة.

حاول أن يلتقي بها ولكنه فشل، لم يكن جريئًا في متابعة النساء ولا في عشقهن، بل كان أسيرًا لعادات البلد، يخاف أن يقال عنه إنه رجل نساء وهو رجل ثورة.

في إحدى المرات انتظرها خارج البيت، وعندما خرجت متوجهة إلى مدرستها، لحق بها، وظل يتابعها كالعاشق الولهان. انتبهت إليه، وخففت من سيرها ليتقدم إلى جانبها، ويحدثها، ليقول لها كلمة تنتظرها، لكنه لم يفعل شيئًا، اكتفى بالنظر إليها، وانتظرها أن تقول له شيئًا. انعقد لسانه فلم يعرف ما يقول. كان مستغربًا كيف يخطب في طلاب المدرسة، ويحفظ مئات القصائد، ويناقش الطلاب، ولكن عندما يراها ينعقد لسانه.

كان يعرف ما سيقوله لها، ولكن لم يكن يجرؤ أن يقوله، فقد كان لا يقوى على البوح بما في قلبه، وعندما فقدت الأمل بمبادرته تابعت سيرها.

هل تفهمت موقفه؟ هل اقتنعت بتصرفاته؟ أم تراها حسبته غبيًّا؟!

آه على تلك الأيام! لن تعود. نحن الآن أمام عصر جديد، زمن جديد.

لقد وعدتهم، عاهدتهم أن لا أنساهم. عندما ودعتهم قبل أيام واحدًا واحدًا في سجن نفحة عاهدتهم أن أظل على العهد، وأن لا أستقيل من المسيرة، وأن أظل مناضلاً من أجل الحرية، وحريتهم في المقدمة.

قال لي عمر القاسم:

- يا خليل، كثيرون عاهدونا قبل الإفراج عنهم، ولكنهم بعد فترة انقطعت أخبارهم ولم نعد نسمع عنهم شيئًا، فلا تكن مثلهم.

- ولو يا عمر، أنا لست مثلهم، سأضعك في عيوني أنت وكل الشباب، قضيتكم قضيتي، ووطنكم وطني، المسيرة في بدايتها، وسأظل حاملاً شعلة الحرية.

كل الأسرى خرجوا لوداعه كأنهم في عرس حقيقي.

معقول؟! أنا أنساهم؟! حتى لو بقيت وحدي في كل الثورة لن أنسى أسرانا خلف القضبان، لن أنسى قضية فلسطين، قضية الوطن، إنه وطن شعب، وآباء، وأجداد، وفوق كل ذلك وطن الأنبياء والأحفاد.

(22)

في مقر جريدة الفجر المقدسية الكائن في شارع نابلس، التقت رحاب النجار بالمحرر حنا سنيورة، وقدمت له طلب الوظيفة مع صورة عن شهادتها الجامعية.

نظر إليها حنا وسألها:

- أنت أخت علي النجار؟

- نعم.

- ما دمت كذلك سنوظفك على الرغم من أن موظفينا كاملو العدد.

- شكرًا أستاذ حنا، ستجدني صحافية متميزة.

- لا غرابة، فأخت الأسير المقدام علي يجب أن تكون متميزة.

- ومتى تريدني أن أبدأ؟

- غدًا سنجعلك مراسلتنا الثانية في القدس لتتنافسي مع مراسلنا الآخر عمران عبد الله لنرى أيكما ينتج أكثر؟

- لا أريد أن يكون وجودي وبالاً عليه.

- بل حافزًا له. ما أخبار التبادل الآن؟

- ليس عندي أكثر مما عندك، ننتظر ذلك كل لحظة.

- إذا سمعت شيئًا فلا تنسي أن يكون لنا السبق الصحافي.

ابتسم ثم أضاف:

- يا صحافية آل النجار...

ضحكت، هزت رأسها، شكرته، وخرجت وهي سعيدة، تتمتم وتقول:

- وأخيرًا حصلت على وظيفة، سأثبت لهم أنني صحافية قديرة، سأعمل ليل نهار، لم أساله عن الراتب! ما أشد غبائي! قد يدفع لي راتبًا متدنيًّا، لا، لا أعتقد، ففي جريدة الفجر رواتبهم أفضل من صحيفة الشعب.

تُرى من هذا الصحافي عمران عبد الله الذي سأنافسه؟!

صحافي من قرية القبيبة التي تقع بين القدس ورام الله، أنهى دراسته الجامعية في بير زيت، طالب محسوب على اليسار، يحمل أفكارًا ثورية، يطالب بتحرير المرأة من القيود، ومقالاته كلها هجوم على التخلف، والأمية، والرجعية، ماركسي أكثر من ماركس، يطالب بتوحيد كل الفقراء ضد الأغنياء. عندما التقته وعرف أنها منافسته الجديدة ابتسم وقال لها:

- سأتنازل لك بكل سهولة، وأساعدك على التغلب على الرجل.

فقالت له:

- هل ستتنازل عن منافستي بتلك السهولة؟

- أعرف ذلك، على المجتمع أن يرى نجاحات المرأة في كل الميادين.

- يجب أن نحقق النجاحات على الأرض بطاقتنا وليس بمساعدة الآخرين.

- هل تحثيني على التنافس؟

- في خدمة الصحافة.

- تعجبني جرأتك. حسنًا، قبلت التحدي.

صمت ثم قال:

- على كل حال إن احتجت إلى مساعدة لا تترددي في الاستفسار، فأنت حديثة على الصحافة هنا.

- لا تقلق، سأجد كل المداخل الممكنة.

- طبعًا، أخت علي النجار.

- عدنا إلى علي النجار! لا ليس لأنني أخته، بل لأنني صحافية متمكنة.

- رائع، تريدين التحرر حتى من شهرة أخيك الأسير، تعجبني ثورتك.

- إنها ليست ثورة، إنه طموح لتحقيق الذات...

- كلما ازداد حديثي معك ازددت إعجابًا بك، ما رأيك أن أعزمك على فنجان قهوة؟

- شكرًا لك، لدي تقارير سأعدها.

- أترفضين دعوتي؟

أحست بالحرج، قالت:

- ولكن...

- لقد قلت فنجان قهوة، وليس غداء.

ابتسمت ثم سألته:

- هل أنت مصر؟

- عربون زمالة في العمل.

- وأين؟

- في جمعية الشبان المسيحية القريبة منا.

- حسنًا، موافقة.

غادرا مقر الجريدة معًا متوجهين إلى الجمعية التي تبعد 200 متر عن جريدة الفجر.

على باب الجريدة التقيا صدفة بعلي الخليلي قادمًا، سلم عليه عمران وعرفه إلى رحاب، قال عمران لرحاب:

- الأستاذ علي الخليلي، الشاعر الفلسطيني المعروف.

ابتسمت وقالت بعد أن سلمت عليه:

- ومن يجهله؟! لقد كنت أقرأ قصائده وأنا في روسيا.

فقال لها علي:

- تشرفنا يا أخت رحاب، أرجو أن تكون أشعاري تعجبك.

فرد عمران:

- وكيف لا تعجبها؟! يكفي قولك: "سبحانك الكادح المقهور سبحانا".

ضحك علي وقال له:

- ألم تحفظ سوى هذا البيت؟

فقالت رحاب:

- يبدو أنه لا يحب إلا الكدح والكادحين، ها ها ها.

فقال لها:

-لهذا دائمًا أنت كادح، قبل آخر الشهر يطلب سلفة.

نظر عمران إلى علي وقال:

- خليها مستورة يا علي.

ضحك وقال لرحاب:

- أنا أمزح معك، عمران شاب رائع. فرصة سعيدة تعرفنا إليك، سأترككما تكملان الحديث.

- إلى اللقاء.

(23)

الإعلان عن صفقة تبادل الأسرى

- ماذا؟ تبادل أسرى؟

تساءلت خولة عندما سمعت الخبر بالراديو، وهبت فجأة ،وبدأت تجري اتصالاتها من البيت. في اتصال مع أم سعيد قالت لها:

- يقولون اليوم مساءً ستطلق إسرائيل سراح 1150 أسيرًا معظمهم في فلسطين والآخرون إلى الخارج، وسوف تستلم إسرائيل ثلاثة أسرى إسرائيليين.

- أين سيفرج عنهم؟

- لم نعرف بعد، ولكن سيعلمنا الصليب الأحمر بالمكان الذي سيحضرون أسرى القدس إليه، والبقية سيطلق سراحهم في غزة، وآخرون في رام الله.

بدأ قلبها يخفق، ثم راحت تفكر متسائلة: ماذا سأفعل؟

ذهبت على الفور. أخذت حمامًا ساخنًا، وبعد خروجها لبست أجمل ما لديها، وتزينت كأنها في ليلة زفافها.

إنه أول عناق مع علي، لأول مرة سأضمه بحرارة.

جلست أمام المرآة ترتب شعرها، أحست كأنه يقف خلفها، يضع يديه على كتفيها. نظرت إليه من خلال المرآة مبتسمة، ثم ألقت برأسها عليه.

فجأة فتح الباب، دخلت أمها، وسألتها:

- يبدو أنك ستغادرين البيت؟ إلى أين؟

- لا أعرف، إسرائيل لن تعلم سوى الصليب الأحمر في اللحظة الأخيرة، يقال إن الموعد سيكون ليلاً.

- وهل ستذهبين وحدك؟

لن أكون وحدي، سيكون معي كل أهالي الأسرى.

- سأحضر معك.

- لا تتعبي نفسك.

- ماذا قلت؟ لا أتعب نفسي؟! أنسيت أنك ابنتي ومهجة قلبي؟

نظرت خولة إلى أمها بحنان، ثم ابتسمت وقالت لها:

- أنت أعظم أم في الدنيا.

ثم هجمت عليها تعانقها.

كل الأهالي يتجمعون قرب مقر الصليب الأحمر، ينتظرون الإعلان عن المكان الذي ستنقل إليه إسرائيل الأسرى المحررين.

كانت خولة تقف مع أمها بجانب أم سعيد النجار، وسعيد، وأبي سعيد، ورحاب، وأم عمر القاسم، وآخرون، وكلهم قلقون. فجأة يخبرهم الصليب الأحمر: لقد وصلت أول حافلة من أسرى القدس إلى رام الله، ولا نعرف لماذا، لكن عليكم التحرك إلى هناك.

انطلق الجميع يتسابقون إلى سياراتهم متوجهين إلى رام الله.

دفعة من الحافلات وصلت، وبدا الناس يتزاحمون كأنهم في يوم الحشر، فهذا يبحث عن ابنه، وهذه تبحث عن زوجها، وآخر يبحث عن صديقه...

العناق في كل مكان، دموع الفرح تتساقط فوق كل الخدود. لمحت خولة أسيرًا كانت تراه أثناء الزيارات، إنه سليم نسيبة، سلمت عليه مع أهله، وقالت له:

- الحمد لله على سلامتك، هل علي النجار في حافلتكم؟

- لا يا خولة، ليس معنا، لقد نقلونا ونحن معصوبو الأعين، ولا نعرف من معنا، ولا إلى أين نحن ذاهبون!

ظلت تبحث من حافلة إلى أخرى، وكلما رأت أسيرًا تعرفه تسلّم عليه وتسأله السؤال نفسه:

- هل علي النجار معكم؟

بعد ساعتين من الانتظار، وبعد أن غادر معظم الأهالي المنطقة، بقي بعض الأهالي المحبطين يتساءلون عن أبنائهم. كانت وجوههم حزينة، خصوصًا أم عمر القاسم، والتي قالت بحسرة:

- كان عمر يتوقع ذلك، قالها لي أكثر من مرة: "يا أمي.. أحمد جبريل لن يضمني إلى قائمة الأسرى لأنني كنت على خلاف معه في الخارج، ومنعته من السيطرة على المعسكر عندما أعلن انفصاله عن الجبهة". الله يسامحك يا أحمد جبريل.

فقال لها أحد الأهالي:

-يا أم عمر اصبري لعله يخرج لاحقًا، لا نعرف ما السبب، ربما إسرائيل رفضت إطلاق سراحه.

- رفضت؟ لماذا؟

فقالت أم سعيد:

- وماذا عن علي؟ لم يعرف أحمد جبريل ولم يره، وليس من الجبهات.

فقال لهم أبو سعيد:

- تفاءلوا خيرًا، واستعينوا بالله.

- دعونا نعود إلى بيوتنا لنرى ماذا سيحصل غدًا.

كانت خولة غير مصدقة أن علي النجار لن يُفرج عنه. بعد وصولها البيت، اتصلت تسأل أهل حسن البغدادي، فقالت أمه:

- وصل قبل قليل إلى البيت، لقد أوقفوا الحافلة في مكان آخر وتركوهم يبحثون عن بيوتهم.

فرحت خولة وتفاءلت، وقالت: لا بد أن عليًّا في حافلة أخرى. اتصلت على الفور مع أم سعيد، وأم عمر القاسم، وبلغتهما بالخبر.

لم تنم ليلتها، ظلّت مستيقظةً، تنتظر دخوله عليها. حاولت أمها أن تسهر معها، ولكنها لم تصمد طويلاً، فطلبت منها أن تستريح حتى الصباح فلم تسمع كلامها.

بقيت خولة وحدها بجانب الهاتف، قلبها يزداد خفقانًا، تقلب مؤشّر الراديو من محطة إلى أخرى تبحث عن الأخبار لعلها تسمع شيئًا. فجأة اتصلت بها رحاب التي كانت تسهر في جريدة الفجر تتابع تقارير الأخبار التي تصل الجريدة. كان صوتها حزينًا:

- خولة، حبيبتي، علي سيتحرر، لكن في المرة القادمة.

- ماذا تقولين؟ هل سمعت شيئًا؟

- نعم، الأخبار تقول إن حوالي عشرين أسيرًا من المحكومين بالمؤبد (مدى الحياة) لم يطلق سراحهم لأن إسرائيل رفضت إطلاقهم، ربما أرادت أن لا تلبي كل مطالب الجانب الفلسطيني حتى لا يشعر أنه حقق

كل شيء، فيما تقول أخبار أخرى إن القيادة العامة لم تضمهم في قوائمها، لكن لا أدري، مهما كانت الأسباب فهذا ما حصل.

- لا، لا، أنت مخطئة بالتأكيد، لا بد أن أخبارًا سرية لم يعلن عنها، لماذا علي؟

- خولة، اهدئي، أمي مثلك تبكي كالأطفال، علي النجار، وعمر القاسم، وسمير قنطار، وسليم الزريعي، ونائل البرغوثي، وسعيد العتبة، وأحمد أبو السكر، وآخرون منهم.

- يلعن أبا جبريل، ويلعن هكذا تبادل... يلعن هكذا ثورة.

- حبيبتي، لا تنفعلي، هكذا تريد إسرائيل أن تدفعنا إلى هذا الخندق؛ لتبادل الاتهامات. التبادل حقق انجازًا كبيرً 1150 أسيرًا، صحيح كان أفضل لو كان الباقون معهم، ولكن لعلها فرصة للمستقبل.

- مستقبل؟! متى؟ هل هناك تبادل جديد؟

أغلقت خولة السماعة وبدأت تبكي بحرارة، فاستيقظت أمها على صوتها، كان الوقت صباحًا، وقد بدأت الشمس تشرق.

فلسطين في فرح باستعادة بعض أبنائها الأسرى، ولكن خولة كانت حزينة، خلعت ملابسها ولبست ثياب الحداد، مسحت كل الماكياج عن وجهها. اقتربت منها أمها وقد عرفت أن عليًّا ليس في القائمة، وحاولت

أن تخفف عنها، ولكنها ذهبت إلى غرفتها وأغلقت على نفسها الباب وبدأت تجهش بالبكاء.

سنوات وأنا أنتظر.. كنت أحلم بهذا اليوم، وها هو يتحول إلى سراب. إذا كان علي ليس منهم الآن فمتى سيكون؟ لقد أطلق سراح أسرى محكومين عدة سنوات، ولم يمض على أسرهم سوى عامين أو أقل، وبقي علي وعمر، وسمير، ونائل، وسليم... الذين أمضوا سنوات؟ إنه عار.

(24)

بعد أن هدأ الليل، وتوقفت أصوات المفاتيح في الأبواب، وغادر معظم الأسرى سجن نفحة إلى جهة غير معلومة، عرف عمر القاسم أن التبادل لن يشمله وما تبقى من الأسرى، كان يتوقع ذلك، فهو يعرف أحمد جبريل جيدًا، ويعرف أنه لن يضمه إلى قائمة الأسرى، ولكنه كتم غيظه. قال محدثًا نفسه: الثورة لا تبدأ من جبريل، ولا تنتهي عنده، لقد اخترنا هذه الطريق عن قناعة وإيمان بعدالة قضيتنا. عندما توجهت مع المجموعة في الطريق إلى فلسطين كنت أعلم أنني قد لا أصل سالمًا، وعلى الرغم من ذلك حملت سلاحي وسرت باتجاه فلسطين قاطعًا نهر الأردن، وحاملاً روحي على كفي. الشباب الآن لا بد أنهم محبطون، وهم ينتظرون موقفي وردة فعلي، علي التحلي بالصبر، والشجاعة، والصفقة لا شك إيجابية أفضل من كل الصفقات السابقة، كان يمكن أن تكون أفضل، لكن هذا ما حصل.

في الصباح اجتمع عمر مع قدامى الأسرى المتبقين وناقشهم بالموضوع.
كان يبتسم كعادته:

- مبروك يا شباب، لقد تحرر إخوتكم ورفاقكم عقبى لنا جميعًا، حقًّا إنها صفقة جيدة، فلأول مرة يتم إطلاق سراح (1150) معظمهم من الأحكام العالية.

التفت إليه علي وقال له:

- يا عمر، أنا لا أفهم بقاء بعض الأسرى من أصحاب الأحكام المؤبدة الذين أمضوا سنوات خلف القضبان خارج الصفقة.

فقال له عمر:

-يا علي، الإيجابيات تمسح السلبيات، والثورة مستمرة، ولن يطول انتظارنا.

فقال الأسير اللبناني سمير قنطار:

- لا تقلق يا عمر، نحن معك صامدون.

نظر أحد الأسرى إليهم وقال:

- الآن بعد خروج معظم نزلاء نفحة، فنحن بحاجة إلى ترتيب أوضاع السجن، وتحديد قيادة جديدة قبل أن تستغل الإدارة الوضع.

فرد عليه عمر قائلاً:

- صحيح، ولا بد أنها ستجري الآن جملة تنقلات جديدة بين السجون.

وقف علي وبدأ يسير داخل الساحة لفترة لوحده، كأنه شارد الذهن، غير مصدق أن أحلامه تتحطم دون أن يستطيع مقاومتها، شعور مقلق يتملك الإنسان لحظة يرى إخوة ورفاق دربه يغادرون الأسر ويتركونه وحده يصارع السجان دون سبب مقنع.

بعد فترة عاد إلى غرفته كأنه سئم المشي، استلقى على السرير، وبدأ يدقق في السرير العلوي فوقه كانت صورة خولة هناك معلقة أسفل السرير العلوي في مواجهته. ابتسم لها وصار يحادثها كأنها تجلس أمامه:

خولة، أعتذر أنني ربطتك كل هذه السنوات، كنت أحلم بالحرية، وكان أملي بها كبيرًا، كانت الثورة بريقًا يملأ سماء فلسطين، ولم أتصور أن هذا البريق سوف يخبو يومًا، وأن حلمي سوف يصبح مجرد وهم أو قريبًا من الوهم.

لا، لا، لم أفقد الإيمان بالثورة، ولا بالأمل، ولكن يبدو أن الأمور لا تسير حسب أحلامنا، ولا حسب أمانينا، العالم تغير والأحلام تتغير، أنا قدري أن أظل بالسجن لا أدري ربما لسنوات أخرى لا يعلم أحد عددها.

هل أحبسك معي؟ أم أطلق سراحك من أسري؟ آخ يا خولة، أليس الأفضل أن يتحرر أسير من أن يظل اثنان في الأسر؟ ماذا تقولين؟ ستنتظرينني؟ كم سنة؟ ربما لا أخرج! من يدري يا حبيبتي ماذا تخبئ لنا الأيام؟

لا تلوميني على أفكاري، لا، لم أغير رأيي فيك، أنا أحبك، أحبك، والله أحبك، ولكني لا أريد أن أجعل من حبي قيودًا لك أحدد فيها حريتك، وأكبلها، كما كبلتها كل السنين الماضية، أنا أطلق سراحك، وأرجوك لا تفهميني خطأً، ولكن لا داعي لأن تنتظريني أكثر من ذلك.

كان علي يتحدث إليها ودموعه تسيل من عينيه. دخل عمر الغرفة ورآه بهذه الحالة فاقترب منه، جلس على طرف السرير ونظر إليه ثم قال:

- علي، ليس عيباً أن يبكي الرجال، ولكن المهم ألا تُهزم.

فمد علي يده إلى عمر الذي صافحها. شد كل منهما على يد الآخر.

قال له علي:

- يا عمر، هذه ليست دموع الهزيمة...

- أعرف، أعرف أنك محبط، فقد كنت تتوقع أن تفرح مع خولة التي مضى على انتظارها لك خمس سنوات، وهذا حق لك، ولكن حلمك لم يتحقق الآن، لقد تأجل، آه يا علي!! كم أمّ فلسطينية كانت تحلم بمستقبل أولادها عندما جاء التتار الجدد قبل أربعين عامًا وحولوا حلمها إلى سراب؟! كم فلسطيني كان يحلم أن يجني برتقال بيارته فصار مشردًا في الشتات يحلم بعودة لن يراها بحياته؟! كم زوجة كانت تحلم بعودة زوجها فلم يعد؟! كم...

قاطعه علي:

- لا تكمل، أعرف يا عمر، أعرف كل ما تقول، لم أذرف الدمع لأنني بقيت هنا، يكفيني أنني معك، ومع سمير قنطار، وسليم الزريعي، وكل الشباب، لكنها لحظات تنطلق فيها المشاعر الإنسانية في خيالها، وأحلامها، ترى هل أخطأت حينما ارتبطت بخولة؟

- لا يا علي، لم تخطئ، إنك تدفع ضريبة الوطن عن قناعة، وهي تشاركك التضحية عن إيمان.

- ولكن، إلى متى يا عمر؟ هل بقي أمل في التبادل؟

- عندما اقترنتما قبل خمس سنوات لم تكن هناك صفقة على الأبواب.

- خمس سنوات ونحن ننتظر ذلك الأمل، فمتى سيأتي أمل جديد؟ أراه بعيدًا، فبعد ما جرى في السنوات الأخيرة أرى الأمل أكثر بعدًا.

- هل تغير الكثير يا علي؟

- بعد كامب ديفيد كل شيء تغير. إسرائيل احتلت لبنان، والإخوة في الثورة تقاتلوا، واللبنانيون مختلفون، والفصائل اللبنانية والفلسطينية تتصارع... أين بريق الأمل؟

- ما زال قريبًا.

ضحك عمر ثم تابع حديثه:

- كما يقول عرفات: على مرمى حجر.

- كأن حجر عرفات في يدٍ إذا رمته لا يجد أرضًا يستقر عليها فيسقط في البحر.

- إنه بحر فلسطين.

- يعجبني تفاؤلك يا عمر، إنك تواسيني.

- أنا متأكد أن خولة الآن قلقة عليك أكثر من قلقك عليها.

- كم أنا مشتاق ليوم الزيارة.

- حاول أن تشد عزيمتها، ستكون في وضع صعب، لا تشعرها بقلقك، كن دائمًا قويًّا أمامها، أنت لم تعد فارس أحلامها فقط، بل رمز العنفوان، والصمود، أنت لها الأمل، والحياة، استقبلها بابتسامة عريضة، وبكلمة حلوة تنتظرها منك.

- لا تقلق، سأكون كما تريد، شكرًا لكلماتك الرائعة، أنت يا عمر لست فقط قائدنا، أنت ملهمنا، كأني أراك أخًا كبيرًا يمنحنا الحنان، ودفء العاطفة الذي يبحث عنه كل أسير، لا أدري كيف سنكون لو لم تكن معنا؟!

- لو لم أكن فأنا واثق أنك ستكون الأب الحاني على الجميع.

فجأة دخل سمير قنطار الغرفة ثم قال:

- هل هناك اجتماع سياسي؟

فقال له علي:

- لا، لا يا سمير، كنا نتناقش بأمر التبادل، علي محبط بعض الشيء، تعال واجلس.

قال سمير لعلي:

- لا تترك للرياح أن تجرفك معها، قدرنا أن نصنع معًا ملحمة الصمود، ونكون الوجه المشرق لشعبنا وأمتنا.

صمت ثم قال مداعبًا:

- هل مللت صحبتنا؟ دعنا نستغل الفورة ونشم قليلاً من الهواء النقي. لماذا أنتم هنا؟! هيا بنا إلى الساحة.

فقال عمر:

- هيا بنا.

(25)

في زيارتها الأولى بعد التبادل، سلمت علية بحرارة، شدت على أصابعه، حاولت أن تخفي دمعتها، قالت له:

- ستكون على رأس القائمة القادمة.

- المهم أن أراك دائمًا، وسأكون مستعدًا لتحمل كل قهر الأسر والسجان.

نظرت أمه إليه وقالت:

- لقد خذلوك يا بني، ولكن لا تفقد الأمل. خل أملك بالله دائمًا.

- لا إله إلا الله.

- محمد رسول الله.

كانت الأسرة كلها حاضرة؛ الأب، والأم، وسعيد، ورحاب، وخولة، وعمه صادق. لأول مرة يحضر منذ مدة طويلة، كان بجانبه سمير الذي سجل بعض الحضور أسماءهم على قائمته.

قال سعيد الذي كان مواجهًا لسمير:

- التبادل القادم قريب، لن يطول أسركم، نريدكم أقوياء.

فقال له مبتسمًا:

- لا تقلقوا علينا، نحن بخير، معنوياتنا عالية، كلنا فداء فلسطين، لقد جئت إلى فلسطين مقاتلاً من أجل تحريرها. كنت أتوقع الشهادة في كل لحظة، ولكن الله شاء أن أكون مع عمر وعلي لأراكم.

وأشار له بإشارة النصر، ثم أكمل قائلاً:

- سننتصر، المقاومة لن تنهزم، قد تظهر بأشكال جديدة، ولكنها لن تموت ما دام الاحتلال جاثمًا على أرضنا.

انشغلت الأسرة بسمير وكلماته الحماسية، كانت أعصابه قوية، وكانوا معجبين به، ذلك الأسير اللبناني العنيد الذي التحق بالمقاومة الفلسطينية يحقق بذلك وحدة الدم العربي ضد الاحتلال، وليؤكد أن تقسيمات (سايكس بيكو) لا تغير من أحلام الشعوب شيئًا.

قال علي لخولة في غمرة انشغال الأهل بكلمات سمير والحديث معه:

- خولة، أريد أن أقول لك شيئًا قبل انتهاء الزيارة؛ أخاف أن يكون التحرر من الأسر بعيدًا! أخاف أن يكون مجرد سراب، ما رأيك...؟ لا أدري كيف أقولها، ولكني أشعر أنك ربطت نفسك مع أسير سيطول أسره، من يدري ربما لن...

قاطعته بسرعة:

- لا تكمل، علي، لا تكمل يا حبيبي.

نظرت إليه وعيونها تشع حبًّا وأملاً ثم قالت له:

- لا تكمل، لا تقلها، لا، سوف تتحرر، سنلتقي، سأعانقك يومًا وأضمك إلى صدري. لقد اخترتك عن قناعة، ولن أتنازل عنك، ولا أسمح لك أن تشعر بالغبن. أنا سعيدة معك. من قال إنني غير سعيدة؟! تكفيني رؤيتك في الزيارة...

صمتت ثم تابعت:

- علي، عندما أراك أشعر بالسكينة والهدوء، وأشعر كأنني في جنة النعيم، أنا لا أعيش إلا على أمل اللقاء بك في الزيارة القادمة. حياتي بدونك لا معنى لها، ولا قيمة، أنت معناها وأنت من جعل لها قيمة، أسرك يمنعني من رؤيتك، ولكنه لا يمنعني من حبك، لو كانت لدي شعرية نزار قباني، أو محمود درويش، لكتبت فيك أجمل قصائدي.

مد علي أصابعه من بين الشبك الحديدي فصافحتها بأصابعها، وشدت عليها بحرارة، فشعر كأنها عانقته، أحس بكل أصابعها، أحس كف يدها الذي مررته فوق رؤوس أصابعه، كان يلمس فيها كل ما لم تقله له. قال لها:

- ولكن...

- بدون ولكن.

- أحبك يا خولة، أحبك.

- وأنا أيضًا، قلها ولا تخف.

ابتسم علي ثم قال بسرعة:

- أحبك، أحبك، أحبك.

تقدم بشفتيه نحو القضبان فقابلته بشفتيها وطبعا قبلة نصفها على حديد القضبان.

انتبه الأهل، فعلّقت رحاب قائلة:

- يا عيني، يا عيني على العشاق.

ضحكت خولة وقالت:

- نحن عشاق حرية.

فقالت أمه:

- أرجو الله أن تتحرر قريبًا، وأراك مع خولة في بيت واحد.

كان عمر القاسم بجانبهم فقال لأم سعيد:

- لن يطول انتظارك يا أم سعيد. قريبًا سيكون علي في حضنك. علي في عيوننا، نحن هنا في الأسر عائلة واحدة. المهم أنتم، أخباركم هي ما يشغلنا، بلّغوا أبناء شعبنا أننا عند حسن ظنهم، صامدون، مرفوعو الرؤوس، والمسيرة مستمرة.

(26)

نزل عمران من مقر جريدة الفجر على عجل بينما كانت رحاب صاعدة.

قال لها:

- هل أنت مشغولة الآن؟

- لا، ماذا تريد؟ يبدو أنك قلق.

- الحقي بي.. هناك مسيرة ستخرج بعد قليل في باب الساهرة علينا تصويرها قبل أن يفرقها الجيش.

- ما المناسبة؟

- أنسيت؟ اليوم ذكرى مجزرة صبرا وشاتيلا.

- حسنًا هيا بنا.

كان يحمل كاميرا وآلة تسجيل صغيرة. قال لها:

- احملي آلة التسجيل، أنت سجلي اللقاءات وأنا سأصورها.

حملت المسجل، وسألته:

- وكيف عرفت بالمسيرة؟

ابتسم وقال لها:

- رحاب، هذه أسرار المهنة، قلت لك عملنا يحتاج إلى شبكة علاقات واسعة، والأهم منها الثقة من المصادر التي أتعامل معها.

- لهذا تخفيها عني؟

نظر إليها وقال:

- رحاب، لا أخفي عنك شيئًا، لهذا استعنت بك اليوم، أنا لست كالصحافيين الآخرين.

- صحافي ثائر؟!

- عاشق الصحافة؟

- ممم... يمكن قول ذلك.

- يبدو أنك تعشق شيئًا آخر؟

- أتشكّين بذلك؟

- لكن لم أعرف شيئًا بعد.

نظر إليها وقال:

- عاشق رحاب.

- رحاب مرة واحدة؟

- وهل يجب أن أصعد السلم درجة إثر درجة؟

- كي لا تقع، فلم يمر على تعارفنا سوى عدة شهور.

- وهل يجب أن تكون عدة أعوام؟ نحن في سباق مع الزمن.

- حتى في الحب؟

- حتى في الحب.

وصلا باب الساهرة. كان الطلبة يتجمعون هناك، رفعت أعلام فلسطين، وأعلام سوداء، وتحركت الجماهير باتجاه مقبرة باب الأسباط يتقدمهم رجال دين مسلمون ومسيحيون.

قال لها عمران:

- رحاب بدأ العمل، قد نضطر للافتراق إذا هاجمنا الجيش، إياك أن تفقدي المسجل أو يصادروه منك، اذهبي إلى الشيخ عكرمة هناك واسأليه بعض الأسئلة عن المسيرة والمناسبة، وأنا سألتقط له عدة صور.

عندما وصلت المسيرة إلى المقبرة الأولى فوجئت بسيارات الجيش والشرطة تحاصرها، والخيالة يلاحقون حاملي الأعلام، كانت المسيرة سلمية لم تستخدم العنف، ولكن الجنود هاجموها، فجأة لاحظ عمران بعض الجنود يهجمون على امرأة تحمل العلم الفلسطيني لينزعوه منها، فقاومتهم، فبدؤوا بضربها بالعصي، سقطت على الأرض، فهب أحد الشبان ليساعدها بالنهوض فانهالوا عليه بالضرب. كان عمران يصور كل تلك اللقطات، انتبه إليه أحد الجنود فلحقه ليصادر الكاميرا منه،

ولكنه هرب بين الجماهير المحتشدة، فأشار الشرطي إليه وقال بالعبرية لزميل له أن يساعده في القبض عليه ليصادر الكاميرا، ولكن أين يذهب والجيش يحاصرهم من كل جانب، فجأة لمح رحاب فقال لها:

- الشرطة تلاحقني، امسكي الفلم، ضعيه في جيبك، ثم تابع سيره.

ظلوا يلاحقونه حتى أمسكوه، صادروا الكاميرا منه، وضربوه، ثم تركوه مرميًّا على الأرض والدم يسيل من رأسه.

اقتربت منه رحاب، فقال لها:

- اهربي قبل أن يعثروا على الفلم معك.

- هل أتركك تنزف؟

- لا تخافي، فالشباب سينقلونني إلى مستشفى المقاصد.

بعد ساعة وجد عمران نفسه في مستشفى المقاصد والصحافيون بجانبه، وبعض العاملين في جريدة الفجر.

- الحمد لله على السلامة، الكاميرا فداك. سأله أحدهم:

- هل استطعت أن تهرب الفلم؟

هز رأسه مبتسمًا.

- كيف؟

- أسرار المهنة.

ضحكوا جميعًا، وتمنوا له الشفاء.

بعد ساعات، فتح الباب، فدخلت رحاب تحمل باقة ورد صغيرة:

- الحمد لله على السلامة.

- رحاب، شكرًا لحضورك، هل وصل الفلم سالمًا؟

- ولو؟!

- كيف اخترقت به كل حواجز الجيش والشرطة؟

ضحكت وقالت له:

- أسرار المهنة، هاهاها.

- لم أكن أعلم أنك بهذه الجرأة.

- لأنني امرأة؟

ضحك ثم قال:

- لا، ولكن لأنك لم تكتسبي الخبرة الكافية بعد.

- وهل غيرت رأيك بي الآن؟

- بالتأكيد، أنت تعرفين موقفي من المرأة، أنا ضد كل هذه القيود التي تحيط بها، للمرأة الحق في أن تعبّر عن رأيها، وتعمل، وتمارس حياتها مثل الرجل، وعلى رأس تلك الحقوق اختيار شريك حياتها.

صمت ثم تابع:

- مشكلتنا في بلادنا أن المرأة تنتظر فارس أحلامها حتى يأتيها، كل ما تفعله أن تثير انتباهه لعله يراها ويعجب بها فيتقدم لها، لا يحق لها أن تسأله، أن تناقشه، إنه العار أن تسأل المرأة الرجل على الزواج، بل هو من يجب أن يفاتحها بذلك.

هز رأسه ونظر إليها ثم سألها:

- ألا تشعرين بقمة التخلف في هذا المجال؟

فقالت له:

- أنتم الرجال تضعوننا في القيود متى شئتم وتحرروننا متى أردتم على الورق، وفي قصائد الشعر، ولكن في الواقع المرأة ما زالت رهينة لمجتمع الرجل.

- لماذا لا تحطم قيدها؟

- إنها تحاول، ولكن القيد قاس، لا يمكن تحطيمه بسهولة، هناك نساء يستعذبن تلك القيود وكأنه قدر لا بد منه.

-هل تريدين أن تقولي أننا نحكم سيطرتنا عليكن؟!

- في كل شؤون حياتنا، حتى ملابسنا من إنتاج الرجال وتصميمهم.

ها ها ها، ضحكا معًا.

- أشعر عندما أتحدث معك أنك تحملين أفكاري. كنت أعتقد أنني سأواجه صعوبة في العثور على امرأة ألتقي معها في الحياة، ولكن.. القدر ساقك إلي، أو ساقك في طريقي. ترى متى يتحقق حلمنا...؟

- حلمنا؟ أي حلم؟

- حلمنا في أن نكون معًا؟ أقصد في بيت واحد.

- قلت لك لم نتعرف إلى بعض ما فيه الكفاية.

- لماذا؟ ماذا ينقصنا؟ أنت فتاة ناضجة أنهت دراستها الجامعية، وأنا كذلك، لسنا بحاجة إلى من يرشدنا إلى الطريق الصحيح.

- نريد أن نقتنع أولاً أن ما نقدم عليه سيدوم، ولن ينتهي إلى الفشل، لم أعرفك جيدًا، ولم تعرفني بما يكفي...

قاطعها قائلًا:

- رحاب... ليس مهمًا أن أعرف كل تفاصيل حياتك، أنا لست كالشباب الآخرين، ما يهمني أنت الآن كما أنت، لماذا على الرجل أن يدقق في تفاصيل حياة المرأة كأنها ستكون ملكًا من أملاكه؟ ما سبق من اختصاصك، كما أن ماضي حياتي من اختصاصي.

- الرجال دائمًا يتساهلون في البداية ويطلقون الأحاديث المعسولة أمام النساء، ولكن فيما بعد يبدؤون بالتشدد وإحكام القيود.

- كيف؟

انظر كيف تعامل المرأة المطلقة في بلادنا كأنها نصف امرأة. الرجل إذا تزوج لا يبحث إلا عن المرأة العذراء التي لم تعرف شابًّا غيره...

قاطعها وقال:

- ولكني لست كهؤلاء الناس، أنا أرفض كل تلك العادات التافهة، وأثور ضدها، وكنت دائمًا ضدها ما جعلني أتعرض لانتقاد مجتمع الرجال.

- هل تريد أن تقول لي إنك ممكن أن تتزوج امرأة مطلقة؟

- لو كنت أحبها، لكني وجدت من أحب.

- ومن يا ترى؟

- رحاب، تعرفين أنها أنت.

- وماذا لو كانت رحاب امرأة مطلقة؟

- ضحك وقال:

- وهل تريدين امتحاني؟ حتى لو كانت امرأة مطلقة.

- هل هو مجرد حديث انفعالي؟

- كلا إنه الصدق، أنت لم تعرفيني بعد.

- ألم أقل لك دعنا ننتظر قبل اتخاذ قرارنا.

- أقصد لم تعرفيني جيدًا قبل الآن.

- عمران.....!

- رحاب، أنا بحاجة إليك.

-هل أنت بخير الآن؟ كيف تشعر؟

- الإصابة متوسطة، أشعر بتعب وإرهاق، ولكني سعيد أنك نجحت في تهريب الفلم. هل أرسلت الصور إلى الوكالات العالمية؟

- كأنني لست صحافية؟ أرأيت؟ أنتم لا تثقون بالنساء.

ابتسم ثم قال:

-كلا، ولكن أردت أن أطمئن أن مجهودي لم يذهب سدى.

- لم يعد مجهودك وحدك الآن.

نظر إليها بتعجب، وحرك حاجبيه، ثم قال:

- حقا إنه جهدنا المشترك، لقد قمت بنصف المهمة، لعله فاتحة علاقتنا المشتركة.

- عدت إلى نفس الأسطوانة.

- إنها أسطوانة جميلة يا رحاب، كم من الأغاني نحب سماعها كل صباح ولا نملّها؟ أليس كذلك.

- ربما نملّها بعد زمن.

- كلما مر عليها الزمن وأصبحت قديمة اكتسبت أهمية أكبر لأنها تصبح جزءًا من ذاكرة وأحلام قديمة، ألا ترين كيف يبحث الناس عن الآثار القديمة ويدفعون بها أغلى الأسعار!

- لم تعد صحافيًّا يا عمران!

- من يعمل معك، يتسع خياله.

- هل أصبحت ملهمة...؟

- أنت الفضاء الكوني الواسع الذي يسع كل شيء.

- عمران أنت تبالغ.

- وأنت تتهربين، لماذا؟ هل ثَمَّ أحد في حياتك؟

- لا يا عمران... لا أحد.

- إذًا لماذا ترفضين؟ هل...

- لا هل، ولا مَلْ... أنا أعتقد أن الحديث في الزواج مبكر.

- وماذا ننتظر؟

- أن نتعرف إلى بعض أكثر.

- أنا مكتفٍ بما عرفت عنك.

صمتتْ. فأكمل قائلاً:

- رحاب، أرجوك لا ترددي، أنا بحاجة إليك.. سأكون نِعم الزوج.

- ترى...

- أكملي، ماذا تريدين القول؟

صمتت كأنها تراجعت عما تريد قوله:

- بعد خروجك من المستشفى سيكون متسع من الوقت للحديث.

- أنت تتهربين مني، يبدو أنك على علاقة...

- قلت لك ليس لي علاقة مع أحد.

- إذًا لماذا الهرب؟

قاطعته:

- تذكر أنني لم أوافق ولم أرفض.

- في المنطقة الرمادية؟

فجأة طرق الباب، فتح ودخل ثلاثة شبان يحمل باقة ورد، سلموا على عمران، وعانقوه وهنأوه بالسلامة:

- الحمد لله على السلامة يا بطل.

- أشكركم جميعًا، الله يسلمكم. أعرّفكم زميلتي في الجريدة رحاب النجار.

- الصحافية الجديدة في الفجر؟

- الصحافية الأولى الآن.

نظر إلى رحاب وقال لها:

- زملائي من جريدة الشعب: جهد يعيش، وأحمد الكالوتي، وعدنان الأسمر.

- تشرفنا.

سلموا عليها، وبعد ذلك استغلت الفرصة وقالت:

- أستأذنكم لدي عمل في الجريدة.

هز عمران رأسه وقال لها:

- شكرًا لحضورك، وإن شاء الله أراك غدًا.

تركته وغادرت، وهي تردد بداخلها، سأراك غدًا... غدًا؟ كأنه يقول لي عودي غدًا، يريد أن يكرر علي الأسطوانة نفسها؛ الزواج.. هل أنا مستعدة للزواج؟ كيف سأتزوج؟ هل أعترف له؟ وماذا لو عدل عن رأيه؟ أكون عندها قد أفشيت بأسراري للناس؟ هل كلما جاءني عريس يجب أن أعترف له؟ هل يعترف الرجال عن ماضيهم للنساء؟ ولكن رحاب أنت لم تكوني على علاقة مع رجل، أنت كنت متزوجة، هل تستطيعين نفي ذلك؟ لا أحد يعرف، لا سجلات، ولا أوراق،،ولكن.. لكن ماذا؟ الصدق.. أين الصدق في العلاقة الزوجية؟ لهذا أرفض الزواج، ولكن إلى متى؟ فأمي دائما تقول لي: جاء فلان يخطبك وأم فلان تسأل عنك. إلى متى سأتذرع بهذا وذاك؟ عمران يبدو أنه شاب متحرر سيستوعب الموضوع، هل أعترف له بزواجي القديم الآن؟ لكن لو قلت للمأذون إنني كنت متزوجة سيموت أبي قهرًا. لا أعرف أين الصح من الخطأ! لا أعرف! رأسي مثقل بالهموم والأحزان.

اقتربت منها سيارة أجرة الطور- باب العامود، فركبت السيارة متجهة إلى باب العامود.

(27)

جاء ممثل المعتقل في المساء ليخبر عمر القاسم في غرفته رقم (1) أنه سينقل غدًا إلى سجن الرملة للعلاج. كان عمر يشعر بآلام في المعدة، فقد أصيب بقرحة تحتاج إلى علاج، ولكن الإدارة تماطل في علاجه؛ تريد الانتقام منه، تريد تحطيم معنوياته لينكسر أمام الأسرى الذين يرون فيه رمزًا وطنيًّا، وقائدًا في الأسر، شارك في إضرابات كثيرة عن الطعام، وكان محبوبًا من الجميع، وصديقًا لكل التيارات والاتجاهات السياسية.

ذلك هو السجن، لا يعرف المسافر فيه متى سيعود، فقد ينقلونه في كل لحظة، ومستشفى سجن الرملة، هو سجن أكثر منه مستشفى، يزيد الأمراض أكثر مما يعالجها. أبلغهم أن يخبروا أهله عن طريق الزوار أنه موجود في مستشفى سجن الرملة.

في الصباح الباكر نودي عليه ونقل وحيدًا مقيدا في سيارة شرطة نوع (فان) إلى الرملة.

الطريق طويلة، والجو حار، لا ماء، ولا غذاء، وكلما سألهم عن ماء قالوا له بعد قليل، حتى لم يعد يسأل. كان يعرف أنهم يعذبونه، فرجال الشرطة وحرس الحدود المسؤولون عن نقل السجناء أكثر شراسة من حراس السجن الذين ربما تفرض عليهم ظروف تواجدهم داخل السجن بين الأسرى أن يكونوا أقل عنفًا خوفًا على حياتهم من قيام أحدهم بطعنهم، لكن شرطة نقل السجناء مهمتهم فقط نقل الأسرى من سجن إلى آخر، ومزودون بأسلحة نارية، والأسرى دائمًا مقيدون لا يستطيعون المقاومة أو الرد.

كان حلقه جافًّا، ويتصبب عرقًا، ثلاث ساعات مرت على تلك الحال، كل فترة يمسح عرق جبينه بقميصه. كان يحمل كيسًا صغيرًا فيه بعض ملابسه، وأدوات تنظيف، فرشاة تنظيف الأسنان، والمعجون، وبعض أكياس الشاي، وقليلاً من السكر. كان يحلم في تلك الفترة بقطرة ماء، فقط قطرة ماء لا غير. كانوا يتوقفون كل لحظة يقضون حاجتهم، يشربون، ويتابعون السير.

وصلوا أخيرا إلى سجن الرملة، نظر من شباك السيارة المغطاة بقضبان حديدية ليرى سور السجن الطويل، ويتذكره جيدًا، فقد مر من هنا أكثر من مرة متنقلاً من سجن إلى آخر. هنا سجن الرملة، السجن المركزي لكل السجون في إسرائيل. التفت إلى اليمين ليرى عمارة سجن النساء،

بعد أن تحررن كلهن من الأسر في التبادل العام 1985 . اعتقلت إسرائيل غيرهن، ولا بد أنها الآن تحاول إذلالهن لأنهن حديثات على الأسر ولا يعرفن ما حققته اللواتي كن قبلهن.

تابعت السيارة سيرها حتى وصلت إلى باب سجن الرملة المؤدي إلى المستشفى. في هذا القسم يوجد عدة غرف يتم فيها حجز المنقولين من سجن إلى آخر أو المارين إلى المستشفى.

للأسرى عادة غرفة خاصة يسميها السجانون غرفة الأمنيين لأنهم لا يعترفون بهم كأسرى حرب، وبالعبرية يسمونهم (بتحونيم)، وأحيانا يطلقون عليهم اسم (حبلانيم) أي المخربين.

أنزلوه من السيارة، فكوا قيوده، ونقلوه إلى غرفة الأسر، في قسم التنقلات أو بالعبرية (المعفار)، وقد اشتهر باسمه العبري حتى لدى الأسرى أنفسهم.

القسم مظلم ليس له شبابيك خارجية ويعتمد على الإنارة الداخلية، ممر ضيق، عدة غرف، ومكاتب على الجانبين تنتهي بباب يؤدي إلى غرفة للزيارات بدون قضبان، وثم ممر إلى السجن. الذي يسمح له بالزيارة في المستشفى يزور هنا بدون قضبان، هذا إذا سمح له بالزيارة.

دخل عمر القاسم حاملاً كيسه معه وباديًا عليه التعب، ووقف الشباب كعادتهم كلما فتح الباب لاستقبال قادم جديد، بدؤوا يسلّمون عليه.

- عمر القاسم، سجن نفحة.

- أهلا بالحبيب عمر.

- أهلا بالأخ عمر، سمعنا عنك الكثير.

اقترب منه أحد الشباب من سجن عسقلان اسمه سعيد الصالحي وعانقه قائلاً:

- كنت أتمنى أن أراك. سبحان الله، وها أنت أمامي!

- أهلاً بكم جميعًا، التقائي بكم يخفف عني كل مرض.

سلم عليهم جميعًا، وقال لهم:

- اعذروني لحظة فأنا مضطر لاستخدام الحمام، لقد رفض السفلة طوال الطريق أن أستخدم الحمام أو أشرب الماء.

بعد دقائق عاد مستريحًا، كان مبتسمًا، جلس على طرف أحد الأسرة وتجمعوا حوله يستفسرون منه عن أوضاع سجن نفحة..قال لهم:

- أوضاعنا في سجن نفحة كانت مقبولة مقارنة بما آلت إليه بعد صفقة تبادل الأسرى، فبعد أن تغير وضع السجن وأفرج عن معظم الأسرى فيه وتم نقل بعض الأسرى من سجون أخرى، حاولت الإدارة سحب الكثير من المكاسب التي كنا قد حققناها سابقًا، مثل منع زيارات الغرف، ومنع التنقل إلا بأمرها، ولكننا بعد ترتيب الأوضاع تصدينا لها، واتخذنا العديد من الخطوات الاحتجاجية، فتراجعت عن قراراتها، ولكنها

تهاجمنا بطرق أخرى. كنا نشكو من سوء التغذية وقلة المواد المسموح بها، وها هي اليوم تسمح بإدخال الكثير من المواد الغذائية، وفي المقابل تقلل كمية الغذاء التي تقدمها لنا، تريدنا أن نشتري أكلنا على حسابنا.

تقدم أسير من عسقلان وقال:

- نحن وضعنا في عسقلان ليس أفضل، ولكن الأسرى يشعرون بالراحة بعد السماح بحيازة أجهزة الراديو الترانزستور بعد أن ظلت ممنوعة لسنوات.

فعلق آخر من سجن جنين:

- أصبحنا نسمع الأخبار براحتنا.

- وحتى الأغاني.

ضحك الجميع.

بعد ذلك طلب شاويش الغرفة من الأسرى التفرق ليسمحوا للأسير الجديد بالاستراحة بعد تعب من السفر، وحدد له سريره بعد أن نقل أحد الأسرى إلى مكان آخر.

تفرق الشباب في الغرفة الضيقة التي تعج بالأسرى. اقترب مسؤول الغرفة، والذي عادة يطلق عليه الأسرى لقب شاويش، وانفرد به في زاوية الغرفة الخفلية، وراح يسرد له وضع الأسرى:

- لدينا سجين من جنين اسمه مازن الفحماوي عليه شبهة أمنية، وقد سلم نفسه للإدارة، ثم وافق على العودة، وهناك سجين آخر يدّعي أنه قطع علاقته بالمخابرات ويطلب التوبة.

هز عمر رأسه، وقال له:

- لا تقلق، سنتابع الأمر معًا.

فرد عليه:

- لم نستطع فعل شيء، فكلنا هنا من الأحكام الخفيفة، ولا نريد أن يتورط معهما أي أسير فتضاعف المخابرات له الحكم.

كان عمر محكومًا بالسجن المؤبد و27 سنة، وفي العادة فإن الأعمال الكبيرة كالتحقيق مع العملاء أو الاقتصاص منهم يتم إسنادها لمثل هؤلاء الأسرى لأنهم عندما يواجهون بأحكام جديدة لا تؤثر شيئًا عليهم لأن الحكم المؤبد في إسرائيل للأسرى معناه السجن حتى الموت، أو التحرر من الأسر بصفقة تبادل الأسرى.

استمع عمر للمعلومات عن الجاسوسين، وكان شخصيًّا يعرف عنهما من قبل، فقد اطلع وهو في نفحة على تقارير عنهما خصوصًا مازن الفحماوي الذي كان له دور في إسقاط بعض الفتيات في فخ المخابرات الصهيونية.

في المساء التقى مع الجاسوس الأول فؤاد النسيم، فأكد له أنه تاب عن

أعماله، وأنه يشعر بالعار والمهانة، ومستعد مقابل الأضرار البسيطة التي ألحقها بالثورة أن يقوم بأي عمل يكفر فيه عن ذنبه.

نظر إليه عمر وقال:

- إن كنت صادقًا ستواجه امتحانًا.

- أنا رهن إشارتك، أنا مستعد لعمل أي شيء شريطة أن أعود إلى الصف الوطني. أنا تافه، حقير، كلب، ومستعد لقتل شرطي إن أردت.

- قتل شرطي سيعرض كل الأسرى للعقاب.

- مرني ما تريد؟

- حسنًا، سأعلمك غدًا ماذا سنفعل.

تركه وعاد إلى شاويش الغرفة وأطلعه على ما جرى، ثم قال له:

- سأبدأ بعد قليل التحقيق مع مازن الفحماوي في زاوية الغرفة، فأرجو أن تجلس مع الشباب في المقدمة وتنشدون بعض الأناشيد حتى لا يسمع صوتنا أحد.

كلف بعض الشباب بمراقبة حركة السجان، قال لهم:

- إذا حاول مازن الاتصال بالشرطة والهرب أثناء حضور السجانين للعدد يجب ضربه قبل أن يخرج.

اقترب من فؤاد وقال له:

- إليك أول مهمة؛ امسك هذه الآلة الحادة، إنها شفرة حلاقة، إذا حاول مازن الهرب اضربه بها، سأضربه معك، ولكن يجب أن لا نتركه يهرب.

- أمرك.

اقترب عمر القاسم من مازن وطلب منه الانفراد بالزاوية للحديث. أحس مازن بأن شيئًا يعد له، لكنه لم يكن يستطيع فعل شيء، فهو في غرفة مزدحمة بالأسرى. ثلاثون أسيرًا في غرفة لا تزيد عن خمسين مترًا مربعًا فقط. الحمام فيها من مخلفات الإنجليز، قديم جدًّا، والماء بارد. ما يميز الغرفة أن نزلاءها من سجون مختلفة يقضون وقتهم في التعارف، وتبادل الأخبار، والرسائل.

حمل عمر ورقة وقلمًا، سلّم على مازن، وعندما بدأ الحديث معه كان شاويش الغرفة قد جمع الشباب في المقدمة وبدؤوا معًا ينشدون نشيدهم المشهور:

جانا وجانا ويابا جانا - الجيش على الدار جانا

ولا تخافي يا يما - ولا تكوني زعلانه

وتذكري يوم أجا الجيش - بنص الليل أخذوني

لا خلوني أودعكم - ساعة الاعتقال حانا

(28)

بعد الظهر ساعة القيلولة، أو ساعة الهدوء، الأسرى يقضونها في الدراسة، أو القراءة، أو النوم أحيانًا، المهم أنها ساعة هدوء تام لا تسمع فيها همسًا ولا حديثًا، فالكل يحترم النظام، وقوانين الأسرى تسري على الجميع، لا أحد يستطيع خرقها، بخلاف سجون المجرمين العاديين حيث الفوضى وسيادة البلطجة. النظام تحدده لجنة المعتقل التي يعدها الجميع المرجع الأساس لأي خلاف.

كان علي في غرفته الأولى مع عمر القاسم الذي رحل إلى المستشفى للعلاج. إنه صديقه الأقدم بعد صفقة التبادل، فقد عرفه في عسقلان ثم سجن الرملة ثم سجن نفحة.

عانيا معًا كل صنوف القهر والإذلال، وخاضا كل الإضرابات، واصطدما مع السجانين، وأخيرًا كان قدرهما أن يكونا خارج صفقة التبادل. أقدم أسيرين في السجن، يعيشان مع الآخرين على أمل التحرر

في صفقة التبادل القادمة. استلقى علي على السرير السفلي لينام كعادته نصف ساعته المعهودة، ولكنه لم ينم. طار النوم من عينيه. نظر إلى السرير المقابل الفارغ وقال كأنه يخاطب عمرًا: لتعد لنا بالسلامة يا عمر، ليرعاك الله، ويحفظك من كل مكروه وحقد، إنك لنعم الأخ، نعم الصديق، لقد أحسست بفراغ في غيابك، لا أعرف كيف أنت الآن، لكنني أثق بحكمتك وخبرتك في إدارة الأمور.

بدأ يقلب الأفكار في رأسه، يتذكر عندما أسر قبل 16 سنة، كان في سجن عسقلان مع طلائع الأسرى الذين تحملوا من الإذلال ما لم يتحمله الأسرى في سجون النازية.

كانوا يمنعوننا من ممارسة الرياضة، ومن التجمع في الساحة أكثر من اثنين، كنا ننام على الأرض على قطعة مطاط يسمونها (جومي) سمكها حوالي 1 سم، ونستخدم أحذيتنا كوسائد لعدم توفر الوسائد، فكانت أضلاعنا دائمًا متعبة من النوم على الأرض، ودائمًا يصرخون بنا، ويعتدون علينا، ويمنعوننا من الخروج من الغرف سوى ساعة يوميًّا، وعلينا خلالها السير بشكل دائري كل اثنين معًا، لا نستطيع التحرك بحرية. آه يا لها من أيام، ذقنا فيها الويل، نحن الآن ننام على أسرة حصلنا عليها بكفاحنا، هذا السرير المزدوج الذي أنام عليه قدمنا الشهداء لنحصل عليه! كم من الإضرابات خاضت أمعاؤنا، وكم من زيارات الأهل أضربنا عنها!

إضراب سجن عسقلان في العام 1970 كان إضرابًا شرسًا استمر حوالي خمسين يومًا. يا إلهي، كدنا نموت جميعًا. رحم الله شهيدنا البطل عبد القادر أبو الفحم من غزة بطل من أبطال قوات التحرير الفلسطينية التابعة لمنظمة التحرير استشهد في معمعة الإضراب.

قافلة طويلة من الشهداء يصعب تعدادها؛ عبد القادر أبو الفحم، إسحاق مراغة، علي الجعفري، راسم حلاوة، علي الشطريط، أنيس دولة، قاسم أبو عكر... تُرى من الشهيد القادم؟ أأكون أنا؟ أم أنني سأحقق حلمي بالتحرر لأعوض خولة عن سنوات حرمانها. يا رب، لماذا يتعذب الأبرياء في أرضك ويسود المحتلون، المجرمون؟! لن أفقد الأمل، لا.. لن أفقده.

حمل الراديو الصغير الذي اشتراه بعد السماح لهم بامتلاك أجهزة الراديو. وضع السماعة الصغيرة في أذنه كي لا يزعج أحدًا، وبدأ يقلب المحطات باحثًا عن خبر هنا، وآخر هناك.

فجأة سمع صوت أم كلثوم. وقف ليستمع إلى الأغنية فهو من عشاق أم كلثوم. إنها مطربة جيله، لقد تعود سماعها قبل السجن ولم يكن يسمع غيرها في سجن نفحة عبر الإذاعة الإسرائيلية، ها هي تطل عليه الآن لتنقذه من تساؤلاته، أحيانًا يحتاج الإنسان إلى من ينقذه من أفكاره التي تزيد همه همًّا.

شعر بالراحة لموسيقى عرفها وحفظها عن ظهر قلب.

الله إنها "أمل حياتي"، لم أسمعها منذ زمن طويل.

أم كلثوم تغني:

"أنت خلتني أعيش الحب وياك ألف حب

تررررم ترررررم

كل نظرة إليك بحبك، آه بحبك من جديد".

علي يحرك رأسه طربًا، إنه يشعر بالراحة يردد في سره الأغنية مع أم كلثوم دون أن يسمعه أحد:

"كل نظرة إليك بحبك، آه بحبك من جديد، وافضل أحب".

تراءت أمامه خولة في ابتسامتها؛ كان شعرها ينسدل على كتفيها، وكانت تقف على بعد أمتار منه، وعندما رأته بدأت تركض نحوه وشعرها يطير خلفها. كان النسيم يداعبه، وكان صدرها مع كل خطوة يتحرك قافزًا للأعلى ثم يعود إلى الأسفل ليبدأ من جديد. فتح ذراعيه لها ليحتضنها، يريد أن يعانقها، يعوّض سنوات الحرمان الطويلة،ويريد أن يقول لها ما تقوله أم كلثوم الآن:

"حبك يا حبيبي ملا قلبي وفكري

بنوّر ليلي ويطوّل عمري"

ظلت خولة تركض باتجاهه، وكلما اقتربت منه، وشعر أنها على بعد خطوة لا أكثر، اختفت من أمامه لتعود تظهر من جديد على بعد أمتار.

ترى لماذا لم تقترب؟ ما الذي يمنعها؟ هل تريد أن تزيد شوقي؟ لا يوجد قضبان بيننا، تكسرت القضبان، كيف يمكن للقضبان أن لا تتكسر في أحلام الحب؟! حتى في الأحلام أعجز عن معانقتها.

حاول أن يتحرك ليلتقي معها في منتصف الطريق. ركض مثلها، وعندما اقترب منها طارت كعصفورة في السماء.

خولة، لماذا ذهبت؟ عودي، تعالي يا أمل حياتي، يا من لم أعرف الحب إلا على يديك.

فجأة عادت بسرعة. حملته بيديها وطارت به إلى الفضاء. أحس بالسعادة تغمره. قال لها: وأخيرا التقينا، أحبك.

أراد أن يعانقها، وعندما هم بذلك دهمتهما غيمة كبيرة حجبت عنه الرؤية فلم يعد يراها، كأنها اختفت. هل تركته يسبح فوق الغيم؟

تحركت الغيمة من تحته. تساقطت حبات مطر فسقط معها على الأرض. الماء يتساقط عليه بغزارة. تبللت ثيابه.

خولة، أين أنت؟! في كل مرة أحتاجك تختفين، ما الذي يبعدك عني؟ هل القدر؟ أي مستقبل ينتظرنا وأنت تختفين حتى من أحلامي الجميلة؟!

(29)

عاد عمران إلى عمله في جريدة الفجر بعد أن شفي من إصابته. الشرطة الإسرائيلية ادعت أن عمران تحرش بالشرطة وهاجم أحدهم.

الكلاب من أين يأتون بهذه الأكاذيب؟ لا يريدون الاعتراف أنهم خافوا من فضائحهم التي تحملها الكاميرا. الصحافة العالمية كلها نشرت الصور؛ جنود يهاجمون بالعصي امرأة تحمل علم بلادها. ألهذا الحد يخيفهم حمل العلم؟ هذه صورة أخرى؛ شرطي يركلها بقدمه وهي ملقاة على الأرض، والعلم تحتها. وهذه صورة أخرى؛ شرطي يضربها بعصاه والدماء تسيل من وجهها وهي مطرحة على الأرض.

كان عمران يتفرج على الصور في جريدة الفجر، ويشعر بالقرف من تلك العنصرية المقيتة:

- لماذا كل هذا الحقد الأعمى؟ هذه المرأة لم تهاجم يهوديًّا، ولم تضرب أحدًا، ولم تلق قنبلة، إنها تحمل علم فلسطين، حتى لو كانت إسرائيل لا

تعترف به، فلماذا تضرب حامله؟

قالت له رحاب:

- هل تعرف أنهم اعتقلوا بعض الشباب وقدموهم إلى محاكمهم بتهمه حيازة مواد تحريضية ممنوعة، يقصدون الأعلام التي ضبطوها معهم.

- وماذا يقول محاموهم.

- سيصدرون عليهم أحكامًا بالسجن بين شهرين حتى السنة.

- يا إلهي، وهل سيسجنون المرأة؟

- ربما كانوا سيفعلون ذلك، لكن يبدو أنهم اكتفوا بما نالته من ضرب وركل.

- رحاب، هل سجلت لقاء معها؟

- طبعًا، وسينشر غدًا في فلسطين الثورة في الخارج.

- هل منعوا نشره في (الفجر)؟

- وهل تعتقد أنهم سيسمحون بنشره والرقابة تقص معظم أخبارنا ومقالاتنا؟ أنسيت؟

- لا، لم أنس، هؤلاء المجرمون يعتدون علينا ويحرموننا من الصراخ، لا يريدون أن يسمع صراخنا أحد، يزيفون الحقائق، هل قرأت ماذا قالوا عني؟

- طبعًا، استمعت إلى ردهم من الإذاعة في اليوم نفسه.

- ماذا تقترحين أن نفعل؟

- لقد أرسل رئيس نقابة الصحافيين الفلسطينيين رسالة احتجاج إلى منظمة الصحافة العالمية، وإلى الأمم المتحدة، وإلى الحكومة الإسرائيلية، وقد نشرنا نص الرسائل في الأخبار التي نزود بها وكالات الأنباء العالمية.

- لقد بذلت جهودًا جبارة في غيابي...

نظرت إليه ثم قالت:

- وفي حضورك أيضًا.

- أعترف أنك صحافية قديرة.. أنا سعيد بالعمل معك.

- وأنا أشعر بالراحة.

- أما زلت تفكرين؟

- بماذا؟

- بما عرضته عليك.

- تقصد الزواج؟

- أقصد أن تشاركيني أعباء الحياة.

- لا تنسَ أننا في الجريدة، وقد يدخل علينا أي صحافي.

- رحاب، ما رأيك أن نخرج معًا؟

- الآن؟

- لم لا؟ فعملنا ليس داخل المكتب، سنعود بعد قليل لتكن استراحة غداء.

- لكن الساعة حوالي الثالثة.

- لتكن نزهة سيرًا على الأقدام.

- ستلاحقنا عيون المارة.

- سنسير في طريق خالية من الناس.

- هل ستذهب إلى الصحراء؟

- اتبعيني وسوف ترين.

نزلا من مقر الجريدة، وتوجها شمالا باتجاه القنصلية الأمريكية، ثم تابعا السير إلى منطقة الشيخ جراح، ومن هناك انعطف بها إلى وادي الجوز.

في الطريق قال لها:

- يمكننا الآن أن نتحدث بدون حرج. رحاب، أنا بحاجة إليك، إن كان ثمَّ ما يمنع من ارتباطك بي فلا تخجلي، أفصحي، وأنا سأتفهم الأمر، وكن لا تبحثي عن إجابة تهربين بها مني.

- لا أدري ماذا أقول لك يا عمران، أخاف أن تصدمك الحقيقة.

- لن يصدمني أي شيء إلا ابتعادك عني.

- مهما كانت الحقيقة مرة؟

- مرارة الأشياء لا نعرفها إلا عندما نذوقها.

ضحكت ثم قالت:

- أخاف من الفشل.

- لذلك عليك ألا تفشلي.

- كيف أعرف ما تخبئه لنا الأقدار؟

- باكتشافها، بمواجهتها.

-ألا يمكن أن يصدمك مواجهتها أحيانًا؟

- ربما، لكن أفضل من أن تظل مجهولة، مختفية خلف الضباب.

- أنت فتى مشاكس.

- وأنت فتاة مشاكسة تتعب من يلهث خلفها.

- هل تعبت؟

- نعم تعبت، لكني لن أستسلم.. ما أجمل التعب في سبيل هدف نبيل.

- أحب فيك إصرارك وطموحك...

صمتت لحظة، نظرت إليه وقالت:

- ولكن.. أنا خائفة.

هز رأسه وقد فقد صبره. تظاهر بالهدوء وقال:

- رحاب، حبيبتي، لا تراوغي، ادخلي في صلب الموضوع، ما الذي تخافينه؟ إن كان في حياتك أسرار فلا تخافي عليها، يمكنك الاحتفاظ بها، أنا لا أسألك عنها، ما يهمني منذ عرفتك وما سبق لن أحاسبك عليه.

صمت لحظة ثم تابع:

- إن كانت لديك علاقة سابقة، في الجامعة مثلا، ثقي لن أحمّلك ذنبها. لا أسميها ذنبًا، ولكنها... لا أدري.

- حسنًا، سأقول لك، ولكن عدني أننا إن لم نتفق أن تبقى سرًّا بيننا.

- أعدك. أقسم بالله العظيم، أقسم بالوطن والشعب، أقسم بحبي الظاهر لك.

- اسمعْ، أنا كنت متزوجة في روسيا دون علم أهلي، ولكن لم نتفق وتم الطلاق، وقد أنجبت منه ولدًا، وهو الآن مع والده هناك.

صمت لحظة ثم سألها:

- ولماذا تزوجت بدون علم أهلك؟

- لأنهم عارضوا زواجي منه، فقد كان روسيًّا.

- روسيًّا؟ تزوجت من روسي؟

- نعم، ماذا؟ هل أذهلك ذلك؟ ألا نطالب بالمساواة، والعدالة؟ ألا يوجد رجال عرب يتزوجون روسيات؟

- لم أقصد ذلك، ولكني عادة لا أسمع عن نساء من بلادنا يتزوجن من أجانب، لكن ماذا حصل مع الولد؟

- أبوه كسب حضانته لأنني سأعود إلى أرض الوطن، ولأنه روسي وله علاقة بالحزب هناك.

- هل تراسلين الولد؟

لا طبعًا، فهو صغير بعد. لقد كانت تجربة مؤلمة. على كل حال أرجو أن تظل سرًّا بيننا.

- ستظل سرًّا، ولن أسألك عن تفاصيل جديدة، ولكن..على الرغم من كل ذلك، فأنا مصر على الارتباط بك.

- ألا تحتاج إلى وقت للتفكير؟

- لقد اتخذت قراري قبل أن أسمع اعترافك هذا.

- لا أريده أن يكون قرارًا انفعاليًّا.

- حبي لك ليس قرارًا انفعاليًّا. رحاب، لا تقللي من قيمتك لأنك كنت زوجة سابقة. قيمة المرأة ليس بعذريتها، ولكن بإنسانيتها، بعقلها، بدورها في الحياة والمجتمع.

- لأول مرة أرى رجلاً عربيًّا يحمل هذه الأفكار.

- أنا سعيد بذلك، وسأكون أكثر سعادة حينما تخبريني متى أتصل بوالدك لأتقدم لخطبتك؟

صمتت لثوانٍ وقالت:

- تقدم متى شئت.

-هل أتصل على الرقم نفسه؟

- نعم، إنه بيت أهلي.

-حسنًا، غدًا سأطلب من والدي الاتصال بوالدك، أو ربما أمي تتحدث في البداية مع أمك، لتكن فاتحة خطوبتنا زيارة مشتركه لعلي في السجن، أنا متشوق لرؤيته والتعرف إليه.

- سيكون سعيدًا بمعرفتك والتعرف إليك، فهو يحب الشباب الثائرين أمثالك. إنك تحمل بعض أفكاره.

- ألا يعرف علي شيئًا عن قصتك؟

- لا أحد سواك.

- ولا حتى في روسيا؟

- لا طبعًا، هناك بعض الطلبة عرفوا بذلك، ولكنهم ليسوا من هنا.

وصل عمران مع رحاب إلى شارع الزهراء.

قالت رحاب:

- يا إلهي، لقد مشينا مسافة طويلة.

- إنها فرصة لاستنشاق هواء بلادنا في شوارع القدس الحبيبة.

- كأننا سرنا في شكل دائري.

- والآن عليك أن تقبلي دعوتي بعد هذا الخبر السعيد.

- سنتأخر على الجريدة.

- لا تقلقي، فعملنا الأساس ليس في المكتب.

- إلى أين ستدعونني؟ إلى سينما القدس؟

ضحك، ثم سألها وهو ينظر إلى سينما القدس وقد وصل على بعد أمتار منها:

- هل تذكرينها؟ لكم شاهدنا الأفلام بها. لا بد أن نشاهد فلمًا معا في الأسبوع القادم، ما رأيك يوم الجمعة؟

- ليس قبل الخطبة.

- فكرة جميلة، لكني سأدعوك الآن إلى الجندول، هل تعرفينه؟ إنه هناك لا يبعد عن سينما القدس سوى أمتار؟ هل دخلته من قبل؟

- لا، لا أذكر.

- إذًا تعالي، فالدعوة على حسابي.

(30)

"لا داعي للإنكار واللف والدوران. المعلومات عنك وصلت قيادة السجون منذ فترة. عليك أن تجيب على كل الأسئلة بصدق. أيه محاولة منك للصراخ والاستعانة بالشرطة لن تفيدك، فقبل حضورها سنكون قد خلّصنا عليك، لكن إذا قدمت اعترافك كاملاً فقد نفسح لك مجالاً للحياة. أنت الآن بالسجن كما ترى. المخابرات لا يهمها الجواسيس، فبعد أن ينفذوا المهمات الوسخة التي تكلفهم بها تحاول التخلص منهم، هل تعرف لماذا؟ لأن من يخون شعبه لن يكون وفيًّا لعدوه. هكذا يفهمون الأمور، لذلك وفر على نفسك العذاب".

انتهى عمر من حديثه للجاسوس مازن، فقال له بعد أن احمر وجهه:

- ليس لي علاقة بالمخابرات، لقد قطعتها.

- اسمعْ، لا تحاول أن تضيع الوقت.

- ما الذي تريده مني؟

- أولاً يجب أن تغمض عينيك.

- لماذا؟

- حتى لا ترى شيئًا.

هجم علية اثنان من الشباب وكبلاه وأغمضا له عينيه، لفاهما بقميص أبيض.

- اسمك؟

- مازن الفحماوي.

- عنوانك؟

- مكان ولادتك؟

- اسم أمك؟

- كم أخ لك؟

كان يجيب على الأسئلة بشكل عادي، وعندما قال له:

- علاقتك بالمخابرات كيف بدأت؟

حاول المراوغة، فأشار عمر إلى مساعده، فبدأ ينهال عليه بالضرب من كل زاوية حتى سال دمه، صرخ قائلاً:

- سأتكلم.

- ابدأ الحديث.

- كنت صغيرًا عندما استدعوني للتحقيق وعرضوا علي التعامل معهم. كنت صاحب صالون للحلاقة للنساء. عرضوا علي إسقاط بعض الفتيات من خلال وضع المنوم في الشاي أو الشراب الذي نقدمه للفتاة التي ستقص شعرها فتنام وهي على الكرسي.

- ها، وماذا بعد؟

- ننقلها إلى غرفة داخلية، نعريها، ونصورها عارية ونقدم الفلم إلى المخابرات.

- أريد تفاصيل عن كل حادثة حصلت، لا تكذب، فلدي ملف عن كل ضحاياك.

كن خمسة؛ الأولى كانت جيهان...

- كانت في الصالون لوحدها، بعد أن نامت من تأثير المخدر سحبتها إلى الداخل.

- من كان معك؟

- أحد الأشخاص الذي يعمل لدي.

- متى نظمته إلى المخابرات؟

- لم أنظمه، هم أرسلوه للعمل معي.

- اسمه؟

- اسمه سلمان...

- وماذا فعلت معها؟

- عريناها، كانت جميلة، قلت له أن يصورني معها فصورني.

- ماذا فعلت معها تمامًا؟

- نمت معها.

- أريد توضيحا؟

- وضعتها على السرير و...

لكمه على وجهه، ثم قال له:

- يا حيوان، هل تخجل من وصف جريمتك التي قمت بها؟ إن كانت مخجلة لماذا قمت بها؟

- رفعت رجليها ومارست معها الجنس.

- وبعد ذلك؟

- عندما انتهيت، مسحت ما علق بها، وأعدت إليها ملابسها، وصففت لها شعرها، ثم جئت بمادة لتوقظها من المنوم، وضعتها بجانب أنفها، فاستيقظت. قلت لها: "يبدو أنك نمت؟"

- ماذا قالت؟

- لا أدري ماذا حصل لي.

- ماذا عن سليمان؟ هل فعل شيئًا؟

- لا.

- لماذا؟

- الهدف تصويرها فقط.

- هل طلب منك؟

- نعم.

- ماذا قلت له؟

- لا يوجد وقت، سأتركك في المرة القادمة.

- ألم تسألك الفتاة عن شيء بعد أن أفاقت من التخدير؟

- لا.

- ماذا حصل بعدها؟

- استدعتها المخابرات بعد عدة أيام، وعرضوا عليها التعامل معهم، فرفضت، فعرضوا عليها الصور.

- ثم ماذا؟

- انهارت، ولم تستطع الحديث. كانت تبكي وترجوه أن يخفي الصور. فاشترط عليها أن تخبر عن الطالبات النشيطات في مدرستها.

- فماذا قالت؟

- لم تقل شيئًا. كانت في وضع سيء. قال لها المحقق: "سنعطيك يومين للتفكير إما الموافقة وإما سنوزع صورك على الناس".

هزت رأسها. تركها تذهب.

- ماذا حصل معها؟

- لا أعرف.

- يا كلب، أنت من جنين ولا تعرف؟

- سمعت أنها انتحرت بعد ذلك.

- ماتت، قتلتها أنت ومخابراتك.

- لم أقتلها، لقد انتحرت.

- انتحرت؟ من المسؤول عن انتحارها؟ أليس أنت؟

استمر التحقيق حتى ساعة متأخرة من الليل.

قال له عمر:

سنكتفي الليلة بما قدمت على أن نواصل الحديث غدًا، وكما قلت لك: إن حاولت الهرب ستموت قبل أن تخلصك الشرطة. ستنام هنا في السرير الأخير بالزاوية، وغدًا صباحًا أثناء العدد، تقف بشكل عادي، وإياك لا تحاول أن ترسل إشارة بيدك أو عينك إلى السجان فلن ينفعك، مجرد أنهم أرسلوك إلى السجن يعني أنهم يريدون التخلص منك، هل فهمت.

هز رأسه مرتعبًا ثم قال:

- أمرك، أرجوكم لا تقتلوني.

- هذا يتوقف على صدقك في المعلومات التي قدمتها.

تركه عمر ينام وعيون اثنين حراسًا عليه، وقال لهما:

- إذا حاول الهرب (شفّراه)، أي اضرباه بالشفرات قبل أن يستطيع السجان سحبه منا.

هزا رأسيهما. اقترب من شاويش الغرفة، واجتمع معه على انفراد ومع أحد المسؤولين الآخرين من سجن جنين، وضعهما في الصورة، وطلب منهما حمل رسائل سيكتبها عن سير التحقيق مع مازن لنقلها إلى السجون الأخرى.

- لقد ساهم في إسقاط خمس فتيات إحداهن انتحرت، والثانية اعترفت لأهلها عما حصل، وثلاثة سقطن في حبال المخابرات بسبب الكلب.

- الحقير فعل كل هذه الجرائم؟

- ليس هذا فقط، لقد اعترف أنه وراء خزانات المياه في بعض المدارس، هل تذكرون الحادثة قبل عدة سنوات.

هزا رأسيهما:

- نعم، نذكرها، حينها حدثت ضجة كبيرة.

- لقد كُلف بتسميم المياه من قبل المخابرات.

- الكلب الحقير، يجب قتله.

- اهدءا الآن، سنكمل معه غدًا، فهناك الكثير لم يقله بعد.

- وماذا سنفعل به؟

- سينال عقابه.

- وهل يستحق غير القتل؟

- هل هذا رأيكما؟

- طبعًا، لكن من سينفذ الإعدام؟

- لا تقلقا.

- وهل تستطيع وحدك؟

ضحك ثم قال:

- طبعًا، لا تقلقا، لكني سأطلب من الجاسوس الثاني مساعدتي في ذلك حتى يكفر عن ذنبه.

- ألا يستحق القتل هو الآخر؟

- لا، فلم يرتكب جرائم خطيرة مثل مازن، وتوبته نصوحة، وسيدفع الآن ثمن خيانته السابقة، سيشارك في قتل جاسوس مما سيعرضه للسجن ربما عشرة أو عشرين سنة، وربما المؤبد، ولا يقبل القيام بذلك إلا شخص تائب وأراد التكفير عن ذنبه فعلاً. مهمتنا أن نفتح لبعض المجرمين طريق التوبة حتى لا تستخدمهم المخابرات الصهيونية كطابور إضافي ضدنا.

- وهل استعد لذلك؟

- ليس بهذه البساطة، أولاً هو غير متهم بقتل أحد أو إيذائه. الأضرار التي أحدثها خفيفة، سيدفع ثمنها بما نطلب منه فهذا قصاص عادل، والأهم أنه جاء تائبًا نادمًا توبته صادقة ونصوحة.

الثورة يا شباب ليست فقط ثورة قصاص، إنها ثورة إصلاح، وإعادة تأهيل. هل تعرفون أن المخابرات كل يوم تحاول إسقاط الجواسيس وبعضهم تتركهم حتى دون أن نكلفهم بشيء.

- وماذا تستفيد من ذلك؟

- حتى تسقطهم من الصف الوطني، فالشاب الذي يوافق على التجسس خوفًا، سيشعر بعد فترة أنه حقير وتافه ولا يصلح للوطن في شيء، سيحس في قرارة نفسه أنه جاسوس، هذه العقدة ستلازمه طيلة حياته. نحن واجبنا أن نسد الطريق على المخابرات بأن نحاول استعادة بعض الذين أرهبهم العدو وأسقطهم، ونوجههم للعمل ضده. لقد نجح شبابنا في الخارج بذلك، وجندوا بعض من كانوا جواسيس ليقتلوا من جندوهم. ألم تسمعوا بالضابط الإسرائيلي الذي قتل في بيت لحم؟ لقد كان على موعد مع أحد الجواسيس الذي فاجأه بإطلاق النار عليه، وكان شبابنا قد انتبهوا إليه وحققوا معه فاعترف بذنبه، وطلب العفو عنه، فعرض عليه شبابنا التكفير عن ذنبه بقتل رجل المخابرات، فوافق ونفذ المهمة بإخلاص وهرب، لكنهم اعتقلوه وحكموا عليه بالسجن المؤبد.

قال له أحدهم:

- نحن نثق بقيادتك وحكمتك، وخبرتك أكثر منا، لذلك نترك لك أن تقرر ما تراه مناسبًا.

- على بركه الله، المهم غدا سيأخذونني إلى المستشفى لإجراء الفحوصات، وبعد أن أعود سأتابع معه. لا تتركوه يهرب، لقد حذرته.

- لا تقلق، لن يخرج من هنا حيًّا.

(31)

اليوم الخميس. أبو سعيد وأم سعيد والعائلة يستعدون لاستقبال أبي عمران وزوجته وبعض الأقارب، وبعض الصحافيين من جريدة الفجر.

لقد حرص عمران أن يغير العادات ويركز على الفئة المثقفة بدلاً من رموز الجاهات التقليديين.

بعد إحضار القهوة للوفد، وضع كل منهم فنجان القهوة أمامه، كعادة أهل البلد، لم يشرب أحد قهوته بانتظار الإشارة.

وقف الحاج أبو عمران أمام الجميع وتوجه بحديثه لأبي سعيد وآل النجار قائلاً:

- بعد الصلاة على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، فقد جئنا لكم بهذه الجاهة الكريمة طالبين يد ابنتكم رحاب لابننا عمران.

فقال له أبو سعيد:

- اشربوا القهوة وألف مبارك.

فرد أبو عمران:

- على بركه الله، لنقرأ الفاتحة...

بعد ذلك التفت لابنه وقال له: مبارك يا عمران، مبارك يا رحاب.

كل الجالسين قالوا للخطيبين مبارك، ثم انطلقت الزغاريد من الغرفة الأخرى حيث أم سعيد وأم عمران ورحاب وبعض النسوة.

بدأ الجميع يشربون القهوة، قال أبو عمران:

- نحن تحت أمركم يا أبا سعيد، المهر تحدده حسب شرع الله ورسوله.

- لا تقلق يا أبا عمران، ما يهمنا سعادة العروسين، لا نطلب سوى دينار مقدمًا وعليه أن يشترى ما يلزمهما من ملابس ومجوهرات كعادة أهل البلد وحسب قدرته، وليؤمن البيت، وإذا نقص عليكم رقبتنا سدادة.

- بارك الله فيك يا أبا سعيد. أنت مثال لابن البلد الذي يهمه مصلحة ابنته وزوجها.

- وماذا عن المؤخر؟

فقال عمران مقاطعًا:

- المؤخر عشرة آلاف دينار.

قال أبوه له:

- عشرة آلاف؟ كثير يا بني!

- يا والدي أنا لن أطلقها، لذلك لا يهمني المؤخر.

لم يعرف أبوه ماذا يقول، فقال له:

- يا بني، على راحتك.

فقال أبو سعيد:

- بارك الله فيك يا عمران، ولكن لا نريدك أن تحمّل نفسك أكثر من طاقتك. لا أحد يحب الطلاق، لكن لا تكبل نفسك، الرجل الأصيل لا تربطه الأوراق، ولكن لسانه، كلمته، ونحن قبلنا كلمتك، ولكن لا داعي للعشرة آلاف، يكفي خمسة.

- كما تريد يا عمي.

- اتفقنا إذًا.

- متى عقد القران إن شاء الله؟

- حين تكون جاهزًا.

- الأسبوع القادم.

فقال أبوه:

- أسبوع قليل يا عمران، يجب أن نحضر أنفسنا ونستأجر قاعة للأفراح وندعو الناس، سيزعل أقاربنا إن دعوناهم آخر لحظة.

- كما تريد يا والدي.

- أنا أقترح بعد ثلاثة أسابيع.

- ثلاثة أسابيع؟

نظر إليه أخوه وقال له:

-لا تخف، رحاب لن تطير، أعط العجين للخباز يا عمران.

وقال له أحد زملائه الصحافيين:

- لا تتسرع يا عمران، والدك أكثر خبرة منك في هذا المجال.

- كما تشاؤون.

فقال والده موجهًا سؤاله إلى أبي سعيد:

- كم شخصًا ستدعون إلى حفلة عقد القران.

فقال سعيد:

- لماذا لا نؤخرها قليلاً ونجعلها حفلة لعقد القران والزواج معًا ونوفر على العريس تكاليف حفلتين؟

فقال عمران:

-والله فكرة جيدة، ما رأيك يا والدي؟

-أنا أرى أنها أفضل.

- اتفقنا، لتكن في مطلع الشهر القادم، بعد شهر من الآن.

- كم شخصًا ستدعون إلى حفلة الزفاف؟

نظر أبو سعيد إلى ابنته وإلى أخيه، وسألهما:

- ماذا ترون؟

فقال أخوه:

- نحن بحاجة إلى (250) بطاقة للأقارب وبعض الأصدقاء وصديقات البنت.

فقال عمران:

- لتكن (300). أرجو دعوة كل أصدقائكم. سأبدأ غدًا بطباعة البطاقات.

فقال له أخوه:

- إياك أن تطبعها قبل أن تسأل رحاب، فقد لا تعجبها بطاقة الدعوة.

- ولو؟! كل شيء سأشاورها به، حتى قاعة حفلة الزفاف.

فعلق أحد الصحفيين:

- طبعًا، عمران من أنصار حرية المرأة.

فقال آخر موجهًا كلامه لأبي سعيد وعائلة النجار:

- الحقيقة أن عمران من صحافيينا النشيطين والرائعين، أخلاقه عالية، وفاء وصدق في المعاملة، لقد اخترتم لرحاب نِعم العريس، سيكون عند حسن ظنكم.

فقال أخو عمران:

- بارك الله فيكم. أنتم الصحافيون صوتنا إلى العالم.

فقال سعيد:

- ماذا لديكم عن أخبار قضيتنا؟

- لا جديد يا سعيد، الأمور تسير إلى أسوأ وضع لها. منظمة التحرير في وضع سيء، الانقسام يعصف بها، والصراعات حول الانتخابات وتشكيل قيادة جديدة، لكنها مرحلة ستمر.

فقال أبو عمران:

- على كل حال نحن نشكركم جميعًا، ومبارك للعروسين، واسمحوا لنا بالمغادرة.

-مبكّرٌ يا جماعة.

- مبكّرٌ من أعماركم.

وقف سعيد، وتقدم نحو الباب، فتحه وبدأ يودع المغادرين. قال لهم أبو عمران مخاطبًا:

- شكرًا لكم يا آل النجار على حسن ضيافتكم. السلام عليكم.

فرد سعيد:

- شرفتمونا، وعليكم السلام ورحمته الله وبركاته.

في اليوم التالي، التقى عمران مع رحاب في مقر الجريدة، بدأ الشباب بالتوافد عليهما وتهنئتهما، وكان مسؤول الجريدة حنا السنيورة قد اشترى على حسابه بعض الحلويات وقدمها لكل العاملين على شرف عمران وخطيبته، وقال لهما:

- مبارك وعقبى للزفاف، لكن بعد الزفاف سنفصل بينكما في العمل، سنرسل عمران ليكون مراسلنا في رام الله.

- تكرم عينك أستاذ حنا، ستجدني عند حسن ظنك في رام الله.

بعد تفرق العاملين كل إلى مكتبه قال لها:

- متى تحبين البدء بشراء الملابس؟

- سأسأل أمي حتى تكون جاهزة. هذه أمور يجب أن تبحثها الأمهات.

- يجب أن تتناسب مع أيام عملنا.

- أقترح أن نحصل على إجازة من العمل.

- ليس الآن، لنترك الإجازة إلى شهر العسل.

- فكرة جيدة، ما رأيك الخميس القادم بعد الظهر؟

- فكرة مناسبة، سأبلغ أمي.

- رحاب، لا تنسي أن تعدي لنا زيارة مشتركة إلى علي، أنا مشتاق لرؤيته.

- حسنًا ليس الزيارة القادمة، فبالتأكيد ستذهب زوجته لزيارته مع أمي وأحد أصدقائه، سأطلب منها أن تترك لنا الزيارة التالية.

- أنا بانتظار ذلك. كم أنا مشتاق لرؤيته.

(32)

بعد أيام عاد عمر القاسم إلى سجن نفحة. لم يكمل علاجه بعد. وصل قبل موعد زيارة الأهل. استقبله الشباب مسرورين، وسألوه عن أخبار السجون. كان متعبًا، يبدو عليه الإرهاق، فلم ينم منذ عدة أيام.

سأله علي:

- ما الذي حصل؟ أراك متعبًا.

- لقد أمضيت الوقت في(المعفار) في الزنزانة.

- زنزانة؟ خير؟

- لقد جرى التحقيق مع أحد الجواسيس الذي ارتكب عدة جرائم، وتم إعدامه.

- من نفّذ الإعدام؟

- نفذت فيه قرار الثورة.

- وهل كان معك أحد؟

- قصة طويلة سأشرحها لك فيما بعد. المهم أنهم حققوا معي، فأشرت لهم إلى أنني نفذت قرار الثورة بحق أحد الجواسيس الذي خان شعبه، فوضعوني في الزنزانة، واستمر التحقيق معي لفترة على فترات متقطعة. كانوا يريدون تفاصيل التحقيق كأنهم لا يعرفون أنه جاسوس معهم.

- طبعًا يريدون معرفة حجم المعلومات التي قدمها لك.

- الكلب، لم أر جاسوسا بحقارته! لقد نفذ الكثير من المهمات الوسخة، وساهم باستشهاد بعض الفتيات.

- أحسنت صنعًا بتنفيذ الإعدام بحقه، كيف استقبل الشباب الوضع في (المعفار)؟

- لقد بهتوا بسرعة إعدامه، كلهم شباب جدد لم يواجهوا العنف من قبل، ولم يشاهدوا إعدام أحد. كان وضعًا صعبًا بلا شك، لكنهم شاهدوا نهاية جاسوس.

- هل حاول الهرب؟

- لم نترك له مجالاً، وعندما واجهناه بالحقائق انهار على الفور. لقد أرسلت تقارير شاملة لكل السجون. كان هناك جاسوس آخر تاب عن عمالته، وكان في بداية جريمته، فحكمنا عليه التكفير عن ذنبه، والمشاركة في إعدام مازن الفحماوي، ففعل.

- دعه يدفع ثمن خيانته ويكفر عما ارتكبه من جرائم. إذًا سيقدمونك لمحكمة جديدة.

- أنا محكوم بمؤبد و27 سنة ،يعني لو صاروا مؤبدين أو ثلاثة لن يتغير شيء.

في المساء كانت قيادة نفحة قد علمت بخبر مازن الفحماوي، وشكروا عمر على إنجازه، وأكدوا وقوفهم معه،و لكن بدأت بعد ذلك تصل رسائل الاحتجاج من السجون لماذا يحقق عمر مع أحد عناصر تنظيم آخر؟ هل نحن عاجزون عن التحقيق معه؟ كثرت التحريضات على عمر القاسم حتى أصبح بعضهم يهدد بالاعتداء عليه.

اقترب منه علي وقال له:

- لا تقلق، لن نسمح لأحد بالاقتراب منك. ما فعلته شرف لنا. إنهم أولاد، لا يعرفون كيف يديرون الأمور.

بعد فترة جاء علي مبتسمًا وقال لعمر القاسم:

- اقرأ هذه الرسالة.

وأعطاه ورقة دسّها في جيبه.

سأله عمر:

- ما هذه الرسالة؟

- إنها من (أبو جهاد) إلى كافة السجون.

"إلى أبطال الثورة،

تحية الثورة...

بالنسبة إلى إعدام الجاسوس مازن الفحماوي، نشير لكم أن الأخ عمر القاسم قد نفذ قرار الثورة بإعدام الجاسوس مازن. قيادة الثورة تشد على يديه وتحييه...

المجد للشهداء، والنصر للثورة".

هدأ الوضع بالسجن. لقد حسم الوضع أبو جهاد. القيادات الواعية تعرف كيف تناقش الأمور وكيف تنظر إليها بنظرة المصلحة الوطنية وليس الفئوية الضيقة.

(33)

جلس علي القاسم مع أمه وبعض الأصدقاء وأخته في المحكمة المركزية في تل أبيب. كانت منصة القضاة في الجهة المقابلة للباب، أعلى من مستوى سطح الغرفة إلى اليسار. جلس المدعي العام مع بعض الأشخاص في المقدمة مقابل القاضي محامي الدفاع عبد عسلي. بعد لحظات دخلت الشرطة إلى قاعة المحكمة من الباب الجانبي للقاعة يقودون المتهم عمر القاسم. كان مكبل القدمين واليدين، وتحيط به الشرطة. لم يسمحوا لأحد بمصافحته. وقفت أمه تشير له بيديها. اقترب منها أحد رجال الشرطة وأمرها بالعبرية بالجلوس وإلا أخرجهم جميعهم من القاعة.

كان قلبها يدق، لأول مرة تراه بدون قضبان منذ سنوات طويلة. ها هو عمر القاسم طويل القامة، ذو البنية القوية، مدرس اللغة الإنجليزية، يقف مرفوع الرأس، يشير إليهم بيديه المكبلتين. كل الجالسين يشيرون له

بأيديهم. كانت خولة في الصف الأمامي، جاءت تحضر محاكمته، فقد طلب منها علي أن تحضر تضامنًا معه.

كل الأنظار متجهة نحو عمر. جلس هادئًا باسمًا، يحمل إباء المناضلين، وعدالة قضيتهم. لم يكن يبدو عليه الرهبة. كان على الرغم من قيوده محاطًا بالجنود من الجانبين، وجلس خلفه عدة أفراد من الشرطة.

جاء المحامي وسلم عليه، وتهامس معه حول حيثيات القضية، ونظر إلى أمه والحضور. كان سعيدًا لرؤيتهم، بدون قضبان: "ياه، ها هي أمي غزا الشيب رأسها تبدو مختلفة بدون حواجز القضبان التي تفصل بيننا، هل نحن الآن بدون قضبان وأنا عاجز عن مصافحتها، أو معانقتها مع أنها لا تبعد عني سوى أمتار قليلة، ربما ثلاثة. لقد زالت القضبان التي تحجب الرؤية عن العين، ولكن القضبان الحقيقية ما زالت قائمة، في زيارة السجن كانت تتعانق الأصابع، لكن هنا حتى عناق الأصابع أصبح بعيد المنال".

نظر إلى أمه يتفحص وجهها من جديد، ثم انتقل يصوب نظراته عليهم واحدًا إثر الآخر. أخي علي أصبح الآن في الأربعينيات، سنوات مرت دون أن أعانقه، إنه تحمل عبء العائلة. أختي الرائعة أصبحت الآن أمًّا بعد أن تركتها طفلة. هذا صديقي سمير ما أروعه. هذا هاني قبل سنوات

كنا معا في سجن الرملة، ها هو اليوم حر وأنا ما زلت في الأسر، سنوات مرت عليه، أصبح أبًا وزوجًا.

جاء يوزع ابتسامته عليهم محاولاً ألا ينسى أحدًا، فالأنظار كلها تتجه إليه، لا يريد أن يخيب آمال أحد، فكل من حضر يريد أن يحظى ولو بنظرة ورد التحية، لقد تحملوا مشاق السفر وعطلوا أعمالهم من أجلي، إنهم يستحقون أن أحييهم.

آه، كدت أنسى خولة زوجة علي! كيف أنساها وهي التي لم تتغيب عن زيارة علي إلا لأسباب طارئة، يا لهذه المناضلة الرائعة! ضحت بكل شيء من أجل علي، تزوجته دون أن تعاشره معاشرة الأزواج، وعاشت معه على الأحلام والآمال، ألقت برأسها بجانب رأسه، وعلى أمل التحرر عاشت كل تلك السنوات، من أين لي بامرأة مثلها؟ إنها رمز للمرأة الفلسطينية المناضلة، لقد ضحت بكل سعادة دنيوية لتبعث الأمل في أسير خلف القضبان. لقد تخلت كثيرات عن أزواجهن بعد سجنهم فيما اختارت هي أن تقترن بأسير تعرف مسبقًا أنه محكوم بالسجن المؤبد. كانت تتصور أن حرية المناضلين قاب قوسين أو أدنى، ولم تعرف أن حياتهم متأرجحة بين الحياة والموت.

ما الذي دفعها أن تربط نفسها بمصير أسير محكوم بالسجن المؤبد؟

هز عمر رأسه، واغتنم فرصه انشغال أفراد الشرطة بجانبه، ورفع لهم يديه بشارة النصر، ثم أومأ برأسه محييًا، ثم أومأ مرة أخرى كأنه يكافئها على تضحياتها، لقد زرعت الأمل في علي النجار، وجعلت للحياة لديه معنى آخر ومذاقًا آخر، فمنذ تزوجها كثف من دراسته، وتعلم اللغة العبرية في السجن وأجادها، ولم يترك كتابًا في الأدب والتاريخ إلا وقرأه، وأصبح يكتب القصة القصيرة، والمقالة الأدبية، والمقال السياسي، إنه يهرّب لها كتاباته لنشرها في الصحافة المحلية، إنها رئته التي يتنفس بها، بوجودها أصبح نصف أسير، فهو يعيش متنقلاً بين السجن وبين الحرية.

كان عمر شارد الذهن يسرح متنقلاً من خولة إلى أمه، وإلى أخيه، وإليهم جميعًا.

فجأة أعلن حاجب المحكمة عن بدء المحاكمة. محكمة، قالها بالعبرية.

وقف الجميع إلا عمر بقي جالسً، فسأله القاضي:

- لماذا لا تقف؟

فأجابه:

- لا أعترف بمحاكم الاحتلال؟

هز القاضي رأسه وطلب منهم الجلوس. لم يكونوا مؤمنين بمحكمة الاحتلال، وبعدالتها، لكنهم لو لم يقفوا لتم طردهم، ولحرموا من مشاهدته وحضور جلسات المحكمة.

تقدم المدعي العام، وشرح لهيئة القضاة المكونة من ثلاثة، الاتهامات الموجهة إلى عمر القاسم:

القتل المتعمد.

التعذيب لمازن الفحماوي.

التحقيق مع سجين بتهمة التعامل مع قوات الشاباك.

كانت جملة من الاتهامات كلها تصب في الهدف نفسه؛ قتل الجاسوس مازن الفحماوي من جنين.

وقف المحامي يدافع عن المتهم، كان المحامي يركّز في دفاعه أن القتل لم يكن مع سبق الإصرار والترصد، لكن عمر وقف ليعلن للقاضي:

- لقد نفذت قرار الثورة في جاسوس خان شعبه وتسبب في قتل أبرياء وارتكاب جرائم أنتم من دفعه لارتكابها.

فسأله أحد القضاة:

- من تقصد بـ أنتم؟

- مخابراتكم، والموساد، الشين بيت، الحكومة.. ما الفرق؟! كلكم متعاونون على قتل شعبنا ومصادرة أراضيه.

- ولكنك أزهقت روحًا بريئة!

- من برأها؟ من سمم طالبات المدارس؟ من صورهن عاريات؟ من أرسله؟ من أمره بتسميم المياه؟ أنا لم أقتل أحدًا، لقد نفذت قرار الثورة

بأحد جواسيسكم، وكان الأعدل أن ينفذ قرار الثورة بحق من أرسله، ووجّهه، وحرّضه على ذلك.

- خلاصة القول أنت تعترف بتنفيذ الجريمة؟

- لا! لا أعترف بجريمة. أنا أعترف بتطبيق العدالة على الأرض، أو بعضها، فما زال للعدالة بقية.

فقال القاضي الأوسط رئيس المحكمة:

- ترفع الجلسة لإصدار الحكم بعد ساعتين.

استدارت خولة إلى من يجلس بجانبها وقالت له:

- محاكمة صورية كما ترى! سيعودون بعد قليل ليعلنوا الحكم عليه بالسجن المؤبد. فقال لها:

- لن يغير ذلك من الوضع شيئًا، فهو محكوم بالسجن المؤبد و27 سنة، يعني زيادة حكم آخر لا يغير من وضعه. عمر القاسم لا أمل له إلا بالتحرر من الأسر إلا عبر صفقة تبادل للأسرى.

طلبت الشرطة من الحضور مغادرة القاعة والعودة بعد الظهر، ثم اقتادوا عمر من الباب الجانبي، فيما لوح لهم بيد وقال لهم رافعًا قبضته إلى الأعلى والقيود تحيط بهما:

- النصر للثورة، الحرية للشعب الفلسطيني.

ابتسمت أمه بشموخ، وحاولت الاقتراب منه، ولكن شرطيًّا منعها من الاقتراب منه. حاول المحامي التدخل مطالبًا السماح للأم بالحديث معه لثوان، لكن مسؤول الوحدة رفض ذلك مدعيًّا أن الأوامر لا تسمح له بذلك.

خرج الحضور إلى خارج القاعة يتناقشون في حيثيات المحكمة:

- محكمة صورية.

- يسمونها محاكمة! هذه مهزلة، وهؤلاء ليسوا قضاة، إنهم جلادون.

- إذا كان القاضي غريمك فلمن تشكو؟

- المهم أن عمر بصحة جيدة ومعنوياته عالية.

- ابني دائمًا معنوياته عالية.

- يا حاجّة هذا ابننا كلنا، ابن الثورة، ابن الشعب.

فقال علي القاسم:

- تسلم يا ابني، هذا شعورنا أيضًا.

- أهم ما في الجلسات أنني شاهدته، فبعد أن غادرته في سجن الرملة منعت من زيارته حتى هذه الساعة.

- ترى ماذا تتوقعون الحكم؟

- لا تحتاج لذكاء خارق؛ السجن المؤبد.

- لا، لا، السجن مدى الحياة.

ضحكوا جميعًا، فكلاهما الحكم نفسه.

- ترى متى يأتي يوم نحاكمهم فيه؟!

- لا تذهب بعيدًا في أحلامك. دعنا نحلم بالحرية للأسرى أولاً!

- وهل حريتهم منعزلة عن حرية شعبهم؟

- لا، ولكن حريتهم تأتي في الطريق إلى حرية شعبهم وقد تفصل بينهم مسافة.

- دعونا من التحليلات الآن، ما رأيكم بشيء نأكله؟

- أقترح أن لا نشتري شيئًا من الكافيتيريا، لنتحمل الجوع حتى نعود إلى بيوتنا. لماذا ندعمهم اقتصاديا؟

- فكرة مقبولة.

كانت خولة صامتة لم تشارك في الحديث، كل فكرها وقلبها عند علي النجار، وكانت تتساءل: كيف هو الآن؟ لا شك أنه ينتظر عودة عمر إلى عرينه ليستمع منه عن أخبار المحاكمة المهزلة. لكن عودة عمر قد تستغرق عدة أيام. ربما تزوره قبل عودة عمر إلى السجن، لتنقل له أخبار المحاكمة، سيكون جالسًا أمامها كالطفل الصغير يراقب حركات شفاهها مستمعًا إلى كل جملة، وكل كلمة، وكل حرف يخرج من بين الشفاه، مستمتعًا بتلك اللوحة الفنية الجميلة التي أبدعها الخالق أمامه.

قال لها:

- وماذا رد عمر على القاضي بعد أن سمع قرار المحكمة بالحكم عليه بالسجن المؤبد؟

قالت له:

- وقف وقال لهم: "المجد للشهداء، النصر للثورة، عاشت فلسطين حرة عربية، ليسقط الاحتلال".

- وماذا فعلوا به؟

- أخرجوه من الجلسة، وخرج القضاة بعد النطق بالحكم. أما أمه؛ ليتك رأيتها، فقد وقفت تزغرد وسط القاعة، ثم صاحت قائلة: الله أكبر على الظالمين، الله يحميكم وينصركم.

- وهل أخرجوها من المحكمة؟

- صرخ بها أحد أفراد الشرطة، وطلب منهم جميعًا الخروج من المحكمة.

- وماذا بعد؟

- كان المدعي العام يضحك ساخرًا غير مهتم، فالقتيل جاسوس فلسطيني، وليس يهوديًا.

هز علي رأسه قائلاً:

- صحيح، هؤلاء الجواسيس الذين يبيعون ضمائرهم وشعبهم لو يعرفون بأنهم لا يساوون لدى من يتجسسون لصالحهم أكثر من قشر البصل لربما غيروا رأيهم.

فقالت خولة:

- لقد أخذ الجاسوس ما يستحق، وربما أقل من ذلك. هل سيعود عمر القاسم إلى نفحة يا ترى؟

- لا أعرف يا خولة، ربما سيعود، ولكن سينقلونه من هنا بالتأكيد، من يدري؟! ربما ينقلوني أنا من هنا، فقد تعودنا دائمًا على التنقل، هذه سياسة العدو ألا تترك للأسرى فرصة للراحة، يريدون تنغيص حياتنا متى استطاعوا، إنهم ينتقمون منا كل يوم، بل ينفذون ساديتهم فينا، يتباكون على ضحايا النازية، ويمارسون سياستها نفسها، لقد نشأوا على الحقد، والقتل، وكره الآخرين.

- آخ يا علي، ليتنا نكون أفضل منهم ونحب بعضنا بعضًا.

- ماذا تقصدين؟

- أنسيت ماذا حصل بين الأشقاء في لبنان؟ أنسيت كيف تقاتل إخوة الدرب الواحد؟ أنسيت كيف حاصروا طرابلس؟ أنسيت كيف يتصارع الإخوة في انتخابات النقابات، ومجالس الطلاب... في الضفة والقطاع؟

- معك حق، ولكن الأمور ستتغير إن شاء الله.

(34)

عام كامل مر على زواج رحاب كان ثمرته ابنة جميلة كأمها.

سألت عمران بعد ولادتها:

- ماذا نسميها؟

- سنسمّيها تحرير، رمزًا لتحرير الأرض والإنسان.

- تحرير؟ لماذا لا نسميها أزهار؟ فهو اسم أجمل للبنت.

- وهل التحرير مرهون بالرجال فقط؟

- لا أقصد، ولكنك تحمّلها أكثر من طاقتها.

- حبيبتي، هل نسيت أننا نعمل معًا من أجل التحرير؟ تحرير الوطن، تحرير الأسرى، تحرير العقل من التخلف والجمود، والأمية، و...

قاطعته:

- خلاص يا عمران، تحرير، سنسميها تحرير. كله ولا زعلك يا حبيبي.

حملها عمران بيديه وقال للممرضة: سجليها باسم تحرير (تحرير عمران عبد الله)، جعل الله تحرير الوطن على يديها، ثم التفت إلى زوجته وقال لها:

- المتخلفون الرجال لا يريدون البنات إلا عندما يريدون الزواج، لا يعرفون أنهن رمز الحياة، وسر سعادتها. عندما تكبر تحرير، سندخلها أحسن الجامعات، ستكون في طليعة النساء المناضلات للحرية.

حملت رحاب ابنتها من عمران وضمتها إلى صدرها بحنان. تذكّرت عندما أنجبت عليًّا، كانت سعادتها لا توصف بمولودها الأول، كانت ترى فيه خليفة خاله علي. لكن الأمور انقلبت رأسًا على عقب، فلم تدم سعادتها، وذهبت كل أحلامها مع فلاديمير أدراج الرياح.

قبلت ابنتها، ثم تخيلت عليًّا بين يديها، فأعادت تقبيلها كأنها تقبله.

تساءلت في قرارة نفسها: لماذا تركته؟ وهل كان لدي خيار آخر؟ لم يدم زواجنا، تطلقنا، وكان علي العودة فماذا أفعل؟ كيف سآخذه معي؟ وإلى أين؟ هل أخطأت في زواجي من فلاديمير؟ لماذا لم أستمع لنصائح الأهل؟ تزوجته سرًّا لأنني أحببته، فإذا بحبنا ينهار بعد عام واحد! لماذا ينهار الحب بسرعة؟! ألأنه صعد بسرعة؟ أم لأننا عندما نحب نقفز فوق اختلاف الثقافات، والعادات، والديانات؟ آخ من فلاديمير، كان شابًا رائعًا، لا أدري ما الذي غيره؟

هزت رأسها، وتابعت تمتم: قال لي إنني أنا الذي تغيرت. أنا؟ اشتقت لعلي الصغير، يجب أن أتصل به لأستفسر عنه، ولكن كيف سأتصل به أمام عمران؟ هل أتصل بغيابه؟ لا، لا يمكن، سيعدها خيانة له، وقد يشك في الأمر، لا أريد أن أحول حياتي معه إلى رحلة من الشك.

انتبهت إلى عمران وقد عاد من غرفة تسجيل المواليد يحمل الورقة، قال لها:

- الحساب مدفوع، متى تستطيعين الخروج.

- الآن.

- حسنًا، هيئي نفسك للمغادرة.

(35)

أواخر 1987

القيادة الوطنية الموحدة تصدر بيانها الثاني، تدعو المواطنين إلى مواصلة انتفاضتهم ضد الاحتلال.

القدس تعلن الإضراب العام، وغزة تشتعل بعد استشهاد ثلاثة مواطنين بسيارة جيش إسرائيلية.

الضفة تهب ضد الاحتلال.

إسرائيل تعلن الاستنفار وتستدعي قوات الاحتياط.

هذه عناوين الأخبار التي كان يستمع لها عمر القاسم هذا الصباح. قال لزميله الأسير عدنان من غزة:

- لعلها بداية الثورة.

فرد عليه قائلاً:

- إن شاء الله تكون نهاية اليهود على أيدينا.

منذ نقل عمر القاسم إلى سجن عسقلان، وهو يشعر بغربة بعض الشيء، فقد نقل أو تحرر كل الأسرى القدامى الذين عاش معهم سنوات طويلة. كان يجلس أحيانًا سارحًا، فهو يجد نفسه غريبًا في سجن دخله من قبل، كأنه يحن إلى سجن نفحة حيث علي النجار. من العجائب أن يحن الأسير إلى السجن، ما الذي تغير عليك يا عمر؟ الغرف؟ كلها جدران! الأسرى؟ كلهم مناضلون من أجل فلسطين! الذكريات؟ كنت قد تعودت على علي النجار، وسمير القنطار، وآخرون. الأسرى هناك كانوا متفاهمين بعض الشيء، ولكنهم هنا للأسف الصراعات تنخرهم، تيار المتدينين يتنامى، فلا هم تنظيم، ولا يقبلون الالتزام مع أي تنظيم، وقيادة الأسرى تعدهم منفلشين، لا تريد التعامل معهم بأية طريقة كانت.

صلاة الجمعة قسمان؛ قسم مع تيار المتدينين وآخرون من الأسرى العاديين. الخلافات السياسية تزداد خصوصًا بعد انقسام حركة فتح، لكنه خف قليلاً الآن بعدما تراجع المنقسمون ولم يقدموا جديدًا لكسب عناصر الحركة.

معظم الأسرى القدامى أفرج عنهم، وهؤلاء الشبان الجدد حماسيون وسريعو الغضب. أحتاج إلى وقت لإقناعهم، هذا السجن على الرغم من أنني كنت فيه لفترة في مطلع السبعينات أشعر كأنه غريب علي! غريب؟ طبعًا غريب، فمكاني الطبيعي خارج القضبان. ليت أني كنت في الخارج

لأشارك في هذه الانتفاضة المباركة. آه، متى تأتي الزيارة لنطمئن على أهلنا في الخارج؟

خولة مع سعيد وشاب آخر حضروا لزيارة علي في سجن نفحة، عدد الزوار كان قليلاً، فقد أغلقت إسرائيل منطقة غزة، ولم تسمح لحافلة الأهالي التوجه إلى سجن نفحة، فبقي فقط أمام زوار القدس وبعض المنفيين من الضفة.

- ما الذي يحدث؟

قالت له خولة وهي منفعلة:

- انتفاضة يا علي، إنها انتفاضة حقيقية غير مسلحة.

ابتسم مسرورًا ثم سألهم:

- أرجو أن تستمر في التوجه نفسه.

فقال الشاب سليم الجعبة:

- القيادة الموحدة التي شكلت لمتابعة الموقف سيطرت على الوضع، وهي مستمرة في توجهها السلمي. أهم ما يميز هذه الانتفاضة أن كل الجماهير تشارك فيها؛ الصغار، والكبار، والنساء...

فقال مقاطعًا:

- أفهم أنكم مشاركون أيضًا؟

كل الشعب مشارك، تظاهرات، مسيرات، رفع الأعلام الفلسطينية، إضرابات، التوقف عن العمل في إسرائيل، ضرب الجيش بالحجارة، حراسة المناطق الفلسطينية بالليل من المستوطنين، جمع التبرعات ودعم الأسر الفقيرة، وفي القدس القيام بدور البلدية التي منعت سياراتها من التحرك وحرق بعضها.

- إنها أخبار مفرحة، أين كانوا قبل ذلك؟

فقال سعيد:

- يا علي، كل شيء في وقته.

- وماذا تفعل يا سعيد؟ إن كان سرًّا لا تقل لي؟

- أنا عضو في اللجنة الشعبية لمنطقة الرام، نحن مسؤولون عن كل الفعاليات الوطنية.

- آخ...

ضرب علي بيده القضبان، ثم أكمل قائلاً:

- ليت أني الآن معكم.

- لا تقلق، فنحن نقوم بالواجب، ألا يكفي ما تقوم به خولة؟

نظر إليها علي، تمنى لو تزول القضبان لثانية ليعانقها، ثم قال لها:

- أعلم أنك تقومين بواجبك، لكني أدعو الله أن لا تقعي في قبضتهم.

فقالت له:

- أتخاف علي؟

- أخاف أن تتوقفي عن زيارتي.

- عندما ينادي الوطن لا نملك إلا الاستجابة. ألم تقل ليت أني معكم لأشارك في الانتفاضة؟

- بلى، قلتها وأكررها. لا أقصد ألا تشاركي، بل هي مجرد مشاعر إنسانية، فأنت خيط الوصل لي إلى العالم الخارجي.

نظر إليهم ثم سألهم:

- ما أخبار خليل الصباح، وشبابنا الذين خرجوا من نفحة؟

ردت عليه خولة:

- بعضهم أنهى ارتباطه في العمل الوطني وعاش حياته كبقية الناس، وآخرون يقفون على رأس الانتفاضة في مناطقهم.

- عظيم، وهل خليل الصباح منهم؟

فقال سعيد:

- إنه شعلة القدس ومحركها الأساس، لا يهدأ، اسأل سليم فهو دائمًا يراه.

فقال سليم:

أولاً هو دائمًا يسلم عليك، وعلى عمر، وسمير، والشباب، ويعتذر أنه ممنوع من زيارة السجون. إنه مثال الإنسان الملتزم، ليتهم كلهم مثله، أدعو الله أن يحميه.

- ما الذي نسمعه عن القيادات الإسلامية في غزة؟

- هناك صراعات على مستوى قيادة الإخوان المسلمين، إنهم يبلورون مواقف جديدة، كلها فترة قصيرة وستسمع أخبارًا مفاجئة.

- ما أخبار أمي وأبي والجميع يا سعيد؟

فقال سعيد:

- كلهم يهدونك السلام؟

- كيف رحاب وابنتها الجديدة؟

- مثل القمر، وعلاقتها مع زوجها رائعة، عمران شاب رائع بصراحة، لا أدري كيف تركوه يعمل في جريدة الفجر حتى هذه اللحظة؟!

- لماذا هل هو مقصر في عمله؟

- لا يا علي، لكن الأمور لا تتم حسب الكفاءة في مؤسساتنا التي تهيمن عليها الأحزاب، وإنما حسب الولاء.

هز رأسه ثم قال:

- سمعت الكثير عن ذلك، وأتمنى أن نتخلص من تلك العادات السيئة، الرجل المناسب في المكان المناسب. أنا أعرف حنا السنيورة، فهو ليس من هذا النوع من الرجال، إنه رجل هادئ...

فقاطعه عدنان:

- ولكن قرارات الفصل والتعيين ليست كلها بأمره، ولكن بأمر من يرسل الرواتب.

عاد علي النجار إلى غرفته يحمل أخبارًا سعيدة إلى الأسرى، وكان لا يترك الراديو لحظة يتابع الأخبار من محطة إلى محطة، فالانتفاضة تتصاعد، والشهداء يسقطون على ثرى الوطن كل يوم. بيانات القيادة الوطنية الموحدة تتواصل. كل شهر بيان جديد، مهمات جديدة، اللجان الشعبية تنتشر في كل مكان، إسرائيل تقيم الحواجز بين المدن والقرى. الإعلان عن تأسيس تنظيم فلسطيني جديد؛ حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، وقبله الجهاد الإسلامي. القوى الإسلامية تنخرط بقوة في الانتفاضة. مفاجأة عسقلان كانت إعلان التيار المتدين في السجن عن الانضمام للقوى الإسلامية الجديدة، ولكن الخلافات المبدئية ما زالت بارزة، فالقوى الإسلامية ترفض المشاركة في القيادة الموحدة وتعمل بشكل منفرد.

قال علي لرفيق له يجلس بجانبه في الساحة:

- لا بأس، على الأقل تخلصنا من ظاهرة الانفلاش، وأصبحوا يتعاملون بشكل منظم، ويشاركون في معركة النضال ضد الاحتلال، لا بد أن توحدنا المعركة.

- لا أعتقد ذلك، فما أسمعه عنهم في غزة أنهم يرفضون التعاون في أي عمل.

- ما زالوا في البداية، سيغيرون من مواقفهم مع الأيام.

- أتعتقد ذلك؟

- كل المنظمات لو درست تاريخها سترى أنها رفعت شعارات سياسية عند انطلاقتها تختلف عما ترفعه الآن.

- أتمنى ذلك، فما أحوجنا إلى الوحدة الوطنية.

- يبدو أنها انتفاضة حقيقية هذه المرة، فقد مرت شهور على انطلاقتها.

- القيادة الموحدة تعلن أنها انتفاضة الحرية.

- هل تعتقد أن حريتنا على يديها؟

- أنا متفائل. في كل زيارة أسمع أخبارًا مفرحة جديدة، كل الذين أعرفهم من الأقارب متحمسون للانتفاضة، يتحدثون بلهجة مختلفة، غير فئوية، غير حزبية.

- نحن بحاجة إلى نقل مركز الصراع إلى الداخل وهذا ما حصدته الانتفاضة. قيادة الداخل أكثر وعيًا، ولكن المشكلة أن الخارج يتدخل في كل شيء، يريدون تجيير كل عمل لصالح إبراز دورهم.

- هذه مشكلتنا منذ انطلاقتنا؛ قرارات فردية، والنخبة بدل الجماهير. الانتفاضة غيرت كل شيء.

- رائع! لكن إلى متى تستطيع الصمود؟

- إذا كان كل الشعب مشاركًا، سيكون الصمود طويلاً. الحماس يدب في كل الناس، مثلنا تمامًا في السجن عندما نهب جميعًا ضد السجانين، يشجع بعضنا بعضا. ألم نسمع في المثل العامي "نفس الرجال يحيي الرجال"؟

- ما آخر الأخبار التي وصلتك؟

- مئات المعتقلين الجدد وراء القضبان، معظمهم اعتقالات إدارية لمدة ستة أشهر.

السفلة، كلما فشلوا في إدانة أحد في محاكمهم يسجنوه إداريًّا بدون تهمة.

- وما الذي نتوقعه من الحركة الصهيونية العنصرية؟!

- وهناك خبر آخر يقول: إسرائيل ستبعد عددًا من أسمتهم بالمشاغبين من فلسطين إلى جنوب لبنان.

- الكلاب فعلوها سابقًا.

- هذا كله يدل على أن الانتفاضة تركت تأثيرًا كبيرًا على سمعة إسرائيل، فالمحطات التلفزيونية كلها تنقل أخبار الانتفاضة ومشاركة الجماهير بها.

- كان الله معهم، الله أكبر على إسرائيل.

(36)

حزيران 1989

في غرفته في سجن عسقلان، حيث الطقس الحار، كان عمر يستمع إلى نشرة الأخبار عبر الراديو وهو شارد الذهن يفكر في مستقبل الانتفاضة.

أحس بألم حاد في بطنه، التفت عمر إلى زميله وقال له:

- أحس بمغص شديد، ألديك حبة أكامول؟

- لا ليس عندي. هل أستدعي لك الممرض؟

- لا، فلن يفعل شيئًا، لقد نقلوني أكثر من مرة إلى المستشفى وأعادوني دون عمل شيء.. آخ، آخ.

شعر عمر وكأن شيئًا بدأ يضربه في الجهة القريبة من القلب. وضع الراديو جانبًا، وحرك جسمه، وقام ببعض الحركات، فلفت نظر الآخرين إليه.

قال أحدهم:

- يبدو أن بردًا أصابك.

- بردًا بالصيف؟

- ما زلنا في فصل الربيع.

- نحن في شهر حزيران.

الألم يشتد. يستلقي عمر على فراشه ويطلب استدعاء الطبيب، أو تحويله إلى العيادة. يقوم شاويش الغرفة بنقل الخبر لممثل المعتقل الذي ينادي السجان من بين القضبان. يحضر السجان(حسكل) ويسأله:

- ما الخبر؟

- عمر القاسم مريض، يشعر بألم شديد، نريد استدعاء الطبيب.

يهز السجان رأسه، ويتصل بالإدارة من الهاتف الموجود في غرفة المراقبة، ويعلمهم بالأمر. يغلق الهاتف، ويفتح الباب طالبًا نقل عمر إلى غرفة العيادة الموجودة في القسم. نفسه.

بعد دقائق يحضر الممرض المناوب، يفحص عمر، ويستمع إلى شكواه، ويقرر ضرورة نقله إلى المستشفى.

يشعر عمر بدوار شديد، رأسه أصبح ثقيلاً، يرى سقف الغرفة يدور، يقول لأحد الأسرى:

- أشعر بدوار شديد، كأنني سأودعكم، إن لم أعد، فلا تنسوا إكمال المسيرة.

فقال له زميله:

- لا تقل ذلك، ستعود لنا بصحة جيدة رافعًا الرأس. نحن بانتظارك يا بطل.

عمر يغيب عن الوعي، يحضر ممرض آخر وسجان يضعانه في حمالة ثم ينقل إلى سيارة تقف في مدخل السجن، يتركه زميله لسجانيه الذين حملوه إلى السيارة.

عاد ممثل المعتقل غاضبًا، دخل إلى الغرفة، فسأله الموجودون وقد علت وجوههم الحيرة:

- ماذا حصل؟

- لقد نقلوه إلى المستشفى.

- لا بد أنهم سينقلونه إلى مستشفى سوروكا، فهو أقرب مستشفى الآن للسجن.

- أنا خائف عليه.

- ليحميه الله.

- ما أصعب أن تترك رفيق دربك في يد أعدائك فاقدًا الوعي لا تعرف ماذا تفعل، ولا تستطيع أن تفعل شيئا!

- وماذا تتوقع من أعدائنا؟!

- تمنيت لو كنت معه، أو صحبه أحدنا، على الأقل عندما يستيقظ من وعيه سيجد أحدًا بجانبه.

- سيعود بإذن الله.

- هل تدرون ماذا قال لي؟

- أخبرنا ماذا قال.

- أخاف أن لا أعود إليكم، إن لم أعد، أوصيكم أن تكملوا المسيرة.

- لله درك يا عمر! حتى وأنت على فراش الموت تفكر بالمسيرة والثورة!

- وهل أوصاك بشيء آخر؟

- لا تنس أن تسلم على علي النجار، وسمير قنطار، وكل الشباب.

- أصيل، لا ينسى رفاق دربه القدامى.

انطلقت السيارة إلى مستشفى سوروكا في بئر السبع. كان عمر يغيب عن الوعي ثم يعود فجأة، ينظر حوله فيرى ممرضًا، والسجانين، والقيود بيديه، ويحس القيد برجليه: قيود؟ حتى وأنا لا أستطيع الحركة!

حاول أن يدقق في وجوههم، فوجدها عابسة. أحد السجانين نظر إليه عاقدًا حاجبيه كأنه يريد افتراسه، فيما كان الآخر يحاول أن يبتسم له مومئًا برأسه كأنه يرسل تحيه مجاملة له. هل هي ابتسامة التشفي؟ أم أنه يحاول أن يكون أكثر لطفًا من زميله ؟ كل فترة يحس الممرض نبضه، ويسجل على ورقة يحملها أشياء لا يعرفها عمر. سأله الممرض:

- كيف تشعر الآن؟

يحاول عمر أن يرد عليه فيشعر بالإرهاق، فيختصر الإجابة قائلاً:

- أشعر بألم شديد.

الطريق طويلة، وعمر ما يزال يشعر بالدوار، لحظات يستسلم بعدها للنوم، ولا يستيقظ إلا عندما يصل المستشفى، ويسحب الحمالة ممرضون من مستشفى سوروكا، يشعر بهزة عنيفة، فيفتح عينيه فيرى وجوهًا جديدة، الكل يتهامس عليه بالعبرية، الشرطة تملأ المكان، ينقل على الفور إلى غرفة خاصة، يترك وحيدًا ومكبلاً فيها، يغلق عليه الباب، لم يسأله أحد شيئًا. يتساءل: متى سيحضرون؟

الألم يزداد، يشعر بهزات عنيفة، يحاول أن يصرخ فتخرج أصواته متقطعة خافتة لا يكاد يسمعها أحد.

فجأة يفتح الباب، يدخل طبيب وممرضان، يشير إليهم بيده، كان وجهه أصفر اللون كأنه في حالة احتضار. يقول الدكتور لهم:

- كيف تركتموه بهذه الحالة؟

فيرد عليه أحد الممرضين:

- لدينا تعليمات من إدارة السجون نتصرف وفقها.

- ولكن عندما يدخل المستشفى فهذه مسؤوليتنا.

– ولكنه مخرب، وليس سجينًا عاديًّا، ونحن نلتزم بما تقرره إدارة السجون.

– لماذا أحضروه إلينا إذَا؟ كان بإمكانهم إبقاءه عندهم، هل يريدونه أن يموت عندنا؟

– ماذا سنفعل الآن؟

– أدخله غرفة الطوارئ.

– هل ستنقذه من الموت؟

– وهل نتركه يموت؟ إن بينه وبين الموت لحظة.

– وهل نكافئه على...

– أنا لا أتحمل مسؤولية...، لن أوقع على أية أوراق.

خرجوا من الغرفة، وبقي عمر ينازع بين الحياة والموت.

قال في نفسه: لعلها اللحظات الأخيرة... إذًا قرروا قتلي ببطء، يريدونني أن ألفظ أنفاسي الأخيرة في تلك الغرفة، من سيكتشف جرائمهم؟ سيحضرون طبيبًا غيره يوقع على شهادة وفاتي. مجرمون، قتلة، يبررون لأنفسهم قتل أسير أعزل مريض بين أيديهم، من يدري، لعلهم يعدون ذلك توجيهًا من الله لهم!

دقات قلبه تزداد، يشعر أن رأسه انتفخ، حاول تحريك يديه لكن القيد منعه. بدأت تتراءى له صور أمه، وأبيه، وأخيه علي، وأحمد، وأخواته،

فريال، وأمل... صور رفاقه القدامى يلوحون له بأيديهم؛ هاني العيساوي، صلاح شاهين، عطا القيمري، محمد حسان، علي الجعفري، علي النجار، سمير قنطار، سليم الزريعي، سليم نسيبه، عوني الوعري، أبو جمال مراغة، راسم حلاوة، راضي الجراعي، يعقوب عودة،... كلهم يلوحون له بأيديهم مودعين، هل حانت لحظة الوداع؟

يغيب عن الوجود ثم يعود لا يدري كم من الوقت وهو على تلك الحالة، لم يعد يميز الأشياء، أصبح رأسه ثقيلاً لا يستطيع تحريكه حتى جفونه لم يقدر أن يفتحها.

فجأة تظهر له صورة ملاكين باللباس الأبيض، يتقدمان نحوه ملوحين بأجنحتهم، أحدهم عن اليمن، والثاني عن اليسار، ينظر إليهما متأملا كأنه رآهما من قبل، يتقدمان نحوه، يمد كل منهما يدًا إليه، يرفع يديه لكن القيد يمنعه، يضعان يديهما على القيد يفكانه ويساعدانه على الوقوف.

يسألهما:

- من أنتما؟

يبتسمان معًا ويجيبان بصوت واحد:

- أنسيت؟ لقد كنا معك في نفحة.

ينظر إليهما متعجبًا ويقول:

- أنتما؟

- نعم، نحن.

أعتقد أن ذاكرتي خانتني، نظر إلى الأول الذي عن اليمين وقال له:

- أنت على الجعفري؟

هز رأسه.

واستدار إلى اليسار وسأله:

- أنت راسم حلاوة؟

هز رأسه.

رفع يديه، فحملاه معًا وطارا به إلى السماء. سألهما إلى أين؟

- إلى كل الإخوة، ألم تشتق لهم؟

- بلى والله.

- أبو جمال مراغة بانتظارك.

- هل سأراه؟

- ستراهم جميعًا، كلنا بانتظارك يا عمر.

فتحت الغرفة، دخل طبيب جديد مع الممرضين ودخل معهم حراس السجن المكلفين، اقترب منه الطبيب، نظر إليه، رفع يده، ثم تركها، أحس نبضه، قال لهم:

- وضعه لا يطمئن.

وضع السماعة على صدر عمر لحظات ثم استدار إليهم قائلاً:

- لقد توفي، توقف قلبه عن النبض.

نظر الممرض إلى الحراس وابتسم ابتسامة عريضة ثم قال لهم:

- لقد تخلصتم من مخرب كبير.

رن جرس الهاتف في سجن عسقلان، مدير المستشفى يخاطب مدير السجن:

- السجين الذي أرسلتموه لنا (عمر محمود القاسم) توفي قبل لحظات، ماذا تريدون أن نفعل بجثته؟

- احتفظوا بها حتى تقرر إدارة الداخلية ماذا ستفعل بها.

(37)

"صدق إحساس عمر القاسم، فلم يعد إلى سجن عسقلان، ولم ينتقل إلى سجن آخر، ولم يطلق سراحه، لكنه انتقل إلى العالم الآخر، انتقل إلى حيث راسم حلاوة، وعلي الجعفري، واسحاق مراغة، وعلي الشطريط، وأبي جهاد، وكمال عدوان... وكل شهداء شعبنا وأمتنا، انتقل بعد أن قتلوه بإهمال علاجه، وبعد أن قتلوه ادعوا أنهم بذلوا كل جهد لإسعافه.

عمر القاسم استشهد في معمعة الانتفاضة ليشكل شعلتها الأساس خلف القضبان وخارجه. 21 عامًا قضاها خلف القضبان ليلحق بدرب الشهداء".

توقف علي النجار قليلاً ليمسح عبراته، ثم أكمل كلمته أمام أسرى سجن نفحة في الساحة، حيث كانوا يتجمعون أثناء الفورة حدادًا على شهيد قائد خاض معركة الأمعاء الخاوية في نفحة ضد غطرسة الاحتلال وجبروته. نظر إلى الجالسين على الأرض وأكمل قائلاً:

- كان يحلم قبل استشهاده أن يتحرر من الأسر ليشارك شعبنا انتفاضته، كان يقول لي: "أتمنى يا علي أن أشارك أطفالنا قذف الحجارة على جنود الاحتلال، فإن حجارة أطفالنا أشد وطأة على الاحتلال من مدافع جيوش أكل الصدأ دباباتها، حجارة هؤلاء الأطفال نقلت قضيتنا إلى مرحلة متقدمة أتمنى على قيادتنا أن تحسن إدارتها".

أيها الإخوة والرفاق..

لم يكن عمر القاسم ابن تنظيمه وحده، ولا ابن تيار سياسي، كان فوق الأحزاب، وفوق التقسيمات، وفوق الفئوية، كان وحده أداة توحيد، وشعلة الثورة. تعامل مع كل من عرفه بإخلاص، وتفان، وأمانة، أحب الجميع، ومد جسور المحبة، والتفاهم، كان لنا نِعم الأخ والأب، والقائد الوطني، يناقش الجميع، ويتحسس مشاكلهم وآلامهم، ويشجعهم، ويزرع فيهم الأمل، فقد كان يعلم عبر تجربته الطويلة أن الأسير الفلسطيني ليس هالة أسطورية، وقلبًا حديديًّا، بل هو أيضًا إنسان له مشاعر وأحاسيس، له أحلامه، وآماله، له شبكة علاقاته العائلية وأصدقائه ومعارفه في الخارج. عمر الذي كان يضحي بوقته الخاص ليجلس مع أصغر أسير فينا يتحسس مشاكله ويعمل على حلها، لقد فقدنا أيها الإخوة رجلاً لا يعوض في مسيرة أسرانا وثورتنا.

إلى جنات الخلد أبا القاسم.

إلى جنان الخلد يا عمر.

وإنها لثورة حتى النصر.

صفق الجميع لعلي النجار الذي انهارت دموعه بعد انتهاء كلمته، تلقفه أحد الأسرى معانقًا، شكره على كلمته وقال له:

- استشهاد عمر خسارة لنا جميعًا، وعزاؤنا استمرارنا في الكفاح من أجل استعادة حقوقنا الوطنية.

بدأ الجميع ينشدون معًا أغنية مرسيل خليفة، فوقف علي مع الواقفين فيما كان السجانون يراقبون الموقف من بعيد.

تشابكت أيديهم معًا، وانطلقت حناجرهم تردد:

"منتصب القامة أمشي

مرفوع الهامة أمشي

في كفي قصفة زيتون

وعلى كتفي نعشي

وأنا أمشي وأنا أمشي

وأنا، وأنا، وأنا أمشي".

لقد نزل خبر استشهاد عمر القاسم على علي النجار نزول الصاعقة؛ لم يصدق الخبر عندما سمعه من إذاعة الثورة الفلسطينية التي نعته،

ووصفته بالعقيد عمر القاسم، عضو اللجنة المركزية، اهتز بدنه، وصرخ في الغرفة: لا، لا، لم يمت...

كان عمر صديقه الرئيسي بعد عملية تبادل الأسرى، قضى معه حوالي 15 سنة متنقلين من سجن إلى آخر، واجها معًا السجانين، وقسوة السجن، فرقوا بينهما في الأسر، وأخيرًا في الحياة.

هكذا قدرنا (قالها علي النجار لنزلاء غرفته)، يبدو أن تحررنا أصبح حلمًا، لن يتحقق إلا باستشهادنا. سأله زملاؤه في الغرفة:

- ما الخبر؟

فقال لهم عمّا سمعه.

سأله أحدهم:

- عمر استشهد؟

- نعم، لقد قتلوه.

منحوه وسامًا عسكريا، عدّوه عقيدًا، كأنه كان بحاجة إلى أوسمتهم وشاراتهم العسكرية. عمر القاسم كان وسامه الأساس الذي يعتز به دخوله قلوب الأسرى، وتربعه في عقول أبناء الانتفاضة.

في الصباح الباكر استعد علي للزيارة، كان متشوقًا لمن يأتي ليخبره كيف كانت جنازة عمر القاسم، يريد أن ينصت، أين دفنوه؟ من شارك في جنازته؟ كيف كان توافد المعزين من أبناء شعبنا؟

لم تترك له خولة وأخوه سعيد وأخته رحاب فرصة ليسأل شيئًا، فقد نقلوا له تفاصيل الجنازة كأنه حاضر فيها.

كان الناس بالآلاف على الرغم من إغلاق كل الطرق إلى القدس، وانتشار قوات الجيش في كل الشوارع. انطلقت المسيرة من بيت أمه في الشيخ جراح يتقدمها رجال الدين المسلمين والمسيحيين تتشابك أيديهم معًا، وسارت خلفهم الشخصيات الوطنية من مختلف المناطق التي استطاعت الوصول إلى القدس ولم تعتقلها قوات الاحتلال بمن فيهم وفد من أهالي الجولان السوري المحتل، ووفد من شعبنا في الجليل. كان الحضور وطنيًّا عامًّا، كل القوى الوطنية شاركت في الجنازة، كانت مجموعة من الشبان باللباس الأحمر من رفاق عمر يسيرون محيطين بالنعش، وينظمون المسيرة، ويحافظون على الهدوء. الصحافيون كانوا في كل مكان يلتقطون الصور.

سارت الجنازة عبر شارع صلاح الدين إلى باب الساهرة، ومن هناك انعطفت إلى اليسار باتجاه باب الأسباط. رفع بعض المشاركين الأعلام الفلسطينية، فهجم عليهم الجنود وحصل اشتباك بالأيدي، كانت أيدي الجنود على الزناد مستعدة لإطلاق النار، ولكن الشباب حرصوا على عدم تصعيد الموقف كي لا تتحول الجنازة إلى مجزرة وطنية. سار الآلاف إلى باب الأسباط، وهناك صعدت إلى بوابة باب الأسباط ثم إلى المسجد

الأقصى للصلاة عليه، ومن هناك حمل إلى مثواه الأخير في المقبرة الشمالية قريبًا من المدخل هناك.

بعد انتهاء خولة ورحاب وسعيد من وصف الجنازة، هز علي رأسه ذارفًا دموعه مرة أخرى على رفيق دربه.

قال لهم:

- لم أتوقع أن يستشهد عمر بهذه السرعة! كانت صحته جيدة، قوية البنية، ولكن لا أعلم أي الأمراض خلفوها في جسده من الداخل.

فقال له سعيد:

- لقد قتلوه يا أخي، لقد تعودنا على توديع الشهداء، كأنه قدر شعبنا أن يودع الشهداء كل يوم. في زمن الانتفاضة لم يعد الشهداء يسقطون كل فترة، بل كل يوم، الحزن أصبح يخيم فوق بيوتنا، وفي حاراتنا، فكل عائلة فقدت ابنًا، أو أخًا، أو أبًا...

فقاطعته خولة:

- لن نتركهم يغرقوننا في الأحزان، وبحر الدموع، سترفرف رايات الصمود والنصر فوق ركام بيوتنا، وشوارعنا المهدمة.

أكملت رحاب قائلة:

- نعم، لن نغرق في بحر الدموع، لن يحققوا بمجازرهم علينا هدفهم، الانتفاضة تطالب الناس أن يحتفلوا بالأعياد، وأن يقيموا الأعراس، لن

نحول فلسطين إلى مأتم، بل إلى عيد وطني للجيل القادم، عيد شعبي عندما تمتزج فيه دماء شهدائنا بترابنا المقدس.

فقال علي:

- كأنكم أكثر حماسًا مني والله.

فقالت خولة:

- لا يا علي، لسنا أكثر حماسًا منك، فنحن تعلمنا منك الكثير، ولكن يجب أن تشعر بما خلفته الانتفاضة بنا، وحّدتنا، وحركت كل أبناء شعبنا...

فأكمل سعيد:

- وكلما سقط شهيد أضاء لنا شمعة في النفق الطويل...

فقالت رحاب:

- ليت عمر حيًّا بيننا الآن ليتمتع معنا بضوء الشموع.

فقالت خولة:

- إن لم يكن معنا، فأنت تنوب عنه، وسمير القنطار، وسعيد، وأحمد، وعبد الله... أنتم جيل عمر، كلكم عمر.

(38)

ثلاث سنوات على الانتفاضة وما زالت مستمرة لكن بلا نتائج سياسية على الأرض. المفاوضات تراوح مكانها، صعود كاسح للقوى الإسلامية في الشارع، وتراجع كبير للقوى اليسارية على الأرض، زيادة خلافاتها وانقساماتها، الانتفاضة عرّت الجميع بحيث بانت كل القوى على حقيقتها. الاتحاد السوفيتي يشهد صراعات عنيفة داخلية تهزه من الداخل. حرب العراق ضد الكويت، والحرب لتحرير الكويت غطت على الانتفاضة وأثرت عليها.

أسرى عسقلان يشاركون الانتفاضة بعدة فعاليات وإضرابات. إدارة السجون تنقل بعض أسرى عسقلان إلى سجون أخرى وتنفي علي النجار إلى (معفار الرملة)، وهناك تنقله إلى زنزانة انفرادية لا يرى فيها الشمس، ولا يعرف الوقت كأنه تحت الأرض، اختلطت عليه الأيام بعد فترة فلم يعد يميز الليل من النهار.

سأل السجان في إحدى المرات:

- إلى متى أنا هنا؟

فهز السجان رأسه ثم قال له:

- إلى أن يقرروا نقلك.

- حسنًا، ما الساعة؟

- لا أعرف.

- لكنها على يدك.

- أعلم، ولكني أعمل حسب الأوامر، لا حسب طلباتك.

بعد عدة أيام لا يعرف عددها، فتح السجان باب الزنزانة ودفع إليها بسجين جديد.

سجين جديد إلى الزنزانة، أمر غريب! رفع علي عينيه ليرى من القادم الجديد.

سأله:

- من أي سجن أنت؟

نظر إلية السجين وقال له:

- أنا لا أتكلم العربية.

قالها بالعبرية، فسأله علي بالعبرية:

- لماذا أنت هنا؟

عرف علي أنهم أحضروا لزنزانته سجينًا جنائيًّا يهوديًّا على غير عادتهم. كان السجين شابًّا في العشرينيات من عمره، طويل القامة، عريض المنكبين، رأسه كبير، شعره أسود، بني العينين عرف عن نفسه بأنه يدعى (أبوتبول) من حيفا.

قال له علي:

- أنا علي النجار من فلسطين، سجين سياسي.

حدق اليهودي في وجه علي وقال:

- يعني أنت مخرب؟

-لست مخربًا، وإنما مقاتل من أجل الحرية.

ضحك اليهودي وقال ساخرًا:

- أية حرية، أنتم تقتلون الأطفال والنساء.

- وماذا تفعل حكومتكم؟ ألستم من ارتكب مجازر دير ياسين، وبحر البقر، وكفر قاسم، وغيرها، وغيرها؟

- نحن ندافع عن بلادنا التي طردتمونا منها.

- كيف بلادك؟ ألم تأت إليها من روسيا؟

- كانت بلادنا قبل ثلاثة آلاف عام.

- وهل تصدق تلك الخرافات؟

- كانت لنا دولة، هكذا تقول التوراة!

- وهل قالت التوراة إننا نحن الذين طردناكم منها؟ ألم يقاتل اليهود آنذاك سكانها الأصليين؟ كفى، كفى، لا أريد سماع أكاذيبكم، لا داعي لنقاش مع جنائي مثلك.

- لا تحاول إثارتي.

- أنت الذي فتحت النقاش.

- اخرس يا ابن الزانية.

- أنا ابن الزانية، فمن تكون أنت؟

هجم (أبوتبول) على علي النجار، فتعاركا، وبدأ كل منهما يكيل اللكمات ضد الآخر.

كان السجان خلف الباب يستمع للعراك، وعندما أيقن أن العراك قد انتهى، وضع المفتاح بالباب، فجلس كل منهما على الأرض يمسح الدماء عن وجهه. نظر السجان إليهما، كان علي مصابًا بعدة ضربات في وجهه، والدم يسيل من فمه، فقد كسر أحد أسنانه وتضخمت لثته، فيما كان (أبوتبول) قد أصيب بعينه وظهرت دائرة سوداء حول العين اليمنى.

سأل السجان عليًّا:

- ماذا حصل، هل تعاركتما؟

- لا لم نتعارك.

- فما هذه الدماء التي تنزف من فمك؟

لم يرد علي عليه، لقد أيقن أنهم أحضروا السجين اليهودي خصيصًا لضربه، فماذا تفيد الشكوى للجلاد؟

استدار السجان إلى (أبوتبول) وهو يسخر من قول علي وسأله:

- هل أراد هذا المخرب قتلك؟

نظر (أبوتبول) إلى السجان، ثم إلى علي، وقال بعد تردد:

- كنا نلعب.

فقال له:

- تلعب مع مخرب؟

فرد علي قائلاً:

- لسنا مخربين، بل حكومتكم حكومة الخراب والدمار والمجازر.

فقال) (أبوتبول):

- إن كنتم تعدونه مخربًا، فلماذا وضعتموني معه؟

ضحك السجان لسؤاله، ثم قال بعد صمت:

- الزنازين مليئة بالسجناء، سأطلب نقلك من هنا.

غادر السجان الزنزانة بعد أن أغلق الباب. نظر (أبوتبول) إلى علي النجار وقال له:

- أنت الآن أثبت أنك رجل شديد.

فقال له علي:

- المعركة لم تنته بعد.

فرد عليه (أبوتبول):

- لقد حرضوني عليك، كأنهم أرادوا أن أقتلك. أنا محكوم بالسجن المؤبد. السجانون هنا كلهم كلاب أشتريهم بالفلوس، هؤلاء السجانون معظمهم روس مثلي وهم لا يفكرون، يلتزمون بالتعليمات دون نقاش، لماذا أحضروك إلى هنا؟

- كنت في عسقلان، وفجأة نقلوني إلى هنا.

- حسنًا، هل تدخن؟

ثم أخرج) (أبوتبول) السجاير من جيبه.

- لا، لا أدخن.

مد له سيجارة، وقال له:

- جربها لندخن معًا.

- لا، شكرًا.

- دخن هذه المرة، لقد تعاركنا طويلاً، والآن لندخن معًا.

أخذ علي السيجارة منه، وبعد أن ولعها من قداحة كان اليهودي قد خبأها في سرواله الداخلي، قال اليهودي:

- لماذا تريدون قتل اليهود ورميهم في البحر؟

- أما زلتم تؤمنون بهذه الأكاذيب؟

- إذًا ماذا تريدون منا؟

- نريد أرضنا، نريد الوطن الذي اغتصبتموه منّا.

- وأين يذهب اليهود؟

- عودوا إلى بلادكم.

- اسمعْ، هذه بلادنا، معظم اليهود الآن ولدوا بها وعاشوا بها وأصبحت هذه بلادهم.

- فماذا نفعل نحن؟

صمت اليهودي لحظة ثم قال:

- اسكنوا معنا.

- وماذا عن الذين طردتموهم وشردتموهم؟

فجأة فتح الباب ونادى السجان على (أبوتبول) وأغلق الزنزانة من جديد.

(39)

توجهت رحاب اليوم إلى بريد باب العامود، فهي لا تذهب هناك إلا كل فترة لعلها تستلم رسالة من أخيها الأسير، أو من إحدى صديقاتها القدامى. فجأة تفاجأت برسالة بالروسية، فتحتها، فعرفت أنها من زوجها السابق، بدأت تقرأها.

"عزيزتي رحاب..

لن أضيع من وقتك كثيرًا، لقد حصلت على فيزا للهجرة إلى الولايات المتحدة حيث سأهاجر نهائيًّا إلى هناك، لقد انهار الاتحاد السوفيتي، وأصبحت الحياة هنا لا تطاق، فقد انهارت معه أحلامنا، ومعتقداتنا.

لا أستطيع أن آخذ معي ابننا عليًّا، سأكون هناك بحاجة إلى وقت إلى العمل، وليس عندي وقت لتربيته، لهذا سأعرض عليك أن تربيه أنت، وفي حال رفضت ذلك، سأبقيه عند أمي هنا.

هذا رقم هاتفي أنتظر ردك، إن لم أستلم ردًّا خلال شهر، سأسافر وسيكون عند أمي، إلى اللقاء.

فلاديمير."

لم تصدق رحاب الرسالة، فبقدر فرحتها فقد حزنت كثيرًا، فرحت لأنها ستستعيد ابنها، ولكنها حزنت لأنه من الصعب أن تحضره ليعيش معها؛ كيف تحضره وكلهم يعرفون أنها لم تتزوج من فلاديمير؟ ماذا تقول لهم؟ حتى لو قبل عمران، فالوضع صعب، ماذا يقول عمران لأهله؟

يا إلهي، فلاديمير سيهاجر إلى أمريكا؟! كان شديد العداء لها، لسياستها، وهو سيهاجر نهائيا إليها كما قال: "لقد انهارت مع الاتحاد السوفيتي أحلامنا ومعتقداتنا".

عادت إلى البيت لتجد عمران هناك، وعندما دخلت ابتسم قائلاً:

- ألا تباركين لي؟

- على ماذا؟

- لقد عينوني مدير تحرير في الفجر؟

- مدير تحرير مرة واحدة؟! لا أنت تمزح بالتأكيد!

- صدقيني، سأستلم منصبي غدًا.

نظرت إليه متعجبة، ثم قالت:

- غريب، جريدة الفجر لا تعين مثلك مدير تحرير!

- يا رحاب، الدنيا تغيرت، ويجب أن نساير الركب.

- يبدو أن ثمة أشياء لا أعرفها حصلت.

- يا رحاب، الانتفاضة خلقت وضعًا جديدًا، والعالم حولنا يتغير، ونحن علينا ألا نظل مكاننا نرفع شعارات حماسية. لقد أصبحنا عائلة وبحاجة إلى مصاريف.

- أفصحْ أكثر.

- الكل يبني عمارات، ويشترون سيارات، ونحن نحلم بالاشتراكية والمساواة.

- عمران؟! منذ مدة وأنا أشعر أنك تتغير، هل اشتروك؟

- ما هذا الهذيان يا رحاب، لا تقلقي أنا لم أتغير معك، حبي لك كما هو، ولكن علينا الاهتمام بمستقبلنا.

هزت رأسها ثم قالت له:

- حبيبي، وصلتني هذه الرسالة من روسيا سأقرؤها لك.

- من روسيا؟

- أقصد من فلاديمير، يقول إنه سيهاجر إلى أمريكا، وسيترك ابني عليًّا، ويطلب مني حضانته.

- حضانته؟ كيف؟

- لهذا أنا محتارة.

صمت للحظة ثم قال لها:

- ألم تقولي لي إنه كان...

- نعم، ولكن انهيار الاتحاد السوفيتي جعله يغير رأيه.

ابتسم بخبث وقال لها:

- أرأيت كيف يتغير الناس؟ يبدو أننا كنا في ضلال، كنا نخدع أنفسنا.

- المهم، ماذا تقترح علي؟

- ليس عندي اقتراح محدد سوى القول إن إحضار علي ابنك إلى هنا مشكلة كبيرة.

- ولكنه ابني.

- أعرف ذلك، ولكن أنسيت عندما تزوجنا، ذكرت أنك عزباء، فماذا ستقولين لأهلك؟ ماذا سأقول لأهلي؟ لأصدقائنا؟ سأكون مدير تحرير، سيسألني الناس من هذا، فماذا أقول؟

صمتت لحظة طويلة، فقد كانت تعرف ذلك تمامًا، ثم قالت له:

- ما رأيك لو قلنا إننا تبنيناه؟

- يا رحاب، الناس تتبنى الأطفال عندما لا يكون لديهم أولاد، ولكن لدينا ابنة، وابن، لا يوجد مبرر لتبني ولد روسي عمره أكثر من ست سنوات.

- لكنه ابني، تعرف قلب الأم.

- لقد كان ابنك خلال السنوات الماضية كلها.

- صحيح، ولكني كنت مجبرة على تركه وكان مع والده، لكن الآن فإن والده سيتركه، ولي حق حضانته.

شعر بغضب، تغيرت تعبيرات وجهه؟ قال لها:

- رحاب، لا أستطيع الموافقة على وجوده معنا، عليك البحث عن حل آخر.

جلست رحاب على المقعد، لا تعرف ماذا تفعل، كانت تمتم في داخلها: كل ما قاله عمران صحيح، لكنه ابني، اشتقت إليه، أتمنى لو أحتضنه من جديد.

نظرت إلى عمران ثم قالت:

- سأذهب لإحضاره، وبعد ذلك نتفق على حل.

فقال لها بانفعال:

- رحاب، لن تذهبي لإحضاره.

- لن تمنعني رؤية ابني واحتضانه.

- لقد اتفقنا في بداية زواجنا على ذلك.

- لكن الأمور تغيرت.

- أنا لا أريد طفلاً جديدًا في بيتي.

- لكنه ابني.

- رحاب، أنت تجبريني على القول، عليك أن تختاري بين ابنك علي وبيني أنا والأولاد هنا؟!

نظرت إليه مستغربة وقالت:

- لم أتوقع منك ذلك.

- وأنا لم أتوقع منك ذلك. إنك تريدين تدمير كل شيء.

تركها وغادر المنزل غاضبًا.

(40)

لم تنم رحاب تلك الليلة. كانت أصعب ليلة تمر عليها، فلاديمير سيترك علي الصغير عند جدته؛ ماذا لو توفيت جدته؟ ابنها سيعيش يتيمًا ووالداه أحياء.

إنه امتحان صعب؛ ماذا تختار؟ ماذا ستختار وكل خيار أصعب من غيره؟ لا تدري من سيقف معها. هل سيتفهم علي موقفها؟ لكن حتى لو تفهم فالمسألة لم تعد الأهل، بل أصبحت الأسرة، أن أختار هذا أو ذاك.

ظلت تتقلب طوال الليل، نهضت من الفراش وذهبت تجلس وحدها في الصالون، فتحت الراديو وبدأت تستمع لموجاتها تقلب من إذاعة إلى أخرى. أخبار الانتفاضة في كل مكان، لا شيء يسر البال، الأوضاع على الأرض تتدهور. الوضع في العراق سيء. الاتحاد السوفيتي انهار تمامًا، وشعوبه تنفصل عنه. الانتفاضة لم تعد كالسابق، تغير طابعها السلمي، واتجهت نحو المقاومة المسلحة، وماذا تعرف إسرائيل غير العنف؟! لكن

الذي يحيرها أن المشاركة الجماهيرية الواسعة تلاشت، أصبحت الانتفاضة الآن نشاط النخبة، القوى الوطنية تقوم بالمواجهة من خلال نشطائها، كانت الانتفاضة قبل سنوات تشارك بها الجماهير كلها، كنت تشعر برهبتها، اليوم أصبحت مجرد حديث إذاعات. المفاوضات لم تقدم شيئًا.

عادت تفكر بابنها علي من جديد: ماذا لو أحضرته إلى القدس معي؟ لكن كيف سيعيش هنا؟ كيف سأثبت أنه ابني وقد سجلت أنني عزباء عندما تزوجت عمران؟ سيتهمونني بالتزييف، ستكتب عني صحافتهم "أخت الأسير علي تخدع زوجها... الخ". أنا محتارة، أكاد أجن! ماذا أعمل؟

تعبت من التفكير، عادت إلى الفراش كي لا ينتبه عمران فيقلق مثلها.

نظرت إليه، كان غارقًا في نومه، تغير عمران كثيرًا، كان يرفع شعارات اليسار، والشعب، ومحاربة الفساد، والفقر، أصبح كل همه كيف يصبح من أصحاب النفوذ في المجتمع، أصبح من كبار اليمين.

لا بد من الوصول إلى حل، هل أخبر سعيد؟ ليس أمامي حل آخر، يجب إخباره، إن لم يتفهم الموضوع على الأقل سيكتم السر عن أمي وأبي، وهذا هو الحل، قد يساعدني في إحضار علي، قد أجد سندًا، آه لو كنت أعرف أنني سأصل إلى هذا المأزق لتغير الحال.

ابتسمت وهي تتذكر أغنية عبد الحليم حافظ رسالة من تحت الماء "لو أني أعرف خاتمتي، ما كنت بدأت".

في اليوم التالي توجهت إلى سعيد في البيت مع ابنها وابنتها. رحب بها سعيد قائلاً:

- ما هذه المفاجأة الحلوة، لماذا لم تخبريني مسبقًا لنعد لك عشاء مناسبًا؟ ثم أين عمران، لماذا لم يأت معك؟

- هزت رأسها:

- عمران هذه الأيام مشغول، أنسيت أنه مدير تحرير؟

- لم أنس، فقد أصبح الآن من كبار الصحافيين، وأنت لماذا تقاعدت عن العمل؟

- لقد طلب مني ذلك للاعتناء بالأولاد، والبيت، أصبح الوضع صعبًا مع وجود طفلين يا سعيد.

- عندك حق...

قاطعته وقالت لزوجته:

- كم أنا بحاجة إلى فنجان قهوة؟

- فقط قهوة؟ تكرم عينك يا رحاب.

ذهبت تحضر لهما القهوة، فقالت رحاب لسعيد:

- جئتك في أمر مهم.

- خيرًا إن شاء الله.

- أين يمكن أن نكون وحدنا؟

- تعالي إلى غرفة النوم.

قال لزوجته:

- أنا مشغول مع رحاب لفترة، سنكون وحدنا.

فهمت زوجته ما يقصد، لعله أمر يخص رحاب وزوجها. بدأت تحضّر القهوة، وتتابع أعمالها المنزلية.

جلست رحاب على طرف السرير فيما جلس سعيد على الكرسي مقابلها، كان متلهفًا لمعرفة الخبر الذي ستحدثه به. سألها:

- ما الأمر؟ أقلقتني.

تنهدت لا تعرف من أين تبدأ، صمتت لحظة ثم بدأت حديثها:

- سعيد، أريد أن أعترف لك بأمر أرجو أن يبقى سرًّا بيننا مهما كان رأيك فيه.

- تابعي، أنا أسمع.

- أنا كنت متزوجة قبل زواجي من عمران.

حدّق بها غير مصدق:

- ماذا؟

- لا تنفعل، لقد كنت قبل زواجي من عمران متزوجة من روسي، فلاديمير، لكن طلقني قبل عودتي إلى فلسطين.

- ولم يعرف عمران بذلك؟

- دعني أكمل لك الصورة قبل أن توجه أي سؤال.

هز رأسه وقد احمر وجهه، ونظر إليها غاضبًا كأنه يأمرها أن تتابع حديثها.

- أنجبت من فلاديمير ولدًا جميلاً رائعًا سميته عليًّا مثل أخي علي. كان فلاديمير من أنصار القضية، ومناضلاً في سبيل حرية شعبنا، عشنا سعداء في السنة الأولى ثم دب الخلاف بيننا، وعلى الرغم من تفاهمنا فكريا كانت الثقافة مختلفة بيننا، العادات، والتقاليد، النظرة إلى المستقبل، فتوصلنا إلى الطلاق، لم أستطع حضانة علي لأنني بعد طلاقي لم أستطع البقاء في روسيا، فعدت وتركته مع والده.

صمتت للحظة..

- بعد عودتي تزوجت عمران، وقد أخبرته بالحكاية قبل زواجنا، فوافق على أن يكتم السر، ولكن الذي استجد لم يكن في الحسبان، فلاديمير بعد انهيار الاتحاد السوفيتي سيهاجر نهائيًّا إلى أمريكا دون علي، لهذا سيتركه في روسيا عند أمه الطاعنة في السن، وطلب مني إن أحببت أن آخذه، وأنا في حيرة من أمري، فماذا ترى؟

زم شفتيه وحركهما شمالاً ويمينًا، وقال ساخرًا:

- ماذا أرى؟ سؤال حكيم؟! ماذا أرى؟ ترتكبين الجرائم دون علمنا، وتضعين العائلة في المشاكل ثم تقولين ماذا ترى؟ وكأن مهمتنا هي فقط مساعدتك على ترقيع فضائحك. تزوجت ذلك الروسي الذي تكلمت لنا عنه عندما كنت طالبة؟

هزت رأسها:

- هو نفسه.

- وكيف تفعلين ذلك سرًّا؟ من أين لك كل هذه الوقاحة يا أيتها الصحافية؟

- سعيد لا داعي للسخرية، جئتك لتساعدني لا لتوبخني.

- وهل تريدينني أن أشكرك على ما فعلت؟ ماذا سنقول للناس إذا أحضرت ابنك إلى هنا؟ ماذا سنقول لعمك، وخالك، وأقاربنا؟ ماذا سيقول زوجك لأهله؟

- أعرف أنني أخطأت، ولكن ما الحل؟

- الحل أن لا تفكري بعلي ابنك مطلقًا حتى لا تنهار عائلتك الثانية هنا، وحتى لا تجلبي لنا العار..

- أي عار؟

- ما هذه الوقاحة؟ أي عار؟ عارك طبعًا، تتزوجين سرًّا عن أمك وأبيك اللذين ربياك كل هذه السنوات لترضين بها متعك وغرور المراهقات.

- يبدو أنني لن أجد حلاً عندك؟

- بل إنك لا تريدين أن تسمعي سوى الحل الذي يرضيك، لا أدري كيف قبل عمران أن يكتم هذا السر عنا؟ يخلف عليه.

- كان إنسانًا متفهمًا.

- وما دام إنسانًا متفهما، لماذا تريدين الآن إحراجه بإحضار ابنك الثاني إلى هنا؟

- هل تريدني أن أتخلى عنه؟ إنه ابني.

- وتحرير ابنتك وعماد ابنك الثاني.

بدأت تبكي أمامه وقالت:

- يبدو أن المرأة ستظل مظلومة عندكم، ترى لو تزوج ابنك من بريطانية هل كنت ستثور هكذا؟

- رحاب، احمدي الله أنني أتمالك أعصابي، تعرفين أنك لو كنت أختًا لغيري لقتلك الآن على فعلتك.

- هل ستخبر أبي وأمي بما سمعت؟

صمت فجأة ثم قال:

- لا أعرف.

- أرجوك، لا تبلغهما.

- تريدين مني أن أشاركك جريمتك؟

- بل لا أريدك أن تتسبب لأبي بمرض.

- يا سلام! خائفة عليه؟ فلماذا أقدمت على فعلتك؟

- غلطة.

- غلطة الشاطر بعشرة يا شاطرة.

فجأة وقفت، مسحت دموعها، وقالت:

- أريد المغادرة.

وقف محتدًا:

- تريدين المغادرة؟ مع ألف سلامة.

وقف أمامها ورفع سبابته منذرًا، وقال لها:

- إياك التفكير بأي عمل دون علمي، سأفكر بالموضوع ولي حديث معك.

فتح الباب وخرجا معًا، مسكت يد ابنها وابنتها وغادرت البيت، وخرجت زوجته من المطبخ تنادي رحاب:

- القهوة جاهزة، إلى أين؟

- سأشربها مرة قادمة.

نظرت إلى عينيها فشاهدت بقايا دموع.

قالت لها:

- ماذا حصل يا رحاب؟

كان وجه سعيد غاضبًا، خرج قبلها دون أن يقول لزوجته إلى أين. لم يعرض على رحاب أن يوصلها بسيارته، كأنه يريدها أن تستقل الحافلة، فقد أثاره كلامها. أدار محرك السيارة وتوجّه فورًا إلى بيت والده. كان أبوه جالسًا يشاهد التلفاز مع أمه، رحّبا به، وسألاه:

- زيارة غريبة، لماذا جئت وحدك؟ حتى أنك لم تتصل لتتأكد أننا في البيت.

جلس صامتًا. عرف أبوه أن مشكلة ما حصلت.

- ما الخبر؟ هل هناك أخبار سيئة من علي؟

- لا، علي بخير والحمد لله؟

- وجهك يقول هناك أمر خطير!

- المصائب أحيانًا تأتي من حيث لا تحتسب.

سألته أمه:

- خير يا بني، لقد أسقطت قلبي.

ضرب كفا بكف، كأنه أراد أن يتراجع عن إخبار والديه، ولكنه قرر مواجهتهما بالحقيقة، فمهما كانت مُرّة يجب أن يعرفاها، فعمران ليس أحرص على رحاب منهما.

قال لهما:

- أرجو أن لا تزعجكما أخباري، لكن...

صاح به أبوه:

- لا تلعب بأعصابنا.

- رحاب كانت قبل زواجها من عمران متزوجة دون علمنا ومطلقة، ولديها ولد اسمه علي.

سأله أبوه:

- متزوجة ممّن؟

فقال سعيد:

- من الروسي الذي كانت على علاقة به أثناء الدراسة.

ضرب أبوه يده على رأسه، وقال:

- يا فضيحتك يا أبا سعيد؟ يا فضيحتك يا علي النجار. كل هذا من رحاب؟

فقالت أمه محتارة:

- أرسلناها لتتعلم، فذهبت لتعشق أولاد الروس، يا خسارة تربيتي فيك يا رحاب.

فرد عليها أبو سعيد:

- أين سأفر بوجهي من الأقارب؟ يا شماتة أولاد عمها فيها.

فقال له سعيد:

- أنا لم أبلغكما بالخبر لتنشراه بين الناس، لا أحد يعرف سواكما وأنا وعمران.

- عمران يعرف؟ ولم يطلقها؟

- يعرف قبل أن يتزوج منها.

حدّق به أبوه:

- ماذا تقول؟

- كما سمعت، فهو يعرف قبلنا واتفق معها على كتم الخبر.

- تخفي عنا الأسرار وتحكيها لعمران، أخ يا حسرتي...

بدأ يشعر أبو سعيد بصعوبة في التنفس، الكلمات تخرج من فمه بصعوبة، استلقى على الأرض، وقال لهما:

- لا أستطيع التنفس... آه.

شعر سعيد أن أباه في وضع صعب، فأعانه وتوجه به إلى السرير.

كان يردد:

- يا خسارة تربيتي لك يا رحاب.

أحس سعيد بغلطته عندما رأى وجه أبيه قد تغير، ذهب إلى الهاتف واتصل بزميله الدكتور سمير خلف وطلبه على وجه السرعة. جلس بجانبه عند السرير، وطلب منه بشكيرًا مبللاً بالماء يضعه على جبينه.

يصل الدكتور، وبعد فحص الأب يقول لهم:

- اطلبوا له الإسعاف على الفور وانقلوه إلى المستشفى، وضعه خطير.

اتصل سعيد بسيارة الإسعاف التي وصلت بعد نصف ساعة، في الطريق إلى المستشفى أوقفته دورية للجيش توقع أفرادها أنها تنقل أحد المصابين من رجال الانتفاضة، حاول سائق الإسعاف أن يشرح لهم أن حالة المريض الذي في الإسعاف سيئة فشتموه، وطالبوه أن ينزل من السيارة، وتعمدوا تأخيره أثناء تفتيشهم للسيارة، وبعد نصف ساعة سمحوا له بالمغادرة، كان خلالها أبو سعيد قد فارق الحياة.

حاول الممرض الموجود في الإسعاف، إسعاف الموقف فلم يوفق، هز سعيد الموجود مع أبيه في الإسعاف جسم أبيه فلم يتحرك، ناداه:

- أبي.. أبا سعيد.. يا حاج..!

فلم يرد. سأل الممرض:

- ماذا حصل؟

- يبدو أنه فارق الحياة.

-الكلاب عطلوا السيارة ليموت! رحمك الله يا أبي، أنا السبب، أنا السبب. ليت أني لم أخبره.

بدأ يبكي ويصرخ كالمجانين.

عندما وصلت السيارة إلى المستشفى تم نقله بسرعة إلى داخل غرفة الطوارئ في مستشفى المطّلع، دخل بعض الأطباء وراءه وبعد فحصه، نظروا إلى سعيد وقالوا له:

- لقد مات قبل وصوله إلينا.

هجم سعيد على جثمان أبيه يقبله.

- أبي حبيبي، لا تتركنا وحدنا، نحن بحاجة إليك...

سحبه المرضون الذين حزنوا عليه، وعانقوه وأجلسوه على أحد المقاعد، طلبوا له كأس عصير برتقال، وطلبوا منه الصبر، قال أحدهم:

- الموت قدرنا كلنا، الله يرحمه، ادع له بالمغفرة والرحمة، فهذا ما تستطيع عمله له الآن، واستعن بالله، الله يلهمك الصبر.

وقال الثاني:

- عظم الله أجركم.

- عظم الله أجركم.

كان سعيد مصدومًا لا يعرف هل يترك والده في المستشفى أم يبقى عنده؟ يبقى عنده؟ وماذا سيفعل معه؟ سيدخلونه الآن ثلاجة الموتى. أبو سعيد في ثلاجة الموتى؟ هكذا تموت قبل أن تعانق عليًّا؟ تموت قبل أن يعانقك علي.؟!

بعد قليل، استعاد بعض رباطة جأشه، كانت الدموع تسيل على خديه، عيناه حمراوان، توجه إلى المكتب القريب من الغرفة وطلب استخدام الهاتف، اتصل بأمه فردت عليه فادية.

- فادية ماذا تفعلين عندك؟

- جئت عند أمي فقد أخبرتني أن أبي مريض ونقلته الإسعاف، طمئني.

- ماذا أقول لك؟

- هل حصل شيء لأبي؟

- أجل.

- قل؟

- الله يرحمه..

- ماذا؟! آه...

وبدأت تصرخ، فجاءت أمها ورفعت السماعة:

- سعيد هل مات أبوك؟

- مات يا أمي.

- الله يرحمه، بلغ أعمامك واستعد لدفنه.

أغلقت أم سعيد السماعة، ودموعها تنهمر على وجنتيها، مات أبو سعيد، مات شريك حياتها، عاشت معه عمرًا طويلاً، أفنى عمره يربي أولاده،

وأكثر من عشرين سنه يتنقل بين السجون لزيارة علي، وها هو يموت، قتلته رحاب المُعيبة.

فيما الأم تبكي كانت فادية تتصل برحاب.

- ألو؟ رحاب أبوك مات، تعالي إلى بيت أمي؟

- أبي مات؟ متى؟

- لقد نقله سعيد بسيارة الإسعاف قبل أكثر من ساعة.

- سعيد؟ هل كان عندهم؟

- نعم.

- وماذا حصل؟

- هل هذا وقت أسئلة؟! تعالي هنا وستعرفين كل شيء.

قالت رحاب، وقد بدا الحزن عليها، لعمران:

- عمران سأذهب إلى بيت والدي، دير بالك على الأولاد. لقد توفي أبي.

- أبوك؟ هل ستذهبين لوحدك؟ سأحضر معك.

(41)

1993

اتفاق أوسلو يصبح حقيقة، وها هو عرفات في البيت الأبيض مع إسحاق رابين، كل الصحافة تتحدث عن السلام المرتقب والمعارضة الفلسطينية تهاجم الاتفاق، وتتهم عرفات بالتفريط بالقضية الفلسطينية، الأسرى منقسمون بين مؤيد بحماس للاتفاق آملين بالتحرر من الأسر، وآخرين يرون فيه اتفاقًا هشًّا غير قابل للحياة، تحاول إسرائيل من خلاله إنهاء الانتفاضة.

كان علي النجار مذهولاً من حجم التأييد العاطفي للاتفاق.

قال لأحد الأسرى الذي مر على سجنه حوالي خمسة عشر سنة:

- لا تتفاءل كثيرًا، فإسرائيل لا يؤمن لها جانب.

- لكنه اتفاق وقعت عليه بحضور أمريكي.

هز علي رأسه قائلاً:

- يا عزيزي، الاتفاق جزئي، أجّل كل القضايا المهمة إلى فترة لاحقة، وما الضمان للوصول إلى اتفاق في تلك القضايا؟

- حينها نعود إلى الكفاح.

- أي كفاح ومنظمة التحرير حسب الاتفاق أعطت إسرائيل ما تحلم به دون أن نحصل على شيء! هذا الاتفاق سيدفع بعض الحكام العرب للصلح مع إسرائيل بعد أن أعطاهم عرفات الإذن.

- لا، لا يا علي، هذا الاتفاق مضمون، وعرفات لا يتنازل.

- يا أخي، كيف يقرر الرئيس عرفات مصير أمة هكذا بكل بساطة لوحده؟ وهل رئيس إسرائيل يفعل ذلك في القضايا المصيرية؟

- نحن في مرحلة ثورة.

- هل قرأت كلمة إسحاق رابين في احتفال البيت الأبيض؟

- ماذا تقصد؟

- توجه رابين إلى أمهات من أسماهم بالشهداء اليهود، تحدث عن ضحايا الحروب، ماذا قال عرفات؟ لم يذكر شهداءنا ولا أسرانا بكلمة.

- وهل تعتقد أنه تنازل عنهم.

- ليس المهم إن تنازل عنهم، ولكنه تجاهلهم لكي لا يغضب إسرائيل وأمريكا، فكيف سيطالب غدًا بما هو أهم وأكبر.

- يا علي، أنت ترى الوضع سوداويًّا.

- والمستقبل أكثر قتامة.

- يا علي، لا تتشاءم، وحضر نفسك للحرية، الأخبار تشير أن قيادة منظمة التحرير ستعود إلى فلسطين خلال شهر.

ضحك علي وقال له:

- وهل هذا ما ناضلنا لأجله؟ متى سيعود الشعب؟

- ولكنها خطوة على الطريق.

- أرجو أن يكون ذلك.

- سترى.

كان الأسرى يهيئون أنفسهم بعد عودة عرفات إلى غزة، وعندما سرت أخبار بينهم أن إسرائيل ستطلق سراح مؤيدي اتفاق أوسلو شعر علي النجار بالقيود تلتف حوله مرة أخرى:

- هكذا إذًا يريدون تقسيم الأسرى إلى مؤيد ومعارض.

فقال له أحد الأسرى:

- أنا موافق وسأبصم بالعشرة.

وقال ثانٍ:

- سنوقع، وعندما نخرج نتنازل عن التوقيع.

فقال له علي:

- لكن المشكلة ليست بتنازلك، المشكلة أن إسرائيل تفرض شروطها علينا، تقسمنا، ونحن بدلاً من مقاومة ذلك نستجيب فورًا ونحدث الانقسام في صفوفنا.

- وماذا ستختار؟

- لن أوقع على أية شروط، المفروض أن يكون التوقيع مع القيادة السياسية لا معنا كأفراد. لا يمكنني أن أتعامل مع اتفاق أوسلو الخاص بقضية شعب بأنه مسألة شخصية.

- وهل سترفض التوقيع؟

- طبعًا سأرفض، أنا غير مخول بالتحدث باسم الشعب، وإذا أردت أن أتحدث فسأنقل مطالبه الجماعية ولن أتنازل عنها.

- يبدو أنك ستصبح من المعارضة؟

- هل هذا ما لديك قوله؟ تذكر قولك هذ، فإن كنت تحلم أن إسرائيل ستفرج عنك تكون تحلم.

(42)

2008

كانت أفكاره تسرح في البعيد، ثم تقفز فجأة إلى الأمام، لم يكن يرتب ذكرياته، بل كانت الصورة تقفز بشكل غير مرتب في مخيلته.

خولة قبل 28 سنة قالت له: "أحبك يا علي، سأنتظرك مهما طال الأسر".

صورة خولة في آخر زيارة لها تغير شكلها، قالت له: متى سوف تتحرر لنصنع معًا حلم المستقبل؟"

أبوه توفي منذ أكثر من عشر سنوات.

رحاب التي تعيش الآن في ألمانيا مع ابنها علي الذي أصبح شابًّا الآن، حوالي (24) سنة، علي الروسي، لم أرها منذ أن تركت القدس. كل ما وصلني منها رسالة واحدة منذ خمس سنوات، لم أرد عليها، هل أخطأت؟ لماذا تركتها دون جواب؟ لا إله إلا الله.

خليل الصباح يتحرر من سجن نفحة، يشارك في الانتفاضة، والآن هو تاجر في أستراليا.

عمران اليساري الفلسطيني يصبح من رجال السلطة ويعمل الآن ضابطًا في قوات الأمن الوقائي بعد أن كان صحافيًّا، يطارد المقاومين ويعتقلهم.

أخي فريد أصبح بريطانيًّا، تزوج من مغربية وأنجبا الأولاد. ما أقسى قلبه! منذ أكثر من عشرين سنة لم يعد إلى فلسطين ليزورني سوى مرة واحدة، يكتفي بإرسال الرسائل.

صورة سمير قنطار على شاشة التلفاز فجأة تظهر، فيقفز علي من السرير ويرفع الصوت. مقابلة تلفازية معه، سمير يوجه تحيته إلى الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال. يا لهذا الوجه المشرق الذي ظل رابطًا طوال أسره. لم تغيره السنون، ولم تهزمه كما هزمت كثيرين غيره.. ظل وفيًّا لمبدأ المقاومة، لم ينكسر ولم يهزم، ولم يتملق سلطة أوسلو، ولا سلطة حكومة لبنان. اختار المقاومة في أصعب الظروف، انضم إلى المقاومين الفلسطينيين قبل ثلاثين عامًا مؤمنا بوحدة المصير. تجاوزته صفقة جبريل في العام 1985 فخرج عن طريق المقاومة اللبنانية، متى يأتي دورنا؟

لم أره منذ افترقنا في نفحة، فقد نقل من نفحة إلى سجن هداريم وبقيت أنا هنا. إدارة السجون توسع سجن نفحة وتضم المئات إليه، بعد أن نقلت الأسرى من سجون الضفة بعد اتفاقية أوسلو.

السنوات تمر سريعًا كأنها حدثت بالأمس.

فجأة تقدم شاويش القسم وقال له:

- علي عندي لك مفاجأة.

- ما هي؟

- سجين جديد قادم من سجن شطة.

- أهلاً وسهلاً به، أين هو؟

- إنه الآن في الغرفة (18)، لكن ستفاجأ لرؤيته.

- هل أعرفه؟

- طبعًا.

- هل تقصد ابن أخي سعيد.

- هو نفسه.

- جمال في عسقلان؟

- نعم.

- يا الله متى سأراه؟

- بعد ساعة عندما تخرج إلى الفورة سيأتي لرؤيتك.

كان علي في قمة سعادته.

- ابن أخي سعيد! لأول مرة سأراه منذ خمس سنوات، منذ أصبح مطاردًا. ولد بعد أسري بسنوات، وها هو اليوم معي في عسقلان.

ما إن فتح الباب حتى أسرع علي باتجاه الغرفة 18 ينتظر فتح الباب، فهجم على جمال معانقًا.

- عمي علي؟

مسك جمال يد عمه يقبلها، فرفعها علي وعانقه، ضمه إلى صدره بحرارة كأنه يعانق فيه سعيدًا ،وفريدًا، ورحاب، وفادية.

تساقطت دموعه فرحًا، نظر إليه:

- أنت الآن رجل في قمة عنفوانه. أستطع الآن أن أطمئن أنني خلفت ورائي أبطالاً يرفعون شارة الحرية.

- عمي حبيبي.

خبر يهز خولة؛

إسرائيل توافق على صفقة تبادل الأسرى مع المقاومة الإسلامية بتعهد دولي وعربي.

كان قلبها يسقط وهي تقرأ الخبر على الإنترنت، تابعت خولة قراءة الخبر حتى النهاية.

بدأت تتمتم: يا رب، يا كريم، حقق لي حلمي الصغير واجمعني بعلي الذي طال انتظاري له.

فجأة بدأت تقلب الصفحات من مجلة إلى أخرى، من قناة إخبارية إلى أخرى.

الصفقة تشمل كل الأسرى القدامى (ما قبل اتفاق أوسلو) وألفًا من الأسرى الجدد.

جدد! مر على اعتقال بعضهم عشرون عامًا ويعدونهم بالأسرى الجدد.

اللهم أتمم الصفقة على خير، فإسرائيل لا أمان لها.

نهضت من مكانها، توجهت إلى التلفاز وغيرت إلى قناة الجزيرة، بدأت تتابع الشريط الإخباري المتحرك أسفل الشاشة؛ خبر حول وفاة المطربة... هل هذه أخبار يا قناة الجزيرة؟ بعده جاء خبر عن اجتماع لمجلس الأمن بخصوص العراق. فجأة ظهر الخبر:

"اتفاق لتبادل الأسرى تم التوقيع عليه في القاهرة".

كادت تطير من الفرح، نادت أمها في البيت:

- أمي، أمي...

كانت أمها مستلقية على السرير في غرفتها فهبت مذعورة:

- مالك يا ابنتي.

هجمت عليها تعانقها:

- أمي.. أخيرا سيتحقق حلمنا، صفقة تبادل أسرى قريبة، الخبر موجود في الجزيرة.

- وهل علي منهم؟

- منهم؟ ما هذا السؤال؟ سيكون على رأسهم، فهو أقدمهم...

قاطعتها:

- ألديك تأكيدات؟

- أمي لا يوجد، ولكن عليًّا أقدم الأسرى، وهذا التبادل ليس كالآخرين، هؤلاء أبطال ضحوا بأنفسهم لكي يحققوا التبادل المعجزة.

- أراك تدافعين عن (حماس) كأنك صرت منهم؟

- لست منهم، ولكني لست ضدهم، فهم على الأقل أصدق من جماعة السلطة الذين لم يجلبوا للشعب سوى النكبات والهزائم.

- ومتى ستتم الصفقة؟

- لا أعرف، ولكن ما دام الخبر قد أذيع سيكون قريبًا.

فركت يديها، قم قالت:

- سأتركك لأذهب إلى الصليب الأحمر فقد يكون لديهم بعض الأخبار.

- ألا تبلغين أم سعيد؟

- حالاً.

اتصلت بأم سعيد من تلفونها الخلوي:

- ألو، أم سعيد؟

- أهلاً يا ابنتي، كيف أخبارك؟

- بشرى سارة.. أعلن الآن في الأخبار أن صفقة تبادل الأسرى قد وقعت في القاهرة.

- صحيح؟! متى سمعت ذلك؟

- قبل قليل.

- يا رب، أرني عليًّا قبل أن أموت.

- سترينه ويراك، وتحضرين حفل زفافنا.

- نَذرٌ علي إن خرج لأرقص في حفل زفافكما.

ثم بدأت تبكي، وتقول:

- منذ سنة 1970 يا علي وأنا أتنقل خلفك من سجن إلى سجن.

- لا تبك يا أم سعيد، لقد صبرت كثيرًا وجاء الفرج .سأتصل بك عندما أسمع أخبارًا أخرى، بلغي سعيد عندما يعود.

تغلق الخط. تسألها أمها:

- أم سعيد فرِحةٌ بالتأكيد؟

- غير مصدقة، أقسمت إن خرج لترقص في حقل زفافنا.

فجأة رن جرس هاتفها النقال، نظرت إلى شاشة الهاتف، ثم أشارت إلى أمها بأصبعها:

- أمي هذا تلفون من علي.

فتحت الخط وقالت:

- ألو.

- ألو، خولة.

- نعم، حبيبي، هل سمعت الخبر؟ لقد سمعناه الآن في الأخبار، كل الإذاعات تناقلته.

- يبدو أن الأمر أصبح جادًّا.

- وأخيرًا سيتحقق حلمنا الذي انتظرناه طويلاً.

- أكاد لا أصدق أننا بعد هذا الانتظار سنلتقي!

- هل ستحضرين الزيارة القادمة؟

- لماذا أحضر؟ أنت الذي ستعود إلينا.

- متفائلة كثيرًا.

- دعوت الله ليل نهار، لا بد أنه استجاب لدعائي.

- حبيبتي، لن أطيل الحديث كثيرًا، فالشاب هنا كل يريد أن يحادث أهله حول الخبر، لا يوجد لدينا تلفونات كثيرة ،فقبل أسبوع ألقى السجانون القبض على أحد الهواتف، ولكن لن يقطعوا اتصالنا بالعالم مهما فعلوا.

- سأنتظر منك مكالمة جديدة.

- إن شاء الله، بلغي أمي تحياتي.

- أستودعك الله، سأعد لاحتفالنا من الآن.

- ألا تنتظرين؟

- أريد أن أنتقل معك إلى عش الزوجية بعد خروجك، نريد أن نبني مستقبلنا دون تأخير.

- أحبك، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

ارتمت خولة على المقعد العريض ومددت رجليها على الكنبة التي أمامها، وضعت الهاتف على شفتيها وقبلته كأنها تقبل عليًّا.

ما أروع هذا الجهاز الصغير الذي أصبح ينقل لنا صوت الأحبة في كل مكان، صوتهم خلف القضبان على الرغم من الأسوار العالية، والسجانين، وأنف حكومة إسرائيل.

كنت قبل عشرين سنه أتلهف على رسالة، أتلهف على سماع صوته، لكن الآن أصبح يتصل بي كل فترة من جهاز الهاتف الممنوع، والذي يصادر فورًا إن ضبط بحيازة أحدهم ويعاقب عليه، لكنهم أسرى الحرية، يبحثون في كل مكان عن منفذ ينفذون منه إلى العالم الخارجي، إنها جزء من مقاومتهم الباسلة.

اقتربت منها أمها وقالت لها:

- خولة، لا بد أنك تحلمين بيوم الزفاف.

نظرت خولة إليها وقالت لها:

- سيكون أعظم حفل زفاف، زفاف زوجين عقدا قرانهما قبل أكثر من 28 سنة، من يصدق؟!

- تعرفين يا ابنتي أنك شرعًا زوجته، ويحق لكما الخلوة بدون حفل زفاف.

-أعرف يا أمي، ولكن سنحتفل على الرغم من الأعداء، سنحتفل بالنصر على العدو، سنرفع أعلام النصر، والحرية، إنه يوم فرحي فلماذا أتخلى عنه؟ إنه اليوم الذي كنت كل عام أحلم أنه سيتم في العام الذي يليه. هل أتخلى عنه؟

- لا أقصد ذلك، على بركة الله، سأكون أنا وأبوك وإخوتك وأختك معك. دعينا أولاً ننتظر لحظة الحرية.

عدلت خولة من جلستها ثم قالت لأمها:

- أشعر الدقائق اليوم كأنها ساعات.

- لقد صبرت عقودًا من الزمن، أفلا تصبرين عدة أيام.

- ليتها تمرّ سريعًا.

(43)

المقاومة الإسلامية تسلم الأسير الإسرائيلي إلى لجنة مصرية حسب الاتفاق. إسرائيل تطلق أول دفعة من الأسرى إلى غزة، وبعد وصول الأسير إلى إسرائيل تطلق الدفعة الثانية إلى الضفة.

عدة حافلات تعج بالأسرى من مختلف مناطق الضفة تصل إلى رام الله، الرئيس الفلسطيني وآلاف الجماهير تشارك في استقبالهم رافعين أعلام فلسطين.

كانت خولة، وأم سعيد، وسعيد، وفادية، وأم خول،ة ينتظرون ويبحثون هنا وهناك، يسألون أين علي النجار. الناس كلهم مشغولون.

فجأة تأتي الحافلة الأخيرة، كل العيون تنظر إليه متلهفة. الأيادي تلوح من الشباك لا تدري أيها يلوح لك كأنهم يلوحون إلى الجميع. حركت خولة يديها فرحة، ونادت:

- علي!

قالت لهم:

- ها هو في الشباك الثاني.

لوح له جميع الأهل. توقفت الحافلة قريبًا من منصة الرئيس. نزلوا واحدًا واحدًا يسلمون عليه، وعلى الوفد الرسمي، وبعد أن انتهى من الوفد كانت أمه أول من يعانقه. ارتمت على صدره وأرخت كل جسمها النحيل عليه قبل رأسها وضمها بحرارة.

- أمي.

- حبيبي، علي ولدي، آه...

كانت تبكي بحرارة، لكم تمنت تلك اللحظة، كان شعره الأشيب قد غطى على شعرها فلم يترك له السجن شعرة سوداء يتباهى بها أمام زوجته، كأن الشعر قد ابيض ليحول ليل السجن إلى نهار.

قبّل يديها وحملها إلى الأعلى ثم سار بها عدة خطوات.

الجميع متلهفون للسلام عليه، خولة تنتظر بلهفة أن تتركه أمه لتضع رأسها على صدره، أمه لا تريد تركه، فصوت نحيبها يسمعه كل من حولها، اقترب سعيد وقال لها:

- أمي أتركي لنا فرصة لنعانقه.

قبلته أمه بحرارة مرة أخرى ثم تركته لتمسح دموعها فيما هجمت عليه خولة تعانقه. لأول مرة تعانق زوجة زوجها بعد 28 سنة زواج. لأول

مرة تقبله بحرارة الأزواج. لأول مرة تسمع صوت أنفاسه. لم تتمالك نفسها، كانت كأمه تبكي، لم يستطع علي حبس دموع فرحه.

أحس ببهجة اللقاء. لأول مرة يعانق زوجته في حياته، كم هو بحاجة إلى هذا الحنان. كان شعرها الناعم يداعب خده، تمنى لو يلف نفسه به، كان عندما يراها خلف القضبان يتمنى لو يضمها لصدره، يتمنى لو يتحسس شعرها، لو يتحسس كف يدها.

ها هي أمامه، ولكن بعد (28) سنه زواج حرموه منها. سلبوا شبابه، 38 سنة من عمره، كان أسير حرب، كان مقاتلاً من أجل الحرية، قاتل قتال الجنود للجنود، أسر في معركة غير متكافئة، فعدّوه إرهابيا مع أنهم هم الإرهابيون. تركته خولة ليعانق سعيد.

- أخي سعيد! أين أبي؟ ليته الآن موجود بيننا، ليته كان معكم.

بكى سعيد على كتف علي.

- علي، أين تركت جمال؟

- جمال في صحة جيدة، لا تقلق، لقد خلفت أبطالاً يا سعيد، سيعود لك إن شاء الله.

توالى الأهل بالتسليم عليه، فادية، أولاد سعيد، أم خولة، والبقية كانوا ينتظرون في البيت، اتصل سعيد يخبر عمه الذي ينتظرهم:

- عمي نحن الآن مع علي، سنكون عندك بعد قليل.

(44)

بقدر سعادته بتحرره من الأسر الطويل، لم يستوعب علي النجار التغيرات التي طرأت على القدس؛ عشرات المستوطنات، الجنود في كل شارع يتحرشون بالمارة، نقاط التفتيش على مداخل كل الطرق المؤدية إلى القدس، المتسكعون يملأون شوارع القدس، الناس تعودوا على تلك المناظر. باب العامود تغير، تغير كثيرًا، اتجاهات الشوارع تغيرت، حتى موقف الحافلات القديم تغير، البناء زاد في كل مكان.

كان أول شيء أراد القيام به صباح اليوم التالي زيارة قبر والده، وزيارة المسجد الأقصى للصلاة فيه، فالمسجد الأقصى بالنسبة إلى سكان القدس الذين ولدوا في حارات البلدة القديمة يحتل حيزًا أساسًا في ذاكرتهم.

خرج من البيت مع أخيه سعيد، فيما انشغلت أمه في التحضير للغذاء مع أخته فادية. ما إن نزل باب العامود، حتى تسابق الشبان يسلمون عليه، كأنهم يعرفونه من قبل:

- الحمد لله على السلامة يا شيخ علي.

- الله يسلمك.

أصبح علي يدعى بالشيخ، فذقنه البارزة، وانحيازه للتيار الإسلامي في السجن منذ سنوات دفع الآخرين لكي يطلقوا عليه لقبه الجديد.

بعض الشبان كانوا يصرون على معانقته، كلهم شباب في العشرينيات من العمر. أثلج صدره أنهم يعرفونه، صورته التي نشرت أكثر من مرة في الصحافة قد طبعت في الأذهان، كذلك صور المناضلين والشرفاء لا تغيب عن أذهان الناس البسطاء.

اقترب منه أحد الباعة الذي يبيع الفواكه وقدم له كيسًا من التفاح هدية منه، ابتسم علي وقال له:

- مشكور جدًّا، لكننا ذاهبون إلى المسجد الأقصى، حبة تكفي.

- يا شيخ علي، التفاح كله على حسابك.

فقال له سعيد:

-لا تتعب نفسك.

- ولو، تعبكم راحة.

- شكرًا لك.

تابعا طريقهما، كانا يرفعان يديهما لبعض أصحاب المحلات الذين يحيونهما من بعيد.

في الطريق إلى البيت بعد زيارتهما للمسجد الأقصى، وقبر والده ،قال سعيد لعلي:

- متى تريد الاحتفال بعيد زفافك؟

- سأترك الموضوع لخولة.

- لا بد أنها تريده في أسرع وقت. على كل حال من الصعب الآن البحث عن شقة للإيجار، سأحضر أمي عندي، ونترك لك بيت الوالدة والوالد لتتزوج فيه، وما عليكما سوى شراء أثاث المنزل الناقصة وأنا علي تكاليفها.

- شكرًا يا سعيد، أنت لا تقصر أبدًا، ولو، لكن من ناحية أمي فيجب أن تبقى معنا، لا نتخلى عنها. بعد صبر هذه السنين كلها أنتركها ترحل من البيت؟! كلاّ يا سعيد، أمي حصتي أنا، يكفيك ما حصلت عليه في الماضي.

ابتسم سعيد وقال:

- حسب ما تريد.

فجأة رن هاتف سعيد.

- ألو؟

- أنا رحاب.

- رحاب؟! من رحاب؟!

- أريد التحدث مع علي أرجوك يا سعيد.

استدار إلى علي وقال له:

- رحاب يا علي تريد الحديث معك.

- طبعا، طبعا.

مسك الهاتف ورد عليها:

- ألو، رحاب!

- علي...! الحمد لله على السلامة، أرجوك اقبل اعتذاري يا علي...

قاطعها:

- لا تعتذري. أين أنت الآن؟

-أنا في ألمانيا.

- ألمانيا؟! وماذا تفعلين هناك؟

- أعمل مع ابني لنعيش، علي أنا مشتاقة لك. أريد أن أزورك، هل تسمح لي؟ أعترف بذنبي وأطلب السماح.

كانت تبكي على الهاتف.

- وهل يمكن لأخ أن يطرد أخته؟ وهل تعتقدين أنني غير مشتاق لك؟ كنت أتوقع أن تكوني أول المستقبلين.

- قصة طويلة يا علي، لم يكن بإمكاني العمل في روسيا فانتقلت بابني إلى ألمانيا، وهناك عملت في إحدى مراكز الجالية العربية، وعندما كبر ابني

والتحق هنا بالجامعة بقيت بجانبه أسانده، هو الآن مهندس كمبيوتر، يعمل في شركة للاتصالات الدولية، سأحضره معي، إنه نسخة عنك، ومشتاق لرؤيتك ولرؤية أهله، كيف حال أمي؟

- تسألين عن أمك الآن؟ لا بأس، ستتعاتب بعد حضورك لا تتأخري، ألا تريدين المشاركة في زفاف أخيك؟

- أكيد سأرقص فيه...

صمتت.

- علي، أنا أريد العودة إلى الوطن، أريد البقاء عندكم.

- وماذا يمنعك؟

- تعرف ما حصل.

-ما حصل صار في الماضي، وأنت الآن أمًّا لعائلة مشتتة، اهدئي واستعيني يا أختي بالصلاة ليعينك الله على ربط ما انقطع.

- بحبك يا علي، كنت دائمًا أرى الحل على يديك، سأحجز مع علي الصغير لنأتي إلى أرض الوطن.

- مع السلامة.

استدار إلى سعيد وقال له:

- طبعًا سمعت ما قالت.

- أكثر من (16) سنة لم تتصل بنا، اعتقدنا أنها ماتت. هل هذا تصرف ناس عاقلين.

- يا سعيد، لو أراد الله أن يحاسب الناس على أخطائهم بالعقاب، لم يدخل الجنة أحد إلا الأنبياء، وقلة قليلة من البشر. اغفر للناس حتى يغفر الله لك. "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء". أريد أن أرى أولادها هنا.

- اللهم سامحها، واغفر لها. ماذا أقول عسى أن يشكل تحركك من الأسر عاملاً لتوحيد العائلة من جديد، ففريد سيحضر غدًا كما أخبرنا يوم أمس حين اتصل بنا.

- لماذا لم يعد ويعمل هنا؟

- يا علي، الأشغال هنا قليلة.

- أليس أفضل من التغرب خارج الوطن؟

- ماذا أفعل؟ هذا خيار أخينا فريد، لقد تزوج من المغرب والآن صعب عليه العودة، فقوانين إسرائيل الجديدة للمواطنين من القدس تعد مثل فريد سائحًا عليه مغادرة الوطن بعد انتهاء فترة زيارته.

- يحاربوننا في كل مكان، وعلى كل الجبهات، ومناضلونا في السلطة غارقون في فسادهم، نحن في أسوأ مرحلة تعيشها قضيتنا.

-اللهم اهدهم إلى ما فيه خير أمتنا.

(45)

أسبوع واحد فقط، كان علي النجار ينتظر المساء ليزف إلى عروسه التي عقد قرانه عليها منذ (28) سنة.

يا الله، كيف مرت كل تلك السنين، عمر بحاله، أولاد سعيد، وفريد أصبحوا شبابًا، فادية وسعيد أصبحا جدين. ما زال حظي أفضل من غيري، ها أنا أتنفس الآن هواء الحرية فيما عمر القاسم، وإسحاق مراغة، وعلي الجعفري، وراسم حلاوة، وغيرهم، وغيرهم، تحت التراب.

ما الذي يذكرني بالشهداء في يوم الزفاف؟ أهو قيد السجان الذي ما زال محفورًا في الذاكرة؟ أم هو الوفاء لهذا الجيل الذي سطرنا معًا معارك الصمود والتضحية؟ أم لأنني كنت أحلم أن يشاركوني فرحتي هذه الليلة؟

معظم أفراد العائلة لم أعرفهم من قبل، الأقارب والأصدقاء الجدد، ولدوا وأنا في الأسر.

آه ليتك معي يا أبا القاسم لنغنى معًا في ليلة زفاف طال انتظارها.

يا علي، لماذا هذه التأوهات، ألا يكفيك من سيحضر من الإخوة؟

كلهم سيحضرون اليوم، كلهم سيحتفلون معك.

قطع حبل تفكيره صوت فريد:

- علي لا تنس مواعيد اليوم، لم يبق وقت كثير.

هب علي على الفور متوجهًا إلى الحمام ليجهز نفسه، أمور كثيرة تحتاج إلى متابعة، لم تعد القدس كما كانت فالحواجز العسكرية الإسرائيلية تمنع الأهل والأقارب من التوجه إلى القدس، لذلك قرر الأهل إقامته في رام الله، فأهل القدس يستطيعون السفر إلى رام الله على الرغم من ما يجلب لهم من معوقات، وأهالي الضفة يستطيعون الوصول إلى هناك، أما الأصدقاء، والإخوة من غزة فلن يمكنهم المشاركة، سيكتفون بالاتصال تلفونيًّا.

قال سعيد لعلي:

- لا تقلق، كل شيء معد، أعد الإخوة لك احتفالا بتحررك، سيشارك آلاف من الناس، لذلك جعلنا الاحتفال مفتوحًا في ساحة عامة ليتسع لكل الحاضرين، ستنصب الخيام، وتقام الدبكات، وستشارك فرق للرقص الشعبي من كل مكان.

- كل هذا لي؟

- يا علي، أنت أقدم سجين في العالم وتستكثر على نفسك احتفالاً وطنيًّا؟

- أشعر أنني مدين لك ولكل الإخوة لما قدمتموه...

قاطعه سعيد:

- ماذا تقول؟ مدين لنا؟ ليتنا نستطيع أن نرد إليك بعض ما قدمته؟

- لو قدمت عمري كله من أجل فلسطين سأشعر أنني مقصر أمام الذين استشهدوا رافعين رأسهم عاليًا في معركة التحرر.

-بعد قليل ستعتاد على الحياة، وسوف تتوقف قليلاً عن عبارات النضال، والتحرر، والقيد، والسجن. عليك التعود على الاندماج في العالم الجديد.

ابتسم علي وقال له:

-ما ترتيب المهمات اليوم؟

- الآن سأذهب أنا لمتابعة أمور الحفل.

- لا ضرورة للتحرك كثيرًا في البلد، حتى لا توقفك دوريات الجيش وتعطل الاحتفال.

عند الظهر سننتقل إلى قاعة الغذاء في رام الله لتكون أنت مع المدعوين، وعند العصر سنتحرك إلى بيت أهل العروس لننقلها من بيتها بالسيارات، لأن نقطة تفتيش قلندية صعبة للغاية وتعيق التنقل وقد تعطله، قسم من الأهل سيكونون هناك لنقل العروس مع أهلها إلى

مدخل قلندية، وبعد تجاوز حاجز التفتيش نستقبل الوفد وننقلهم إلى مكان الاحتفال.

- كأننا ننتقل من دولة إلى أخرى؟

- ماذا أقول لك؟ هذا حالنا اليوم. الاختلاف كبير بين أيامك وهذه الأيام. تعقدت الأمور ولم تسهل.

- ما بعد الشدة إلا الفرج.

- أرجو أن يسمع الله منك، سأترك فريدًا معك.

- ماذا بالنسبة لرحاب؟

- ستحضر بعد الظهر بالطائرة إلى مطار اللد أو مطار تل أبيب حسبما يسميه اليهود.

- وهل ستحضر لوحدها؟

- كلا سيكون في استقبالها ابنة خالتي صفاء، كل شيء معد، المهم راحتك يا علي.

- لن أرتاح ووضعنا مشتت، إن كانت عائلتنا مشتته وتعجز عن توحيدها، فكيف سنوحد شعبنا.

- يا علي، المهم حفل زفافك. دعك من الحكم والسياسة الآن. استرح قليلاً. يكفي ما عانيت. فكّر ما سنفعله الليلة. حضّر بعض الكلمات الحلوة لتستقبل بها عروسك، لا تلق عليها مواعظ سياسية ،ها ها ها.

ضحك علي، ها ها ها.

- لا تخف لكل مناسبة حديثها.

- إلى اللقاء.

- على بركة الله.

(46)

لجنة الاحتفال مشغولة في رام الله بإعداد اللوازم والتحضير لحفل الغذاء. السماعات، المايكروفونات، أعلام فلسطين ترفرف في كل مكان، صورة علي النجار مرفوعة في أكثر من مكان، صور عشرات الشهداء مرفوعة على حبل طويل يلف ساحة الاحتفال تتقدمها صور الشهيد ياسر عرفات، الشيخ أحمد ياسين، أبي جهاد، عبد العزيز الرنتيسي، وهناك في الزاوية صورة عمر القاسم، وإسحاق مراغة، وعلي الجعفري، وراسم حلاوة، لكثرة الشهداء، فالجدد يأخذون مكان الأقدمين.

تقدم أحد المشرفين على الاحتفال وقال لهم:

- هذا الصف لا تُجلِسوا فيه أحدًا، فهو معد للضيوف الكبار.

سأله أحدهم:

- تقصد كبار السن؟

فضحك ساخرًا:

- لا، أقصد الكبار في مناصبهم.

فقال له علي:

- وهل الأعراس فيها كبار وصغار؟

- يا عزيزي، هناك وزراء، مسؤولون حزبيون، مسؤولون عن الجمعيات يجب منحهم احترامهم.

- وماذا عن الأهل والأصدقاء؟

- مكانهم في الجهة اليسرى بجانب العروس والعريس.

- كما ترون.

(47)

رحاب في الطائرة المتوجهة من ألمانيا إلى تل أبيب بجانب ابنها علي. قالت له بالروسية:

– كم أنا مشتاقة لأخي علي، وأمي، وأهلي كلهم.

نظرت إليه، وتابعت:

– ستكون سعيدًا برؤية خالك علي، أنت نسخة طبق الأصل عنه.

– فقال لها:

– من كثرة حديثك عنه، فأنا مشتاق له مثلك. سأرى هذا البطل الذي أمضى معظم عمره أسيرًا في سجون إسرائيل، فخور به خالاً لي، هل سيعانقني كما يعانق ابن أخته؟

– طبعًا، سيكون سعيدًا بك.

– ولكنك قلت لي...

- لا تقلق يا علي، لم يعد أحد يذكر ذلك، خالك رجل متفهم وليس كالآخرين..

أرجو ألا نتأخر عن حفل الزفاف.

- لا، لن نتأخر، سنصل في الوقت المناسب.

- لا تنس أن تتحدث إليه باللغة العربية، لا بالروسية، ولا بالألمانية.

فرد عليها بالعربية:

- أتشكين في ذكائي؟

ابتسمت وقالت:

- كلا ،ولكني أذكرك.

- أمرك يا أمي.

- تعجبني كلمة يا أمي بالعربية، كم أحب أن أسمعها منك...

ثم همست لنفسها:

- ومنها أيضًا، كم أنا مشتاقة لأخيك، وأختك!

(48)

انتهى حفل الغداء بسلام. ذهب علي إلى الفندق في رام الله حيث استأجر إحدى الغرف بسبب صعوبة المواصلات، استحم من العرق، ولبس ملابس الاحتفال واستعد للانطلاق إلى مخيم قلندية.

وصلت رحاب المطار، وبعد تفتيش دام ساعتين منحت فيزا زيارة لمدة ثلاثة شهور، ومثلها لابنها، فقد عدّوها سائحة روسية.

اتصلت من هناك بعلي، فرد عليها سعيد، وأخبرها أنه الآن في رام الله، وطلب منها التوجه إلى بيت أمها، ومن هناك مع الوفد الذي سيحضر العروس إلى حاجز قلندية، وهناك سيكون علي بانتظارهم جميعًا.

أنا في الطريق إلى أمي.

أنهت خولة كافة الترتيبات، وانتهت الماشطة التي حضرت معها من الصالون من تجهيز كافة الأمور وجلست، سعادتها لا توصف...

قالت خولة لنفسها: الآن تحققت أحلامي، الليلة سأجتمع مع علي في بيت واحد.

دخلت عليها أمها الغرفة وسألتها:

- ابنتي هل أنت جاهزة؟ لقد حضر أهل العريس لاصطحابك.

- أنا جاهزة.

- سنخرج معك في السيارة حتى قلندية وهناك ستنتقلين إلى سيارة العريس، سأكون معك أنا وأم سعيد وإخوه سعيد، والسائق حتى نصل قاعة الأفراح، أما أبوك بعد وصولنا قلندية سيلحق مع أخيك وأختك وأقاربنا.

تحرك سعيد بوفد من السيارات. كانت سيارة العريس تزينها الأضواء، والأعلام، وصور الشهداء، الشهداء يرافقون علي بصورهم حتى في رحلة زفافه، كان هذا شرطه الأساس فحققوه له.

جلس في السيارة مع سعيد وعمه فيما لحق الآخرون في سياراتهم.

سار الوفد باتجاه قلندية في موكب رسمي وأصوات المنبهات في السيارات (الزمامير) تملأ الشارع ضجيجًا. كاد علي يطير من الفرح، فها هو حلمه يتحقق بعد انتظار طويل.

أخوه فريد اتصل به ليعلن أن وفد العروس وصل إلى حاجز قلندية وأنهم بانتظاره ومعهم رحاب وابنها علي، إنه يشبهك يا علي كأنه نسخة عنك.

فقال له علي:

- سنكون عندك بعد لحظات، نحن على مشارف قلندية نحن...

- ألو، ألو، علي...

انقطع الاتصال...

- لعل صوت الطائرات الحربية الإسرائيلية عندما تمر يعطل الشبكة، معقول؟

فجأة سمع انفجارًا قريبًا.. أعاد فريد الاتصال مرة أخرى، فكان الجواب أن الرقم الذي طلبته مغلق، أو خارج الخدمة.

أغلق الخط ثم اتصل بسعيد فسمع الجواب نفسه.

- غريب! ماذا حصل؟ هل هم في منطقة لا اتصال بها؟

اتصل بعمه، فسمع الجواب نفسه، فأغلق الخط. فجأة جاءه أحد الأقارب وقال له:

- فريد أسرع، حصل انفجار في السيارة التي فيها علي.

صعق فريد:

- ماذا تقول؟ انتظروا هنا حتى أعود.

طلب من سائق السيارة التوجه فورًا إلى رام الله. بعد حوالي كيلو مترين شاهد تجمعًا كبيرًا من الناس، وقوات أمن فلسطينية وسيارة إسعاف وموكب سيارات الاحتفال.

اقترب منه ابن أخته فادية باكيًا وقال له:

- انفجار في سيارة عمي علي، صاروخ ضرب السيارة، مات جميع من فيها؛ علي، وسعيد، وعمك عاصم.

بدأ فريد يضرب رأسه:

- لا، لا، غير معقول.

خرج من السيارة، مسكه أحد رجال الأمن، وقال له:

- من أنت؟

- أنا أخوه، أخو الشهداء، دعوني أراهم.

تقدم نحوهم، لم يصدق؛ جثث مقطعة، وحروق بالوجه، واليدين.

بدأ يبكي وينوح، لم تمر سوى لحظة كان الموكب من قلندية قد وصل إلى مكان الحادث بعد أن سمعوا بالخبر عبر أقاربهم بالهاتف.

خرجت خولة من السيارة التي تقلها، كالمجنونة ببذلة عرسها البيضاء تصيح:

- علي... علي ي ي ي ي.

- كانت تركض كالمجنونة، توقفت عند الجثث، هجمت على جثته على الأرض تقبلها، ألقت بنفسها عليه، لم يعد يهمها إن تفحمت بدلة العرس أو حرقت، بل ليتها تستطيع أن تلحق به. لحقتها أمه تصرخ:

- علي، سعيد، ابني، مهجة قلبي.

رحاب تركض مثلهم، تبكي، وتضرب خديها.

علي ابن رحاب يتمتم بالروسية ثم بالألمانية: اللعنة على إسرائيل، اللعنة على الصهيونية.

صحافيون يصورون الحادث. تصل الأم فترمي نفسها مثل خولة مرة على سعيد ومرة على علي، أولاد عاصم يصرخون، منظر صعب، لم يبق أحد إلا بكى عليه.

إسرائيل تعلن أن الصاروخ سقط بالخطأ على سيارة الأسير السابق علي النجار وأنه كان موجهًا نحو سيارة تقل أحد المطلوبين الذي كان يشارك في موكب العرس.

تحول مكان الاحتفال إلى مكان للعزاء.

(49)

لم تنم خولة طيلة الليلة التي تلت دفن الشهيد علي النجار وأخيه سعيد وعمه. انزوت بعد العزاء في غرفتها لتستريح. ظلت طوال الليل تبكي، تندب حظها التعيس. كانت صورة علي بلحيته الخفيفة البيضاء لا تفارقها، كأنه ملاك بجناحين، تركها وطار وحده، كم كان بودها لو حملها معه، ألن يذهب إلى الجنة؟ فلماذا تركني ورحل؟

شريط حياتها معه يمر سريعًا منذ زيارتها له في سجن الرملة قبل ثلاثين سنة، من كان يعلم أن زيارتها له ستكتب أجمل قصة حب في فلسطين؟ صورته تتغير أمامها كان شابًّا مرحًا فيه عنفوان الشباب وحماسه فتركها رجلاً وقورًا بلحية بيضاء.

صوره تملأ كل الجدران، والفضائيات، مواقع الشبكة العنكبوتية، كل صحافي يحاول أن يلتقط لها بعض الصور ويجري معها ولو حوارًا قصيرًا، الأغاني عن علي النجار بدأت تذاع حتى قبل أن يجف دمه:

"علي النجار يا شارة حرية

نجمة بسمانا مضوية"

ما الذي يفيدها كل ذلك وقد رحل الفارس ولن يعود؟!

هل هذا ما بقي لها من علي؟ الذكريات؟ هل أصبح علي مجرد أغنية، ولوحة، وشعارٍ يرفع هنا وهناك؟

ولماذا تقللين من ذلك يا خولة؟ كل فتيات شعبنا يتمنين لو كن مكانك الآن؟ هل تقنطين من رحمة الله؟ ألا يسيطر الإيمان على قلبك، ألم يقل لك علي: "خولة، إن لم نتعانق في الأرض سأكون بانتظارك في الجنة عند مدخل الباب...".

زوجة الشهيد علي النجار.

(50)

في الصباح الباكر تسللت من البيت دون أن ينتبه إليها أحد وتوجهت إلى مقبرة باب الأسباط حيث دفن زوجها ورفيق دربها علي النجار.

جففت دموعها قبل أن تدخل المقبرة، كأنها كانت لا تريده أن يراها حزينة.

دخلت تمشي مسرعة متلهفة كأنه ينتظرها فوق القبر لا تحته، وعندما اقتربت فوجئت بشخص يقف قرب القبر، كان يقرأ على روحه الفاتحة، لم تتعرف إليه، فقد كان ظهره إليها. خففت من مشيتها تحاول أن تتذكر من يكون ذلك الشخص فلم تتذكر، وعندما أصبحت على بعد مترين منه أحس الرجل بخطواتها، وكان قد انتهى من قراءة الفاتحة، أدار ظهره ليرى من القادم في هذا الصباح الباكر، ففوجئت خولة به وسألته على الفور:

- أهذا أنت؟ ليس معقولاً، متى عدت؟

اقترب منها ومد يده مصافحًا:

-عظّم الله أجركم، لا أدري هل أقدم لك التعازي أم أعزي نفسي، فعلي النجار أخي قبل أن تكوني زوجته. جئت صباح اليوم، لقد حضرت إلى هنا مباشرة من المطار، حاولت الحضور يوم أمس للمشاركة في الجنازة لكني لم أستطع، فالطائرة القادمة من هناك تحتاج لأكثر من يوم للوصول.

سلمت عليه، فتابع حديثه لها:

- أعرف أن المصاب كبير، وأن كل الكلمات لا تعوضك عن علي، لكنها إرادة الله، احتسبيه شهيدًا عند ربه.

هزت رأسها بعد أن غلبها البكاء ثم قالت له:

- لم أتعبت نفسك يا خليل؟

- أهذا سؤال؟ أخي علي يستحق أن أقطع من أجله الكون كله.

نظرت إليه بلهجة عتاب وقالت:

- لماذا إذًا هاجرت وتركته خلف القضبان؟

فوجئ بسؤالها، صمت، ثم قال لها:

- خولة، لم أسافر إلا بعد اتفاق أوسلو، عندما لم يعد في الساحة إلا تجار الوطن والفاسدون.

- فهل تركت الوطن لهم لينهبوه؟ أنسيت وعدك لعلي صباح الإفراج عنك من سجن نفحة؟ ألم تعده...

قاطعها، وقد احمر وجهه:

- لم أنس يا خولة، ولكن حصلت ظروف...

- هل كان ذلك مبررًا كافيًا...

- خول، تعرفين أنني قدمت الكثير للوطن، لو كل مواطن قدم ما قدمته لتحرر الوطن منذ سنين.

- هل تقاعدت إذًا؟

- لا، ولكن فرصة للانتباه للذات...

صمت ثم تابع:

- نحن في أستراليا نقيم الندوات والمسيرات التضامنية مع شعبنا، قبل أسبوع شاركت في ندوة عن الممارسات الإسرائيلية ضد أهلنا...

قاطعته بأسى:

- عظيم، قائد الانتفاضة في القدس الذي كان شعلتها وكتب أول بياناتها يناضل الآن في الندوات من أستراليا، أمقتنع من كلامك هذا؟

نظر إليها خجلاً، دقق في وجهها ليرى التجاعيد التي خلفتها سنين المطاردة من سجن إلى سجن. هذه المرأة العظيمة التي ضحت بكل ملذات الحياة من أجل علي لا يمكن إلا أن أنحني احترامًا لها.

- خولة، أنا... أنا لن يطول اغترابي.

- وهل ستعود بعد أن تملأ جيوبك بالفلوس؟

- الثورة بخير والشباب يقوم بالواجب.
- أهذا ما عاهدت به عليًّا؟ أن تتذكره حين يموت لتزور قبره؟
- خولة، لم أتخل عن وعدي، لكن بعد أوسلو قتلوا فينا كل حماس للنضال، خدعونا، كنا نتوهم أن قيادة الخارج جماعة من المناضلين، فإذا بكثير منهم من الفاسدين الذين جاؤوا ليكونوا الثروات على حساب الشعب المسكين، حتى الشرفاء منهم تعبوا وتغيروا، لم أتصور يا خولة أن أرى أشرف المناضلين يتساقطون في معمعة النضال أمام الفلوس.
- فتركت لهم عليًّا لينهشوه؟
- كلا.. ولكن الأمر كان أكبر مني، لم أستطع تغيير كل ما أراه، الفساد في كل مكان، الأجهزة التي مهمتها حماية شعبنا أصبحت أولوياتها حماية إسرائيل.
- حتى جاءت القوى الإسلامية لتسحب البساط من تحت أرجلكم.
- هنيئًا لهم، لقد أثبتوا أنهم أشرف من معظمنا، لقد عرفت أن عليًّا قبل الإفراج عنه بسنوات انضم لهم واستقال من حركة أفنى حياته دفاعًا عنها.
- انضم للمقاومة لأنها عنوان الصمود وطريق التحرر.
نظر إلى ساعته فعرفت أنه ينوي المغادرة، أخرج من جيبه مغلفًا وقدمه لها سألته:

- ما هذا؟

- بعض المال لك ليعينك، لا تترددي أن تطلبي أي شيء تحتاجينه.

نظرت إليه بإباء وقالت:

- شكرا لك، لست بحاجة لشيء.

- مش ممكن.

- لماذا؟

- علي أخي ورفيق دربي وأنت زوجته، وهذا واجبي.

- واجبك تجاه علي انتهى منذ سفرك يا خليل.

- لا تكوني قاسية علي؟

- أقسو عليك بقدر ما كانت محبة علي لك.

- متى سأراك بعد اليوم؟ أنا تعب الآن، سأزورك في الغد.

- ستجدني هنا كل صباح.

- إلى متى يا خولة؟

- إلى أن يعود ليأخذني معه.

- كم أنت عظيمة يا خولة!

- وكم أنت وفيّ يا خليل!

- انتهت -

قالوا في الرواية

"عناق الأصابع".. إضافة نوعية إلى المشهد الروائي الفلسطيني

د. بوشعيب الساوري (ناقد أدبي- المغرب)

تشكل رواية "عناق الأصابع" إضافة نوعية إلى المشهد الروائي الفلسطيني، لعدة اعتبارات:

الأول: بتوثيقها السردي لذاكرة الأسرى والشهداء، وتخييلها لفترة مضيئة من تاريخ النضال الفلسطيني ألا وهي الانتفاضة الأولى في الثمانينيات من القرن الماضي، وإدانتها لما تبعها من مسلسل التطبيع وما شهده من تنازلات.

الثاني: رواية تمجد روح النضال، وتعلي من شأن قيم الحب والإخلاص للقضية وتبخس الخيانة، والتفكك الفلسطيني الداخلي، وتبقي على أمل التحرير.

الثالث: وهو مما يحسب للرواية، أن أحداثها تدور بمدينة القدس، وبذلك تكون "عناق الأصابع" من الروايات العربية القليلة التي جعلت المدينة المقدسة مسرحًا لأحداثها، إذ تعيد الرواية ترميم المدينة تخييلياً، كشكل من أشكال المقاومة التي يطلع بها السرد الروائي، لما يحدث من تهويد للمدينة.

الرابع: الرواية تخييل تاريخي استطاع تطويع الجانب التوثيقي وصهره في السرد الروائي، إذ استطاع الروائي أن يلبسه لبوساً إنسانياً يلتقط أنفاس الشخصية، ومشاعرها، وما يعتمل داخلها في إطار تفاعلها مع ما يجري من أحداث وتحولات.

الخامس: ترصد رواية "عناق الأصابع" تحول القناعات والشعارات، وانهيار الإيديولوجيات، في صفوف المناضلين، وتبرز انعكاساتها على القضية

الفلسطينية.

السادس: تجعل من قضية الأسرى بؤرتها السردية عبر تجسير سردي محكم بين السجون، وبيوت الأهالي، بين الأسرى وبين ذويهم، خصوصاً النساء منهم، وهو ما جعل الرواية تنشد إلى قضية المرأة الفلسطينية سواء في جانبها الإنساني العام، أو الخاص ودورها في النضال الفلسطيني.

السابع: أحسن الكاتب عادل سالم في سبك روايته في قالب سردي استطاع سبر أغوار نفوس شخصياته الروائية، على الرغم من إسناد السرد إلى راو عليم، فإنه كان يسمح للشخصيات أثناء المونولوج والمشاهد الحوارية التي خلقت توازناً مع المقاطع السردية، بالتعبير عما يعتمل داخلها، وفي كل حالاتها، في فرحها وآلامها وتعذيبها وتغير قناعاتها ومقاومتها للعدو بكل ما تملك من قوة.

*

توثق الرواية لدور المرأة في النضال الوطني

د. نجمة خليل حبيب (أديبة فلسطينية. جامعة سدني- أستراليا)

بقالب روائي شيق، توثق رواية "عناق الأصابع" لمعاناة الأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال. نتفاعل مع شخصياتها وكأنها تعيش بيننا، بتلقائية نحزن، ونغضب، ونفرح لحزنهم وغضبهم وفرحهم. نحزن لتعذيب علي الجعفري واستشهاده، نغضب لغضب عمر القاسم الذي استثناه أحمد جبريل من قائمة المفرج عنهم، ونفرح لعلاقة الحب الرومانسي الجميلة بين علي وخولة، وينكسر فرحنا لانكسار قلبيهما... ويكمن تميز الرواية في تخصيصها حيزاً واسعاً من السرد لدور المرأة في معركة النضال وضرورة احترام المجتمع لعواطفها وخياراتها.

*

"عناق الأصابع" نبضٌ مقدسيّ

عدنان كنفاني (أديب فلسطيني مقيم في سوريا)

في معرض بحثي عن الرواية المقدسية، التي تتحدث عن القدس، تأريخاً وتوثيقاً، رائحةً وفضاء، حواري وذاكرة، أوابد وبشر.. رواية مقدسية، ليس من أجل تطلّع إقليمي ضيّق، بل لأنها القدس، المنارة التي تدلّ على فلسطين، كلّ فلسطين، ولأنها المستهدفة، كانت عبر غزوات متلاحقة من أمم طامعة، وما زالت مستهدفة بضراوة أعنف لطمس معالمها، وشواهد انتماء الفلسطينيين إليها.

كانت المناسبة احتفالية القدس عاصمة للثقافة العربية في حينه، بحثت كثيراً في بطون الكتب، ودهشت عندما لم أجد غير النذر اليسير جداً في روايات تناولت القدس في أحداثها وشخوصها ومعالمها، وكي أكون منصفاً أقول، إن هناك روايات كثيرة تحدثت، عبوراً أو ملامسةً، عن القدس دون الدخول في صلب حِراكها.

في رواية "عناق الأصابع" للصديق الأديب عادل سالم، لمست جدران القدس التي أعرفها، شممت روائح أسواقها، وطربت على تلك اللكنة المقدسية المحببة التي شَدَتْ من وراء السطور.

وإذا خرجنا من إطار التقويم الفني الذي أتقن الصنع والبناء، وابتعدنا عن صفاء اللغة المتماسكة المتينة، وجانبنا تراكيب الصور الأخّاذة، وقفزنا عن رشاقة الحوار، لا بد أن نقف طويلاً أمام رهافة الحسّ، وأمام نبض العشق، وتلك العلاقة، التي تكاد تتماهى مع ألَقِها الفني كرواية تنتمي إلى جنس النثر، وكاتبها العاشق حتى نخاع العظم حتى وهو يتلوّى حزناً وقهراً، وحتى وهو يلامس ألم الأسير، وبرودة القضبان، وعيون الآسرين الشامتة، ليخلق من

هذه المضادات العجيبة خشبة مسرحٍ فرش عليها القدس ونساءها ورجالها وفتيانها، ورشق فوقهم ملاءات حب وفداء، فلم يتحركوا وحدهم على أرض المسرح الحيّ، بل أخذونا كي نعاني من الحراك ذاته، وندخل إلى فضاء المشاهد، شخوصاً نتحدث دون أن نحمل بين أيدينا نصّاً مكتوباً، وكأننا نحن جميعاً مأسورين في الدائرة ذاتها.

أخي عادل سالم.. بحثتُ، فلم أجد مفردةً تعبّر عن سعادتي بروايتك، لكنني على يقين أن "عناق الأصابع" حفرت منحىً جديداً وحديثاً في مسار الرواية الفلسطينية الملتزمة والمقاومة، ودَخلت بقوّة إلى عمق معاناتنا الإنسانية، وأضاءت بشفافية على القدس وناسها الأسرى، وأرست فينا ذلك اليقين الذي لم يغبْ عن أحاسيسنا لحظة، بأن كلّ الغزاة الذين مرّوا على القدس، ذهبوا.. وبقيت القدس، وسيذهب الغزاة الجدد أيضاً.. وستبقى القدس.

*

قصائد الحب في "عناق الأصابع"

المحامي محمد عليان- فلسطين (أسير سابق)

في روايته "عناق الأصابع" ينكأ الكاتب عادل سالم جروحنا التي اعتقدنا خطأ أنها اندملت، ويثير فينا الأحاسيس، والمشاعر التي كانت حبيسة، ويرسم لنا بريشة فنان الحلم الوردي الذي كان يراودنا في ليلنا ونهارنا، نفرح له ونستلذ به وتختلج له شغاف قلوبنا.. الحلم بزوجة تعانقها، وأم تدفن رأسك بصدرها ووطن يسكنك ويحميك.

في "عناق الأصابع" تكتسي التجربة طابعها الإنساني ، ويظهر الحب كمحفز أساسي للصمود، ومصدر ملهم للقوة، والعنفوان، وعنوان للحلم، وهدف يستحق الحياة. وكانت خولة شاهين المرأة التي ترتسم على شفتي علي النجار حتى وهو يتعرض إلى القسوة والتعذيب، والعبق الذي يفوح في أجواء الزنزانة

النتة العفنة والأمل الذي لم يدع مكاناً لليأس والقنوط في قلب الأسير الذي أمضى عقوداً من الزمان في الظلمة الحالكة.

ربما تكون "عناق الأصابع" هي الرواية الأولى التي تحطم القيود أمام الحب وتظهره باسمى تجلياته، وهي، لذلك، تكون الرواية الأولى التي تعاملت مع الأسير الفلسطيني كإنسان أولاً وقبل كل شيء، إنسان يحب ويكره، يحزن ويفرح، يبكي ويتأوه، إنسان يحتاج إلى الحب مثلما يحتاج إلى الغذاء ومثلما يتوق إلى الحرية، وكان الحب الذي منحه الكاتب لعلي النجار، الشخصية الرئيسة في الرواية، حباً سخياً، صادقاً، لا يعرف الحدود ولا القيود، تخطى السجن والسجان واخترق فتحات (الشبك)، وسكن الروح، واستوطن في القلب، وارتفع بعلي إلى أسمى درجات الإنسانية والرقي، وجعل منه القائد الإنسان الذي يقاتل دون هوادة، ولا يتنازل عن قضيته وكرامته ولم يهزمه السجن، والسجان، وكلما مر الوقت كلما كبر الحب وتفولذت عزيمته.

وإذا كان حب خولة يشكل مصدراً ملهما لصمود علي في الأسر، فإن حب الأم، والأب، والأخ، والأخت، والصديق والقريب، والبعيد للأسير والحركة الأسيرة، كان أحد أهم مصادر صمود الأسرى وانتصاراتهم على السجن والسجان. لقد وثق الكاتب مرحلة تاريخية كان فيها التعاطف والتضامن مع الحركة الأسيرة لا يقتصر فقط على زوجات وأمهات وأبناء الأسرى، بل يشمل كافة الفئات الشعبية في الوطن والخارج شيبة وشبانا أطفالاً ونساءً، فقد غمرت الجماهير الحركة الأسيرة بالحب، والتعاطف، والتضامن الفعلي، ونظمت الفعاليات، والمظاهرات، والاعتصامات التضامنية وشكلت بعداً رئيساً في نضال الحركة الأسيرة.

أما مصدر الحب الأهم في "عناق الأصابع" فهو العلاقة الإنسانية الوشيجة التي يتميز بها الأسرى فيما بينهم، لقد أبدع الكاتب في التركيز على تفاصيل دقيقة للحياة الداخلية في الأسر يظهر في الحب الصادق والإخوة المتينة

والتفاني والتضامن وحب الجماعة والتضحية من أجل الآخر. هناك، في الأسر، حيث الحرمان والقهر، يفرح الأسير لفرح رفيقه ويحزن لحزنه ويشاركه لباسه وطعامه ويسهر على راحته ويداوي مرضه ويقاسمه لقمة الخبز و»حبة التين. هذا الحب لا يميز بين الأبيض والأسود، بين الغني والفقير، بين المتعلم والجاهل، بل يخترق كل الفوارق الطبقية والتنظيمية ويضع الجميع في خندق واحد.

وربما يكون الكاتب قد أدرك أن علي النجار الذي أمضى (٣٨) عاماً وهو ينعم بهذا القدر من الحب، لا يستطيع أن يتأقلم ويتكيف في واقع حياتي تغلب عليه الأنانية والسعي وراء المصالح الشخصية والزيف والنفاق، لذلك أغدق عليه بمزيد من الحب، وجعله ضحية عملية اغتيال إسرائيلية بعد أسبوع فقط من الإفراج عنه كي يسقط شهيداً ويفارق هذه الحياة قبل أن تتلوث روحه.

"عناق الأصابع" ليست رواية، بل قصائد حب خالدة، سنغنّيها نحن والأجيال القادمة على ألحان الوجع والألم.

*

اشتباك بالواقع عبر الشكل الروائي

د. أحمد الخميسي (دكتوراه في الأدب الروسي)- مصر

بدأ عادل سالم طريقه الأدبي بالقصة القصيرة، فقدّم عالماً مهموماً بقضايا الوطن الفلسطيني والغربة، والآن ينتقل الكاتب إلى الرواية دون أن تغادره الهموم المؤرقة ذاتها. ومع أن تلك هي روايته الأولى إلا أن القارئ سيجد فيها الكثير من قدرة الكاتب المبدع على الاشتباك بالواقع عبر الشكل الروائي، ومن قدرته أيضاً على التحليق بالأحلام، وفي كل ذلك يلاحق الروائي قدره، وطنه الفلسطيني.

النهايات مدهشة

د. أحمد زياد محبك (أستاذ الأدب العربي الحديث/ جامعة حلب)- سوريا

عرفت الأستاذ عادل سالم في قصصه، رأيت فيه الرجل المدافع عن قيم الخير والعدل والحق والحرية، هو حريص على روح الإنسان وجوهره، وهو أبعد ما يكون عن المباشرة والتقرير، الجملة في قصصه قصيرة، والحوادث سريعة، لا يستغرق في التفاصيل، لا يكثر من الوصف، يكتفي بالإشارة والتلميح، الشخصيات كثيفة واضحة حادة الملامح، النهايات مدهشة، لا يكرر نفسه، في كل قصة عالم جديد، وفي كل قصة بناء جديد.

*

امتداد عناقٍ حميم ما بين أصابع القارئ وأصابع الأسرى

نسب أديب حسين (ناقدة من فلسطين)

يأتينا الكاتب المقدسي عادل سالم بروايته الأولى بعد إصدارات سابقة في الشعر والقصص والدراسات "عناق الأصابع" التي صدرت عن دار شمس المصرية. هذا الكاتب الذي وُلد في العام (1957) في البلدة القديمة في القدس وقضى (33) شهرًا في سجون الاحتلال، وخاض تجربة السجن، وتنقل بين العديد من السجون كسجن بئر السبع ونفحة والرملة وغيرها.. قرر أن ينقل تجربة السجن بقالبٍ روائي، يتناول شخصيات حقيقية كعمر القاسم الذي لُقب بمانديلا العرب واستثنته عملية تبادل الأسرى العام (1985)، قضى في سجون الاحتلال (22) عامًا حتى انتقل إلى جوار ربه شهيداً. وليتناول شخصية خيالية هي شخصية علي النجار ابن القدس الذي سُجن لمدة (38) عامًا إلى أن أفرج عنه بتبادل الأسرى. هذا البطل الخيالي كان صديقًا لسجناء حقيقيين ذكرهم الكاتب مثل: عطا القيمري ومحمد عليان وسمير قنطار،

نقل الكاتب عن طريقه الكثير عن حياة السجن والسجناء. أما الحياة خارج السجن فكانت عن طريق عائلة عليّ ووالديه، وأخواته وإخوته وزوجته خولة. لقد صدرت العديد من الكتب التي تتطرق إلى السجن والسجناء ومرارة التعذيب، لكن ما يميز هذه الرواية عن غيرها هو القالب الروائي الذي يجعل القارئ أقرب إلى مفهوم السجن. الرواية تتطرق إلى وصف السجن مثل وصف سجن نفحة (ص52) غرفة صغيرة تكاد تتسع لهم للنوم بجانب بعضهم بعضًا، الباب كله من الصفيح مغلق لا ترى منه شيئًا يوجد به شباك صغير يفتحه السجان من الخارج إن أراد شيئًا، لا يوجد لتهوية الغرفة سوى شباك واحد صغير في أعلى أحد الجدران، في آخر الغرفة توجد غرفة حمام واحد بدون ماء ساخن، وحنفية ماء داخل الغرفة.. في موقع آخر يزيد الكاتب في التفصيل ليقول إنّ الشباك الذي في باب الصفيح مساحته (٢٠سم× 20سم) سم فيه ثلاث قضبان حديدية سمك كل واحد منها (2سم). نجد الكاتب مجتهدًا محاولاً أن لا تغفله غافلة، يصف السجن، والتقسيمات والإدارة في داخل السجن، والبرنامج اليومي للسجناء، دراستهم وكتاباتهم وتنظيمهم، كل هذا يساعد القارئ الجاهل لهذه التفاصيل والذي لم يقف قريبًا من تجربة من هذا النوع، في فهم هذا العالم.. عالم السجن، ليرى أنّ السجين لا يتوقف دوره في الحياة أو في النضال في السجن، بل هناك عالمٌ كامل ومجتمع يحيا في إطار هذا العالم الصغير الكبير، الذي قد تنحصر مساحته عمليًّا بمساحة الزنزانة أو مبنى السجن، لكن أبعاده أكبر من هذا بكثير.

يحاول الكاتب أن يعطي كل ذي حق حقه، فنجده أحيانًا يذكر أسماءَ الكثير من الأشخاص والمؤسسات، كنوع من الشكر والإشارة، لكن هذا أبعده عن المجال الأدبي وأضعف الرواية. هذه الرواية قوية بأحداثها وبطرحها، أكثر من قوة نصها الأدبي. لغة الرواية بسيطة فيها الكثير من التفاصيل والجُمل التي

لو حُذفت لكان النص أقوى.

فلك الرواية الزمني الذي يمتد من العام (1978) حتى العام (2008)، امتلأ أحيانًا بفجوات زمنية، فيجد القارئ نفسه منسجمًا مع أحداث الرواية الآنية ليجد نفسه فجأة على بُعد خمس أو عشر سنوات من هذا الحدث، ما يشعره بالارتباك. لقد أراد الكاتب بهذا أن يؤرخ ويسلط الضوء على أحداثٍ تاريخية مهمة على مدار ثلاثين عامًا كعملية تبادل للأسرى، أو إضراب عن الطعام، أو الانتفاضة الفلسطينية في العام (1978). لكنه غفل عن أحداث أخرى لنكون في (ص318) في العام (1993)، ونجد أنفسنا فجأة (ص322) في العام (2008)، أي عبر الكاتب بُعدًا زمنيًا هو خمسة عشرة عامًا في أربع صفحات، بينما نالت الخمسة عشرة عامًا الأولى في حياة الرواية (317) صفحة، وهذا يُضعف النص الأدبي. وفيما يبدو أن الكاتب قد نال منه التعب وأراد أن ينتهي من هذا العمل فقرر أن يختصر، لكن في اعتقادي بأنه لو تريث وتوقف عند العام (1993) لتكون الجزء الأول من الرواية ويستمر في الكتابة ليصدر الجزء الثاني عن الحقبة الزمنية التالية لكان العمل أنجح.

نقلت الرواية حياة السُجناء ببعدها الإنساني، فالكاتب لم يُصور السجين كبطل خارق يتحدى دائمًا كل الصعوبات، بل هو يحزن أحيانًا، ويُصاب بالخذلان، ويشعر أحيانًا باللاجدوى، كما أنه يفرح ويحلم بحياة أجمل حتى لو كان قد حُكم بالسجن المؤبد.

المرأة في الرواية

لقد اهتمت الرواية بالمرأة وتطرقت إلى ثلاث نساء، يمكنني أن أقول إنهن من أبطال الرواية:

أم سعيد، أم الأسير: هي أم الأسير علي النجار التي تمثل أم الأسرى جميعًا ولا تنفك مدة (38) عامًا في التنقل من سجن إلى آخر مع تنقل ابنها علي، في

البحث عنه وزيارته، والتفكير به، والافتخار به، والحلم بأن تراه قبل أن تموت (ص327). ويكون لها هذا حين يُفرج عن علي في عملية تبادل للأسرى، لكنها سرعان ما تفقده إذ يستشهد بسقوط صاروخ على سيارة تُقله لإحضار عروسه خولة عند معبر قلنديا. هذه الأم التي تخوض الإضراب عن الطعام تضامنًا معه ولا تنقطع عن زيارته كل أسبوعين طيلة مدة الأسر، تظهر كأنموذج للأم الفلسطينية التي تقدم أبناءها للوطن. ونرى موقفًا للأم عند محاكمة الأسير عمر القاسم بعد أن نفذ حكم الإعدام بحق أحد الجواسيس، لينال مؤبدًا آخر إضافة إلى مؤبد و(27) عامًا قد حكم بها من قبل، لتقف الأم وتزغرد وسط القاعة صائحة: "الله أكبر على الظالمين، الله يحميكم وينصركم" (ص266). تلك الأم التي لا ترى ابنها إلا من خلف القضبان، ورأته بعد نحو عقدين بدون قضبان في قاعة المحكمة حاولت الاقتراب منه، لكن الشرطي منعها، وحاول المحامي التدخل طالبًا السماح للأم بالحديث معه لثوان، لكن مسؤول الوحدة رفض ذلك مدعيًا أن الأوامر لا تسمح له بذلك.

رحاب: شقيقة علي النجار، تسافر إلى روسيا لدراسة الصحافة وتقود مظاهرات داعمة للأسرى وفلسطين، تلتقي بشاب روسي يُدعى فلاديمير معنيّ بالقضية الفلسطينية. يُصارحها فلاديمير بحبه، وتجد نفسها واقعة في غرامه. يعرض الشاب عليها الزواج، ليقابلها رفض الأهل. شخصية رحاب المتمردة، لا تقتنع برفض الأهل وبتقاليد مجتمع لا يُعارض زواج الشاب من أجنبية فيما يمنع الفتاة من خطوة كهذه. تتزوج رحاب من فلاديمير زواجًا سريًّا تنجبُ منه طفلاً تُطلق عليه اسم أخيها علي، لكن بعد عام ينتهي الزواج والحب بالطلاق. وتعود رحاب إلى فلسطين ولا تُعلم والديها بالقصة. يقع شاب تقدّمي صحافيّ يُدعى عمران بحب رحاب ويُصر على الزواج منها، فتُعلمه بزواجها السابق ولا يعترض. ورغم أن عمران من دعاة تحرير المرأة وعملها

واستقلاليتها وتقبله لطلاق رحاب، نجده بعد سنوات يطلب منها أن تترك عملها في الصحافة التي هي ناجحة فيها لتعتني بطفلها، فيما يتبوأ هو منصب رئيس تحرير صحيفة الفجر التي كانا يعملان بها.

تستلم رحاب بعد ستة أعوام من الزواج بعمران رسالة من فلاديمير(زوجها السابق)، يُعلمها فيها عن خيبته من الاشتراكية، بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، وقراره بالرحيل إلى أمريكا واستغنائه عن حضانة ابنها عليّ، وأنه لن يصحب الطفل معه إلى أمريكا بل سيتركه عند أمه العجوز. وهنا تحتار رحاب أمام تعنت زوجها الذي يرفض استقبال الطفل. يعلم أهلها بالموضوع عن طريق شقيقها سعيد فيموت والدها بسكتة قلبية، ولا يساعدها أحد في الوصول إلى حل بشأن طفلها الروسي الذي سيبقى وحيدًا. وعمران يخيرها بينهما، لنجد رحاب تترك عائلتها وتسافر إلى روسيا ومن ثم ألمانيا لتربي ابنها، ولا تعود إلى أرض الوطن إلا بعد(١٦) عامًا بعد تحرر أخيها علي من السجن، والذي يُرحب بعودتها.

خولة: شابة صحافية تلتقي أم سعيد لتصطحبها إلى السجن لزيارة علي وإجراء لقاءٍ صحافي معه. وهناك عند معانقة أصابع علي لأصابعها، تشعر بشعور غريب، لتجد أنها وقعت في حب علي. وتستمر زيارة خولة لعلي بمرافقة أمه ويتصارحان بشعورهما، وتقرر أن ترتبط بعلي رغم أنه محكوم بالسجن المؤبد. يوافق والديها على رغبتها، ويُعقد القران في السجن. وتبقى خولة العروس تحلم بعناق عريسها علي، وتحيى طيلة (28) عامًا على أمل أن يُفرج عنه في صفقة تبادل. وفيما تجهز الملابس له وتحلم، تجد أن صفقة (1985) لتبادل الأسرى تستثنيه. حتى يُفرج عنه في العام (2008)، وتعانقه للمرة الأولى. لكن فرحة خولة لم تكتمل وذلك عند استشهاد عليّ في يوم الزفاف بسقوط صاروخٍ على سيارة تُقله إلى الفرح. خولة هذه البطلة صاحبة الميزات الخارقة والتي يصعب أن تكون حقيقية، وبعد أن واكبت على زيارة

علي مدة أسره ولم تتغيب إلا للضروريات، نجدها بعد موته تواكب على زيارة قبره كل صباح، وتأتي هنا نهاية الرواية في أن تصارح صديقه خليل الصباح الذي سافر إلى أستراليا، بهذه الزيارات، فيسألها إلى متى يا خولة؟ لتقول: إلى أن يعود ليأخذني معه.

عنوان الرواية "عناق الأصابع"

إن عنوان الرواية يُقدم الرواية بأفضل تعبير ليختصر رسالة الرواية بكلمتين، في نقله البُعد الإنساني لحياة الأسير، هذا البُعد الذي ركز واهتم الكاتب كثيرًا بإبرازه أكثر حتى من الدور النضالي، ليقول الراوي (ص٢٩) : "اقتربت أمه بسرعة متلهفة لرؤيته سلمت عليه بأصابعها التي أدخلت بعضها خلال الشبك الحديدي، ما أروع أن تتعانق الأصابع بعد غيابٍ طويل، خارج القضبان ليس لها معنى، لكن للذين تفصل القضبان بينهم فللأصابع إحساس غريب، من خلالها يتصل الأسير بمن هم خلف القضبان، من خلالها يرتبط بالعالم الخارجي".

ختامًا أعتقد أن الكاتب نجح في امتداد عناقٍ حميم ما بين أصابع القارئ وأصابع الأسرى، في نقل عالمهم إلى مخيلة وروح القارئ ويربطهما ببعض.

*

إضافة نوعية للمكتبة العربية

جميل السلحوت (أديب من فلسطين)

الرواية التي بين أيدينا رواية تسجيلية واقعية، لا خيال فيها، وحتى الأسماء الواردة في الرواية هي أسماء حقيقية في غالبيتها العظمى، وما يدور في السجون المغلقة على الأسرى من إضراب عن الطعام، وسقوط شهداء ومرضى، ونضالات لتحقيق مكاسب، وتعذيب من قبل السجانين، وتحقيق

الأسرى مع بعض المتساقطين، وإعدام بعضهم، وخلافات عقائدية بين الأسرى أنفسهم، هي حوادث حقيقية وواقعية حتى النخاع، وبالأسماء الحقيقية لشخوصها... حتى أن الكاتب سجل التاريخ الحقيقي للحوادث مثل إضراب سجن نفحة الشهير في تموز ١٩٨٠ والذي استمر لثلاثة وثلاثين يومًا، ارتقى فيه إلى قمة المجد الشهيدان باسم حلاوة وعلي الجعفري، وما تبع ذلك من استشهاد القائد عمر القاسم، واسحق موسى المراغي (أبو جمال)، وكذلك صفقة تبادل الأسرى في العام ١٩٨٥، وصفقة تحرير أسرى بعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية، واستثناء بعض المناضلين من أمثال عمر القاسم وغيره، كلها أمور حدثت على أرض الواقع.

شروط فنية: يبدو أن تركيز الكاتب على السرد التسجيلي لما يدور في أقبية السجون، ومعاناة الأسرى وذويهم، قد أوقعه في كتابة التقارير الصحافية، والحكاية أكثر من كتابة الرواية، وهذا ما يطغى على أسلوب النص السردي.

المرأة: ظهر في الرواية أن الكاتب ركز على الدور التحرري للمرأة الفلسطينية، فخولة شاهين كتبت عقد زواجها على علي النجار المحكوم مدى الحياة، وانتظرته حتى تحرر في صفقة بعد ثمان وعشرين سنة، ومع ذلك فقد استشهد يوم حفلة عرسهما دون أن تزف إليه، وكانت راضية بقدرها.

ورحاب شقيقة علي سافرت إلى موسكو طلبًا للعلم وهناك أحبت شابًا روسيًا وتزوجته، وأنجبت منه طفلاً، ثم تطلقت منه، وعادت إلى القدس تاركة ابنها في حضانة والده، وعملت في مجال الصحافة وتزوجت زميلاً لها، بعد أن كاشفته بزواجها الأول، ولم يعترض على ذلك، وأنجبت منه، ولما عرض عليها طليقها الروسي أن تأخذ ابنها منه ليكون في رعايتها بعد أن قرر الهجرة إلى أمريكا بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، عارض زوجها الفلسطيني ذلك، لكنها تحدته وسافرت لاحتضان ابنها، بعد أن انكشف سرها لعائلتها التي تقبلت ذلك على مضض، ليتبين لاحقًا أنها سافرت وإياه للعمل في ألمانيا، ولتعود إلى

القدس للمشاركة في زفاف شقيقها علي الذي تحرر من السجن، لكنه يستشهد يوم زفافه وقبل أن تراه.

ونضال الأمهات والزوجات في زيارة أبنائهن وأزواجهن، ومشاركتهن في الاعتصامات والتظاهرات التضامنية مع الأسرى كلها أمور كان لها نصيب بيّن في الرواية.

وماذا بعد: تشكل هذه الرواية إضافة نوعية للمكتبة العربية عن معاناة الأسرى الفلسطينيين والعرب في سجون الاحتلال الإسرائيلي، والكتابة عنها لا يغني عن قراءتها، فالتجربة النضالية للأسرى فيها الكثير مما يحتاج إلى الكتابة والنشر والتعميم.

*

"عناق الأصابع".. عناق التوثيق والخيال الأدبي

إبراهيم جوهر (أديب من فلسطين)

يقدّم الكاتب عادل سالم في روايته "عناق الأصابع" توثيقًا للحركة الفلسطينية الأسيرة معدّدًا أسماء أبطالها الذين ذاقوا مرارة الاعتقال فصمدوا من أجل الاعتراف بهم كأسرى حرب وفق القانون الدولي. ويتطرق بإسهاب إلى تجربة معركة الأمعاء الخاوية وشهدائها، منتقدًا في مقارنة فنية لافتة التغيّر الحاصل على القناعات الفكرية والوطنية في شخصياته التي أنطقها مستعيناً بخيال أدبي وفّر له التشويق والمتعة بعيداً عن فخ التوثيق الهادئ، رغم حرارة التجربة الاعتقالية المعبّر عنها.

زاوج الكاتب في روايته بين الوثيقة التاريخية للمرحلة الاعتقالية، وقصة حب جارف غريب بين الفتاة خولة والأسير على النجار. تلك التجربة التي تتكلل بالزواج في المعتقل انتظاراً لإتمامه حين الخروج إلى بر الحرية. وهو يشير في أكثر من موضع في الرواية إلى الروح المعنوية العالية الواثقة بأن الثورة لن

تترك مناضليها في السجون، ولن تتخلى عنهم... ليبدأ بتوجيه الانتقاد إلى الصفقات التي استثنتهم فعلاً، وصولاً إلى اتفاق أوسلو. لتكون واقعة الاغتيال بصاروخ استهدف سيارة الزفاف، نهاية مأساوية لقصة عشق وانتظار فلسطينية، كان مهّد لها الكاتب في ثنايا الرواية التي لم توفّر للعاشقين الغريبين (!!) فرصة اكتمال اللقاء، أو الحديث إذ كان الجندي ينهي الزيارة لتبقى الأحلام معلقة في الخيال.

"عناق الأصابع" إشارة إلى الشبك الفاصل بين المعتقل وذويه وقت الزيارة، هذا الشبك ذاته شهد عناق أصابع المحبين، والآباء والأمهات، ولم يكن مهيّأ ليشفي الغليل بقدر تخصيصه للتنغيص وإشعار المعتقل بواقعه الصادم.

يسجّل للرواية موقفها من المرأة، فقد انتصر الكاتب للمرأة؛ أمًّا، وعشيقة، وأختًا، وزوجة، وطالبة، وأومأ إلى ضرورة منحها حقها في الحياة والمساواة بلا تفريق مع الذكر.

وانتقد الكاتب التغيّر الحاصل على معتقدات اليساريين في المجتمع الذين يتخلون عن مبادئهم ورؤاهم وأحلامهم التي بشروا بها لصالح التوجه إلى الكسب المادي، وكأنه يقارن بين المادة والفكر لصالح الفكر، لأننا وجدناه هازئًا ولائمًا لمن يعجبون بالنقلة الجديدة تحت ذرائع التطور والتغيّر... هكذا تغيّر فلاديمير الروسي، وعمران الفلسطيني، والثوار الذين كانوا يعملون في الثورة قبل العودة إلى الوطن، وهكذا انهار الاتحاد السوفييتي نفسه.

"عناق الأصابع" رواية جريئة في طرح قضاياها، وانتقادها. وهي تضيف إلى الأدب الذي يوثق لتجربة الاعتقال بعدًا مهمًّا بأشخاصه، وأحداث، ومواقف أصحابه.

إنها تعانق التاريخ بالمتخيل الواقعي، لتكون الملحمة الفلسطينية التي لم تنته بعد. ولعل مخرجًا سينمائيًّا يختارها لإخراجها سينمائيًّا.

لقد أحسن الكاتب صنعًا حين استعان بلغة المونولوج العاطفية لشخصياته،

وفي استخدامه لتقنية المونتاج الفني، وفي نقل قارئه من أجواء السجن إلى البيوت وشوارع القدس ومستشفياتها وصحفها.

لقد زاوج بين الواقع الذي يوثق له والخيال الأدبي الذي يقول فيه رسالته: هذا هو العرس الفلسطيني الذي لا يلاقي فيه الحبيب حبيبه إلا شهيدًا أو أسيرًا، كما قالها من قبل (أديب نحوي (في) العرس الفلسطيني).

*

قصة عشق تعدت حدود الجنون

مريانا عفيف (كاتبة من فلسطين)

"عناق الأصابع".. يا له من اسم يعبر عما يحويه الكتاب.. مأخوذ من تعانق أصابع الأسرى وأصابع أهاليهم، فتلك التحايا وتلامس أيديهم المفعمة بالحب، كانت من خلال فتحات الشبك الصغيرة التي تفصل بين الزوار والأسرى وتمنعهم من "عناق الأجساد".

"عناق الأصابع" رواية أحضرت القليل من معاناة الأسرى إلى مخيلة قارئها.. تثير الحقد فيه و الفخر بأبناء شعبه.. ترصد أحزانهم ومشاكلهم ومصادر إلهامهم بالصمود وعلاقاتهم الغرامية والإنسانية.. تنقل لنا كيفية متابعة العدو الشرس لأوضاع الأسرى ودس الجواسيس بينهم، وكيفيه معاملة الأسرى للجاسوس عند اكتشافه.. تحملك إلى عالمهم إلى قلب الحدث ووسط الزنزانة لترى كم من عمر أفنوه خلف قضبان الظلام.. تراهم يحسبون الدقائق والثواني والأيام، أو تأخذهم الآلام لعالم الاستشهاد.. يموتون كما "تموت الأشجار واقفة".

يملأونك بالأمل، فهم مصدر أمل.. شعارهم الأمل، فذلك الأمل لن يفقدوه فهو مفتاح العودة إلى المنزل وتقبيل جبين الأرض، ومداعبة أغصان الزيتون. روى لنا فيها قصة عشق "أعجبتني" راقت لي.. استمتعت بها كثيرًا...

فقد روى لنا بروح متفائلة قصة عشق تعدت حدود الجنون.. أصبحت مثلاً للتضحية والفداء، فـ "علي النجار" أسير وشم النضال على جبينه.. عاش في السجن في غرف التحقيق و المحاكم. و"خولة شاهين" المرأة الجبارة التي لم تتخلّ عن تراب الأرض.. تلك هي الصحافية العظيمة...

أوقعت شباك الحب هذين العصفورين وحملتهم فوق غيوم الأمل.. تزوجا رغم قسوة القيد، وحُكم علي بالمؤبد.. باتا يحلمان بيوم التحرير.

أصبحت خوله حمامة بيضاء تطير من سجن لآخر حتى تصب حبها بلسمه.. بعناق لأصابعهما.. تصف عشقها حبها أملها في دقائق معدودة تجري بسرعة الرياح.. لتنتهي معاناتها يوم تبادل الأسرى.. وتبدأ من جديد عند اغتياله يوم زفافه.. فسحقًا للاحتلال.

بعيدًا عن عالمهم وبغض النظر، فقد استخدم الكاتب أسلوبًا سرديًّا سلسًا يسهل للجميع فهمه.. مجّد النضال فيه وأعطى كل شخصية حقها في كتابه.. احتوى على أسماء وأحداث حقيقية.. رواية رائعة بالنسبة إلي.. أخذتني إلى عالم النضال وتقديس كل شبر في الأرض..

رغم تلك الآلام و المآسي.. أظن أن السجن للرجال والأبطال، ورغم مرارة الذكرى، فتلك هي الذكريات التي يجب أن يفخر بها السجين فيكفيه شرف المحاولة بالسجن.

*

الرّواية وثيقة مهمّة تؤرخ لأدب السجون

موسى أبو دويح (ناقد أدبي من فلسطين)

استمدّ الكاتب عنوان روايته: "عناق الأصابع" من واقع السجون اليوم، حيث كان قديمًا زوّار السجون يدخلون إلى غرف المساجين أثناء الزيارة ويقضون وقت الزيارة معهم وبينهم. وبعدها فصلوا بين المساجين والزوّار بقضبان

حديدية يمدّ الزائر يده خلالها ويصافح السجين وبإمكانه أن يقبّله للمسافة الواسعة بين القضبان. ثم ضيقوا المسافات وجعلوا الفاصل شبكًا حديديًّا بإمكان الزائر أن يدخل إصبعه فقط من الفتحة وغالبًا لا يستطيع إدخال إصبع الإبهام لصغر الفتحة. واليوم استعاضوا عن كلّ ذلك في كثير من السجون الحديثة بحاجز زجاجي سميك بين السجين وزائره، ويتخاطبان بجهاز تلفون عند الزائر وآخر عند السجين.

أهدى الرواية إلى معلميه في المدارس الابتدائيّة والإعداديّة والثانويّة، وذكر أسماء تسعة وعشرين معلّمًا منهم، هم من تذكّرهم، واعتذر لمن نسيهم.

وختم روايته بعنوان "قالوا في الرواية"، بدأها بتقريظ للدكتور بوشعيب الساوريّ (ناقد أدبيّ من المغرب)، بعنوان: "عناق الأصابع إضافة نوعيّة للمشهد الروائي الفلسطينيّ". وثنّى بموضوع للدكتورة الفلسطينيّة نجمة حبيب خليل (من جامعة سدني/ أستراليا) بعنوان: "توثّق الرواية لدور المرأة في النضال الوطني". وبعدها لكلمة للدكتور أحمد الخميسي (من مصر) بعنوان: اشتباك بالواقع عبر الشّكل الروائيّ. وأخيرًا أستاذ الأدب العربيّ الحديث (بجامعة حلب) أحمد زياد محبك يكتب نقدًا للرواية بعنوان: "النهايات مدهشة".

كلٌّ من هؤلاء النقاد الأربعة، تناول الرواية من جانب أو جوانب، وكتبوا وأجادوا، وما كتبوا غير الحقيقة، فكانت كتاباتهم أوسمة للرواية زادتها حسنًا على حسن.

لفت نظري الوعي الذي صار عند بعض الأسرى حول رجال المقاومة والمسؤولين في منظمة التحرير بعد أوسلو. وكاتب الرّواية عادل سالم هو أكثرهم وعيًا؛ اسمع ما يقوله على لسان أحد الأسرى المحررين:

"بعد أوسلو قتلوا فينا كلّ حماس للنضال، خدعونا، كنّا نتوهّم أنّ قيادة الخارج جماعة من المناضلين، فإذا بكثير منهم من الفاسدين الذين جاؤوا

ليكوّنوا الثروات على حساب الشعب المسكين. حتّى الشرفاء منهم تعبوا وتغيّروا، لم أتصوّر يومًا أن أرى أشرف المناضلين يتساقطون في معمعان النضال أمام الأموال. الفساد في كل مكان. الأجهزة التي مَهَمّتها حماية شعبنا أصبحت أولوياتها حماية إسرائيل" (صفحة ٣٥٦، ٣٥٧).

لغة الرواية سهلة سلسة جميلة رائعة، وكاتبها مبدع، والأخطاء في الرواية قليلة، ولو دقّق الكاتب وأعاد قراءة الرواية قبل الطبع لتلافى أكثرها.

وختامًا: الرّواية وثيقة مهمّة تؤرخ لأدب السجون الذي ترعرع في فلسطين بعد نكستها سنة ١٩٦٧م ولكثرة ما اعتقل من شبابها بعد الانتفاضة الأولى سنة ١٩٨٧م وبعد انتفاضة الأقصى وإلى يومنا هذا.

الرواية تستحق القراءة وجديرة بالاقتناء.